

من رحم المأساة يُولد الأمل

وراء كل عبقري قصة معاناة !!

سلمى مجدي





-------------------------------- وراء كل عبقرى قصة مُعَانَاة!!



اسم الكتاب: وراء كل عبقرى قصة معاناة!!

اسم المؤلف: سلمى مجدي

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٣١٠/ ٢٠٠٨

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-376-423-0

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال- فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني- ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٩



دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢ - ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ ص.ب.٣٠٤٣ الشويفات
www.darketab.com - info@darketab.com
E-mail: darkitab2003@yahoo.com - darkitab-nassif@hotmail.com

من رحم المأساة يُولَد الأمل

وراءَ كلِّ عبقريٍّ قصةُ مُعَانَاةٍ!!

سلمى مجدي

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم

البشر نوعان .. نوع يرفع راية الاستسلام للحياة عندما تتنكر له، ويقر بالهزيمة، فيهيم على وجهه، وينتهي به الحال إلى حياة التشرد والضياع، وربما الجريمة والسجن .. وهناك نوع آخر يقبل التحدي، يرفض السقوط، ينتزع النور من عتمة الظلمة، ويُولِّد الأمل من رحم المأساة، ويحول بداياته الكارثية إلى نهايات بطولية ملحمية !

ومن هؤلاء الذين انتصروا على مآسيهم، وقهروا الصعاب، ورفضوا الاستسلام لواقعهم المؤلم، من هؤلاء عباقرة خلدهم التاريخ، لما قدموه للبشرية من خدمات عظيمة، لم يكن بمقدورهم تقديمها لو كانوا قد استسلموا لظروفهم اللعينة، التي ينوء عن حملها الملايين من البشر .

وفي هذا الكتاب نحاول تسليط الضوء على مآسي أهم وأبرز هؤلاء العباقرة فى شتى المجالات ممن انهالت عليهم الحجارة من كل حدب وصوب فاستجمعوا قواهم، وخرجوا من تحتها كالجبال شامخين، بعد أن جمعوها وشيدوا منها مجدًا وتاريخًا .

ومن هؤلاء سنطالع مأساة شارلي شابلن أشهر ممثل ومخرج سينمائي فى التاريخ، وكيف كانت حياته محكوما عليها بالفشل الذريع، فحولها إلى ملحمة يتغنى بها العالم حتى يومنا هذا .

كما سنطالع قصة عالم كبير فى حجم مايكل فارادي مخترع الدينامو، وكيف تنكرت له الحياة، وكادت تصيبه بالشلل، فنهض واستجمع قواه، وحركها وحركنا معه . ومعه من العلماء توماس أديسون مخترع الكهرباء، الملقب بالفاشل الذي أضاء لنا الدنيا، ومعه الجندي الجريح، الفار من معتقله هو وأسرته من سيبيريا ميخائيل كلاشينكوف مخترع البندقية الشهيرة التي تحمل اسمه، ومعه العبقري المكفوف برايل الذي اخترع طريقته الشهيرة التي جعلت المكفوفين يبصرون النور، والأخوان " رايت " وقد قدما للعالم أول طائرة فى تاريخه .

ومع كل هؤلاء يروي الكتاب قصة عالم مسلم يعرفه الغرب قبل الشرق هو أبو بكر الرازي، أبو الطب، الذي سبق زمنه، واستطاع أن يتحدى جميع محاولات خصومه لتحطيمه، وقدم للعالم ما يعينه على تضميد جروحه، وتسكين آلامه .

في هذا الكتاب أيضًا سنقرأ مأساة عبقري الموسيقى عبر العصور بيتهوفن، ومأساة الأديب العالمي الخالد الذكر ديستوفسكي، وزميليه فى سجل الخالدين شارلز ديكنز، وطه حسين، معهم فنانان خالدان خلود الأبدية بلوحاتهما الساحرة هما ليوناردو دافنشي، وفان جوخ، ولكلٍّ قصة معاناة تقطر ألمًا ومرارة !!

وفي الكتاب أيضًا سنطالع سويا قصة فيلسوف كل العصور العظيم سقراط، وكيف كان مماته كارثيًا كما كانت حياته، كأول رجل فى التاريخ يُعدَم بسبب فكره، وأيضًا سنتابع قصة العظيمة هيلين كيلر، التي فقدت حواسها الثلاث، فلم تستسلم لليأس، وبهرت العالم بما قدمته من نتاج خالد أثرت به مكتباتنا، ومعها " أوبرا وينفري " شخصية أخرى كادت الحياة أن تحطمها، وهى بعد تتفتح للحياة، بمأساة مركبة " الفقر واليتم والاغتصاب " ولكنها حولتها إلى أشهر قصة نجاح يتابعها العالم الآن .

كما يتضمن الكتاب قصة عبقري آخر هو أرسطو أوناسيس الذي لم يكن يملك سوى أصابع يديه وبذكائه وعرقه وجهده استطاع أن يصبح أكبر أباطرة المال والأعمال، ويتزوج أرملة الرئيس الأمريكي الراحل جون كيندي .

هذا الكتاب محاولة لتقديم نماذج بشرية رفضت الاستسلام لواقعها المؤلم، وقررت تحويل الهزيمة إلى نصر، فكان لها ما أرادت، ولكن كان وراء نجاحاتها سر يجمع بينها هو " سر العبقرية " الذي يحاول الكتاب الكشف عنه .

سلمى مجدي

شارلي شابلن ..

أسطورة صنعتها المأساة !!



1

"الإنسان يحاول أن يسعد نفسه، فلا يحظى إلا بالتعاسة، ولكن من هذه التعاسة، يتولد الضحك، ربما بسبب فظاعة المأساة، ربما بسبب تصارع الأضداد، ربما بسبب تجاوز التعاسة حد الحزن، حيث يصبح الضحك هو البديل المنطقي.. هكذا تحدث عبقري السينما العالمية لكل العصور شارلي شابلن ذات مرة عن نفسه، وكأنه يلخص ويشخص مأساته الشخصية، بهذه الكلمات الموجعة، التي لا تصدر إلا عن نفس مضطربة، ووجدان متأجج، وعقلية أدمتها الجراح " !!

والحقيقة أن شابلن لم يبالغ فيما قاله عن نفسه، فحياته كانت قصة مأساوية بطلها الرئيسي هو الفقر، الذي دفعه إلى حياة التشرد فى طفولته وصباه . صحيح يمكن أن نلمح فيها شخوصًا أخرى كالبؤس والشقاء والحظ التعس فى البدايات الأولى، إلا أن الفقر يبقى البطل الرئيسي لقصة شابلن، الذي تحول إلى ما يشبه حبل المشنقة يلتف بقوة حول عنق الطفل حتى كاد أن يخنقه !!

قصة شابلن هى قصة إنسان عظيم وُلد فوجد عالمًا مظلمًا موحشًا شديد العتمة، فأصر على أن يولد من ذاته أكبر كمية من الضوء، تحول معها إلى نجم تتوارى خلفه النجوم .. قصة إنسان عظيم استطاع تحويل الهزيمة المروعة إلى نصر ساحق، والفقر المدقع إلى ثراء فاحش .. إنها قصة المرء تنهال عليه الحجارة فتدفنه تحتها فيخرج من تحتها شامخًا شموخ الجبال !

ولد فى لندن يوم السادس عشر من أبريل عام ١٩٨٩، وقال عنها : " إنني ولدت فيها وذقت بين أزقتها مرارة الفقر والحرمان "، وعاش فيها منذ صغره حياة

بائسة،فأمه فنانة غنائية تعمل فى المسرح الغنائي وأبوه عاطل عن العمل يقضي نهاره فى سكر دائم بعد أن يقبض أجرها فيهرع إلى الحانات يشتري بها خمراً يملأ جوفه إنه شارلي شابلن .

وكأنه كان يمثل دور عمره، أو يعيد شريط حياته من جديد، ظهر شابلن لأول مرة بشخصية " المتسكع الصعلوك " فى الطرقات بشاربه المتميز وبنطلونه الممزق مرتديا قبعته، وممسكا بعكازته الملتوية، ومنتعلا حذاءه الغريب الضخم الذي يسير به كالبطة فى عام ١٩١٤. ولكن كيف ارتبط شابلن بدور عمره التاريخي " المتسكع الصعلوك " !؟

ففي يوم ما طلب منه المخرج الأمريكي "ماك سينث" بعد إشراكه فى أحد الأفلام، وبعدما انتقل من المسرح إلى السينما بأن يضع ماكياجًا مضحكًا، فلم يجد شابلن إلا أن يرتدي بنطلونًا منفوخًا، سترة ضيقة، حذاءً ضخمًا، قبعة صغيرة، عصا وشارب قصير، ثم ارتجل مشية لهذه الشخصية. ولما أبدى المخرج إعجابه بالملابس والمشية، ارتجل شابلن ملامح الشخصية قائلا للمخرج :

"إنه رجل ذو جوانب متعددة، فهو صعلوك ومهذب وشاعر وحالم ووحيد فى الحياة، ولكنه يأمل فى أن يحب ويغامر، وهو يستطيع أن يوهمك بأنه عالم، أو دوق أو لاعب بولو. ومع ذلك لا يمتنع عن التقاط أعقاب السجائر أو خطف الحلوى من الأطفال.

ولما دخل شابلن الأستوديو على هيئته تلك، تعثر بقدم أحد العمال فوقع أرضًا، ثم وقف لكنّه تعثر مرة أخرى بقطعة من الأثاث ووقع على الأرض، فقام ورفع قبعته لقطعة الأثاث وكأنه يحييها، فضحك جميع من فى الأستديو، وهكذا خرجت للنور شخصية المتسكع الصعلوك.

وفي معظم رواياته الأولى نرى شارلي طريد المجتمع. إنه إنسان مفلس مسكين يطارده رجل البوليس لأنه متشرد.وهو متشرد لأنه طوال يومه يحاول أن يصنع

الخير. إنه لا يعمل عاملاً فى مصنع أو خادماً فى مقهى أو فى بيت، لأنه ليس مجرد طالب لقمة عيش.

ولكنه إنسان يفضل أن يطعم الناس على أن يأكل. فى إحدى رواياته يسرق أصبع موز لكي يطعم به طفلاً جائعاً تحمله امرأة مسكينة على كتفها.

و بينما هو يسير وراء المرأة ويطعم الطفل والطفل يضحك، وفجأة تلتفت المرأة وتصفعه على وجهه لأنه فى سيره لمس ظهرها. ثم نرى البقال الذي سرق منه أصبع الموز يستغيث بالبوليس، ورجل البوليس الضخم يجري وراء شارلي المسكين والمرأة تقول إنه كان يعاكسها. تصور المصائب التي جرها هذا المسكين على نفسه لمجرد أنه إنسان طيب القلب. هنا نحن لسنا أمام مضحك بل أمام إنسان، وهذا هو المهم فى هذا الرجل، أنه لم يقف عند حدود الإضحاك، وهو عملية بسيطة، بل نفذ إلى أعماق النفس البشرية.

شابلن الذي اكتشفت أمه موهبته منذ كان فى الثانية من عمره وما أن بلغ الخامسة حتى دفعه أبوه إلى المسرح حينما مرضت زوجته ونقلت إلى المشفى لمرض طارئ ألم بها حيث أنشد للجمهورحتى ملوا منه فأخرجوه من المسرح باكياً .

وتمضي الأيام مسرعة فيموت الأب وتظل الأم راقدة فى المشفى ليجد شارلي وأخوه " سيدنى " نفسيهما فى دار الأيتام ولم يخرجا منه إلا بخروج والدتهما من المشفى ،حيث أدخلتهما المدرسة وصرفت عليهما من ثمن حياكة الملابس التي تتقنها أيضًا لكن سرعان ماعادت إلى مرضها الشديد الذي أنهك قواها فماتت، ليتسكع شارلي فى الشوارع مع الأطفال الفقراء وعاش كما يعيش اللقطاء لكنه استفاد من هذه الأجواء ليحول حياته إلى فيلم صامت اسمه " الصغير " .

اعتلى تشارلي خشبة المسرح لأول مرة عندما كان فى الخامسة من العمر حيث قام بالأداء فى مسرح الموسيقى فى عام ١٨٩٤ بدلا عن أمه. وكان أثناء طفولته قد

اضطر للبقاء فى الفراش لأسابيع نتيجة لمرض خطير أصابه، وكانت والدته عندما يحل الليل تجلس بالقرب من النافذة وتمثل له ما يدور فى الخارج.

فى عام ١٩٠٠، عندما كان فى الحادية عشرة، ساعد أخوه فى أن يحصل على دور كوميدي فى إيمائية سندريلا فى مضمار لندن .

في عام ١٩٠٣ شارك فى " غراميات كوكيني»، ثم تلا ذلك أول وظيفة ثابتة له فى شخصية بيلي، الطفل بائع الصحف، فى شارلوك هولمز والذي عمل فيه حتى عام ١٩٠٦ م. بعد ذلك عمل فى استعراض «سيرك المحكمة» المنوع فى كاسي، وبعد ذلك بعام أصبح مهرجا فى شركة فرد كارنو الكوميدية «مصنع المرح»

تشارلي تشابلن فى «الطفل»وفقا لسجلات المهاجرين. وصل تشارلي تشابلن إلى الولايات المتحدة فى ٢١ أكتوبر ١٩١٢. فى شركة كارنو كان يعمل آرثر ستانلي جيفرسون، الذي أصبح يعرف فيما بعد بستان لوريل. تشارك تشابلن ولوريل غرفة فى نزل. ثم عاد لوريل إلى إنجلترا فيما بقي تشابلن فى الولايات المتحدة. شاهد المنتج ماك سينيت أداء تشابلن وعينه للعمل فى الاستوديو الخاص به فى شركة أفلام كيستون.

واجهت تشابلن صعوبات فى بداية الأمر للتأقلم مع أسلوب التمثيل فى كيستون ولكنه سرعان ما تأقلم مع البيئة الجديدة وبدأ مشوار النجاح. كان ذلك، إلى حد ما، بسبب تطوير تشابلن لشخصية الصعلوك التي اشتهر بها، الأمر الذي جعله يرتقي إلى أن أصبح له دور إخراجي وابداعي وأصبح من أعلام كيستون الشهيرين.

ويظهر من تاريخ ما كان يتقاضاه تشابلن السرعة التي ذاع فيه صيته عالميا، وكذلك مهارة أخيه سيدني فى إدارة أعماله.

أبدع تجسيد شخصية المتشرد الصغير "شارلي" التي تحولت إلى رمز للمسحوقين أينما كانوا، حيث استطاع شابلن أن يعبر عن هذه الطبقة المطحونة

لأنه كان يعيش نفس المأساة عندما وقع الطلاق بين والديه وتحملت الأم وحدها مسئولية رعايته هو وأخيه .

وعند وفاة والده بدأ تشارلي مرحلة جديدة حيث اتجه للعمل من أجل الحصول على المال اللازم للمعيشة فعمل فى البداية فى فرقة لرقص الكلاكيت ثم تنقل فى العديد من الأعمال فعمل خادماً وبائعاً وغيرها العديد من الأعمال، إلى أن وصل إلى العالمية.

وكان شابلن يكره مظاهر الحياة الزائفة من حوله ولم يشعر بالزهور والغرور رغم نجاحاته .

وبالإضافة إلى أن شابلن ممثل عالمي رائع، فهو موسيقي وشاعر ومخرج ومنتج. فقد كانت أعمال شابلن كثيفة، ففي عام ١٩١٤ مثل وأخرج ٣٥ فلما، حيث ظهر فيلم المهاجر فى تلك الفترة ليعبر عن الغرباء المهاجرين ومعاناتهم فى الوطن الجديد، ثم فيلم الشارع الذي صوره عن الفوضى والفقر عن تلك الفترة، وبعده أتى فيلم (الطفل) المفعم بالحب الإنساني لطفل لقيط لم تستطع أمه تربيته لفقرها، ومن ثم أتى الفيلم الرائع (الأزمنة الحديثة) والذي كان نقدا واضحا للنظام الرأسمالي الذي استعبد الناس، بالإضافة إلى أن الفترة الزمنية التي كانت تحياها الولايات المتحدة هي فترة كساد اقتصادي وهي إحدى الدورات التي تتكرر فى هذا النظام. وحتى إن هذا الفيلم منع عرضه فى كل من إيطاليا وألمانيا. القصة بأن صاحب الشركة يبحث عن الطرق والأساليب لزيادة الإنتاج غير ناظر إلى العوامل الإنسانية بل هو يعامل العمال كجزء من آلات المصنع.

وأتى فيلم " الدكتاتور " عن أدولف هتلر حيث جعل منه على الشاشة مسخا ساخرا. وعرضه عندما كان هتلر يحتل أوروبا ويفرض منطقه على العالم.

والفيلم الذي ترك ضجة فى الصحف الأمريكية كان (مسيو فيردو) والتي بدأت مضايقته بشكل علني من المخابرات الأمريكية. والتي انتهت به فيما بعد إلى اختيار المنفى فى سويسره بعد إدراكه أن الحكومة الأمريكية لا تبيت له خيرا.

والفيلم يروي قصة عامل فقير فى البنك يحتاج إلى دواء لزوجته وأخيرا ينتقل من عائلة غنية إلى أخرى ليتزوج من الأرامل ويقتلهن ثم يجمع التأمين. وفيلم (ملك فى نيويورك) والذي يتحدث عن فترة مكارثي فى محاكمة الشيوعيين والذي تعرض إلى المحاكمة باتهامه كونه شيوعيّاً.

و قد تركزت معظم أفلام شابلن على مشاكل الإنسان بشكل عام والفقراء بشكل خاص تحت وطأة النظام الرأسمالي الصناعي، فقد اختار لنفسه أن يكون رمزا للإنسان المتشرد الفقير الباحث عن لقمته اليومية.

وكان دائما يفعل ما يتمناه الإنسان الفقير المضطهد بأخذ الثأر سواءً من الشرطي أو من ممثلي الطبقة الراقية، فقد ظهرت أوائل هذه الظاهرة فى فلمه (المهاجر) الذي رفس لأول مرة شرطي الهجرة عندما خرج من الباخرة آتيا من وطنه الأصلي. ثم تبع أفلامه ظواهر أخرى مثل شد لحية رجل أعمال أنيق أو السخرية منه، فقد صرح فى إحدى المقالات الصحفية قائلا: أتعلم لماذا يضحك الناس إذا ما رأوا شرطيا يسير على الرصيف وينزلق ويقع أو رأسمالي أنيق يُشد من لحيته، لأن ٩٠٪ منهم يود فعل ذلك بطريقة لا شعورية. وتكمن نظرته هنا فى العلاقة مابين الشرطي والمواطن كون الشرطي يمثل النظام بصورة ما. وربما كان رمز فلم (مسيو فردو) هو الفرد الضائع فى المجتمع والذي يصبو إلى الغنى بطرق ملتوية حيث احدث قنبلة ضجت لها الصحف الأمريكية، وربما خلاصة الفلم فى نهايته عند المحاكمة عندما يعترف بأنه سفاح لكنه يسأل كيف تشن الحروب ضد الدول الضعيفة لذات الهدف.

و ما إن عرض فيلم مسيو فيردو حتى تلقى شارلي شابلن وابلا من الأسئلة العدائية من الصحافة وبدأت السلطات الأمريكية حملتها عليه ومحاولة سجنه.

فقد اتفقوا مع فتاة تحت السن القانوني بأن تدعي بأنه اغتصبها، وعندما وضعت الفتاة وليدها أثبت الطبيب الشرعي بأن الوليد لم يكن ابن شابلن .

وفي تلك الآونة صرح شابلن للصحافة بأن الحكومة الأمريكية تلجأ إلى هذه الطريقة من البلطجة القانونية لتشويه خصومها السياسيين، ولم تكتفى السلطة لهذا الحد بل ظلت تلاحقه بتلفيق قصة جديدة بأنه خالف أحد القوانين والتي كانت تطبق فى الحروب الأهلية.

فكتب حول ذلك بأنه كان يستيقظ يوميا صباحا ثم يخرج بعد الإفطار للمحكمة. وأيضا أثبتت براءته فى هذه المرة إلا أن ذلك قد وضعه فى قوقعة الكآبة والحزن الشديد الذي شعر من خلاله بأنه مجوف من الداخل وجريح وعاري من الكرامة.

واستدعي من قبل لجنة مكافحة النشاطات الغير أمريكية إلى واشنطن فأخبرهم إذا كانوا يلاحقونه كونه شيوعيا ، فهو ليس كذلك ولم يحدث بأنه انضم إلى منظمة أو حزب من قبل.

ومن جملة الأسئلة التي تقصد التجريح بالفنان العبقري بأن الصحافة وجهت له سؤالا مرة : لماذا لم يتجنس كأمريكي بعد ، فأجاب بأنه لا داعي لتغيير جنسيته، فهو مواطن عالمي، ثم كان السؤال الثاني بأنه يكسب ثروته من أمريكا فقال حسنا. إذا كنت تنظر من المسألة على أساس نفعي فلنجعل الأمور واضحة. إن تجارتي عالمية و٧٠٪ من دخلي أكسبه من الخارج بينما تحصل الولايات المتحدة على ضرائبها كاملة وهكذا ترى بأني ضيف سخي فيما يدفع.

وتدور أسئلة كثيرة وملاحقة المخابرات متواصلة حيث سئل شابلن عن صديق عزيز وموسيقار أمريكي كبير هو (هانز ايزلر) هل تعرف ذلك الشخص؟ فأجاب بأنه صديق عزيز . وهل تعرف بأنه شيوعي، لا يخصني ماذا يكون فصداقتي لا تقوم على أسس سياسية .

وقد علق فى كتابته على ذلك الموقف قائلا : أحسست بعد الاجتماع بمرارة شديدة فى داخلي، فقد أدركت أني أواجه عداءً مسعورا . وكتب جيم إيجي الروائي الأمريكي الكبير فى مجلة التايمز : " ما شعور الإنسان حين يكون فنانا وقد أثرى العالم بكل هذه السعادة وكل هذا الفهم للناس البسطاء، ثم يهان ويتلقى الكراهية من جانب ممثلي الصحافة الأمريكية.

لم يكن شابلن من المرغوب فيهم من السلطة الأمريكية. وليس هو الوحيد بل هكذا فعلت السلطة مع الروائي العالمي (أرنست همنغواي) الذي كان ملفه بالأطنان عند المخابرات الأمريكية. وعندما شبع شابلن كراهية من السلطة اختار منفى لنفسه فى سويسرة حيث مات هناك تاركا أعدادا هائلة من الأفلام الرائعة التي تندرج تحت رداء الفن الإنساني الأصيل. وهكذا خلد شارلي شابلن فى تاريخ الفن الأصيل.

ورغم عدم اعتراف الولايات المتحدة بفضل شابلن بتطوير فن السينما ومعاقبته بتهمة ملفقة، ورغم المجد والشهرة فإن شارلي شابلن لم يتجاهل يومًا أهمية السينما وما تقدمه من متعة وفائدة للجنس البشري، ولم ينس العمال والناس البسطاء، وبقي يقدم قصصهم وحكاياتهم عبر شخصية المتشرد الصعلوك التي تبناها بدءًا من أفلام "حياة كلب ١٩١٧"، "الطفل عام ١٩٢١"، السيرك ١٩٢٨"، "أضواء المدينة ١٩٣١"، و"الأزمنة الحديثة ١٩٣٦"، ففي ذات الوقت كانت هذه أفلام سينمائية بمستوى رفيع لم تنافسها فى حرفيتها وقوتها الأفلام الأخرى.

ورغم تربع شابلن على عرش السينما فإنه بقي فى دخيلة نفسه ذلك الإنسان البسيط من حي فقير فى لندن، فلم يراهن على المؤسسات الحاكمة فى أمريكا، وفضّل النزوح والرحيل ليقضي بقية حياته فى سويسرا ويموت هناك عام ١٩٧٧ بعد أن قضى ٨٨ عامًا فى العمل والسخرية وتطوير فن الإيماء، وقد حقق شخصية لن يستطع أحد أن ينساها، إنه الصعلوك الذي لن يموت أبدًا.

أما عن حياته الأسرية، فقد تزوج شارلي شابلن لأول مرة من الممثلة الناشئة « ميلدريدهاريس » حيث أنجبت له طفلاً مات بعد ثلاثة أيام من ولادته، ليصب غضبه على زوجته ليموت حبه لها مع موت المولود الجديد .

ولا ينسى هذا النجم الكبير مسقط رأسه « لندن » بل قرر زيارتها بعد أن بلغت ثروته مليون دولار جمعها من فيلم واحد « الصغير » الذي يحكي قصة تسكعه فى الشوارع الفقيرة ليستقبله الناس فى كل ميناء كان يمر به فى السفينة التي تقله حيث سجل فرحة الناس فى كتابه « رحلتي مع البحار » وقد سأله الصحفيون عما يريد تأكيده من فيلمه « البحث عن الذهب » أجابهم بنشوة أريد أن يذكرني الجمهور من خلال دوري فيه، وبلغ دخله من هذا الفيلم أكثر من مليوني دولار .

ثم تزوج للمرة الثانية من « لينا جراي » حيث أنجبت له ولدين تشارلز وسيدني، الا أن زواجه لم يستمر حيث أعلن فشل زواجه وقرر الطلاق . وعندما بدأ تصوير فيلمه « أضواء المدينة » أعلن أمام جمهوره من الصحفيين والنقاد بأنه يهدف من الفيلم « إنني أحاول أن أجد نفسي وأن أجدها فى هذا الفيلم إلا أن والدته توفيت أثناء تصوير الفيلم بعد أن عاشت معه، وقد تأثرعليها كثيراً حتى قال عنه كثيرون بأن شارلي لن يعود ثانية إلى السينما فدفن أمه إلى جانب طفله الذي مات بعد ولادته بثلاثة أعوام.

ثم تزوج الثالثة من الممثلة التي كانت تسمى فى هوليود « آلهة الحب » « بوليت جودار » حيث فشل الزواج وانتهى أيضاً .. ليتزوج آخر مرة من فتاة صغيرة بعمر أبنائه « أونا » ابنة الكاتب المسرحي « يوجين أونيل » أنجب منها ستة أطفال ولد معظمهم فى سويسرا التي صارت موطنه الجديد، لقد مال شارلي شابلن إلى الاشتراكية ولم ينكرها ،وأنكر أيضاً أنه يعمل ضد أمريكا ثم أنكر أنه شيوعي ولما سألوه عن سبب رفضه حمل الجنسية الأمريكية قال : «لأنني مواطن عالمي ..أنا رجل أنتمي إلى العالم كله . وفي موقف فكاهي يحمل فى طياته أبعاداً أخرى حينما

قال له الزعيم تشرشل :«أتمنى أن أضع لك تمثالاً فوق ساعة بج بن فقال له شارلي شابلن :« لاأظن أنني سأكون سعيداً لأن دقاتها سوف تزعجني . - مات الصعلوك الفيلسوف في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٧٧ في مدينة " فيفي " ولا زال محبوه ومعجبوه يأتون لزيارة قبره ..يتذكرون من أضحكهم ..وأبكاهم وصور همومهم وسخر من بعض مواقعهم . . توفي شابلن عن ٨٨ عاماً كان قد قدم خلالها أكثر من ٨٠ فيلماً أصبح بفضلها عبقري الكوميديا الذي أسعد الملايين في كل انحاء العالم ولا يزال .

وقد فاز شابلن بجائزتي أوسكار فخريتين في عامي ١٩٢٧ و١٩٧١ كما فاز بجائزة الأوسكار لأفضل موسيقى تصويرية عن فيلمه الشهير (أضواءالمسرح) عام ١٩٧٢كما منحته الملكة اليزابيث ١٩٧٥ لقب سير .

وبالإضافة إلى مبتكرات شابلن السينمائية كان له السبق في النقد الاجتماعي والسياسي في وقت لم يكن يجرؤأحد غيره على فعل ذلك وبسبب ذلك اتهم باليسارية والشيوعية وفي عام ١٩٥٢ منع من دخول الولايات المتحدة وعاد لبريطانيا ليمضي باقي حياته هناك .

و إذا كان الفن الأصيل هو الفن الذي لا يُطْرَح لفئة محدودة من الناس، بل يتوجه إلى الأكثرية وإلى الإنسانية جمعاء، وبذلك تختفي هويته القومية ليكون لمختلف القوميات والأجناس، ويصبح الفنان هنا خارجًا عن حدود المكان والزمان، بل يصبح مدرسة للأجيال القادمة.

وإذا كان الفن الأصيل هو الذي يحمل آلام الإنسان وهمومه ومعاناته، فإن شارلي شابلن يأتي في طليعة الذين تركوا بصمتهم على صفحة التاريخ الإنساني والفني، فقد أضحكنا وأبكانا وخلف في أنفسنا مشاعر وأحاسيس لا يمكن لها أن تنسى.

وقد كان لشابلن الملقب بـ " فيلسوف الإيماءة وعبقري الصمت " دائما موقفه

من الحياة والناس ومن نفسه، وقد عبر عن ذلك إلى جانب أفلامه وتصريحاته..

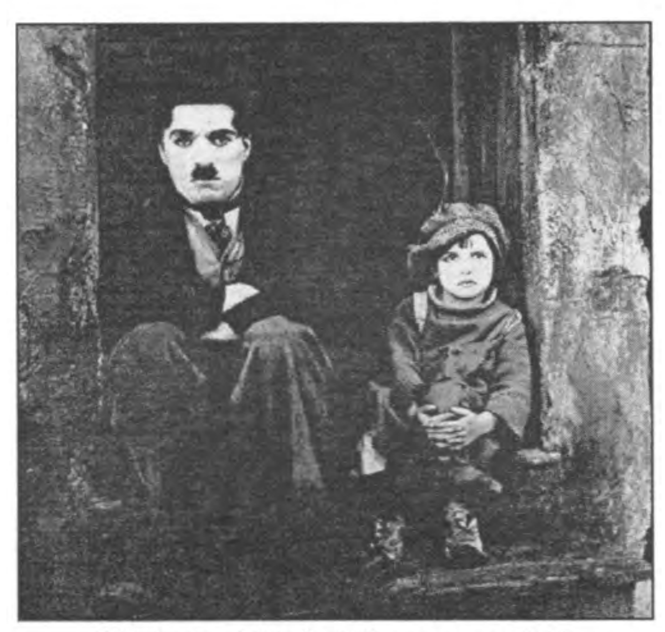
من أشهر أقواله فى حياته :

- الجوع لا ضمير له.
- نحن نفكر كثيراً، ونشعر قليلاً.
- يوم بدون ضحك هو يوم ضائع.
- تأتي الفكرة عن طريق الرغبة الشديدة.
- الحياة قد تصبح رائعة إذا تركك الناس وشأنهم.
- لا شيء دائم فى هذا العالم الكريه، ليس حتى مشاكلنا.
- الديكتاتوريون يحررون أنفسهم، ولكنهم يستعبدون الناس.
- الفشل لا يهم، إنه من الشجاعة أن تجعل من نفسك أضحوكة.
- أن تساعد صديقاً فى حاجة هذا أمر سهل، أما أن تعطيه من وقتك هذا دائماً غير ملائم.
- الرجل الذي لا يعرف نواحي القوة فيه هدف سهل للمرأة التي تعرف نواحي الضعف فيه.

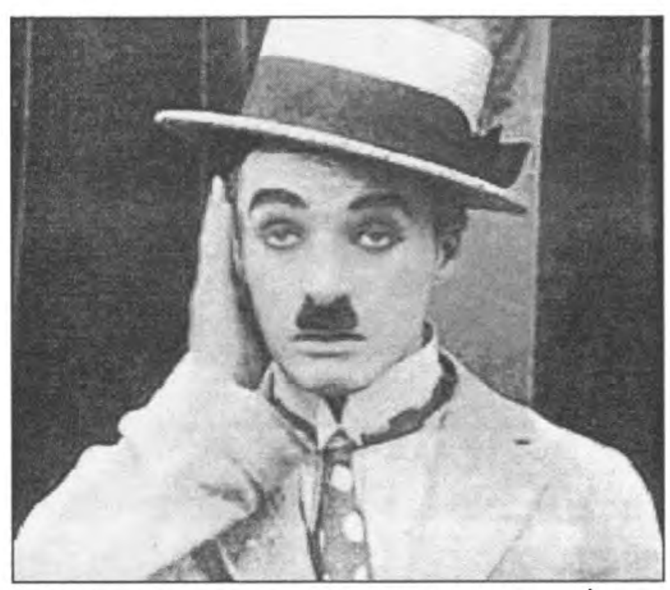
شابلن فى أولى بداياته ..



وفي أشهر أدواره
" المتسكع الصعلوك " !



شابلن .. جسد حياة العوز والفقر والحاجة !!



ولم يُنسه النجاح والشهرة والثراء جراح الماضي الأليم !





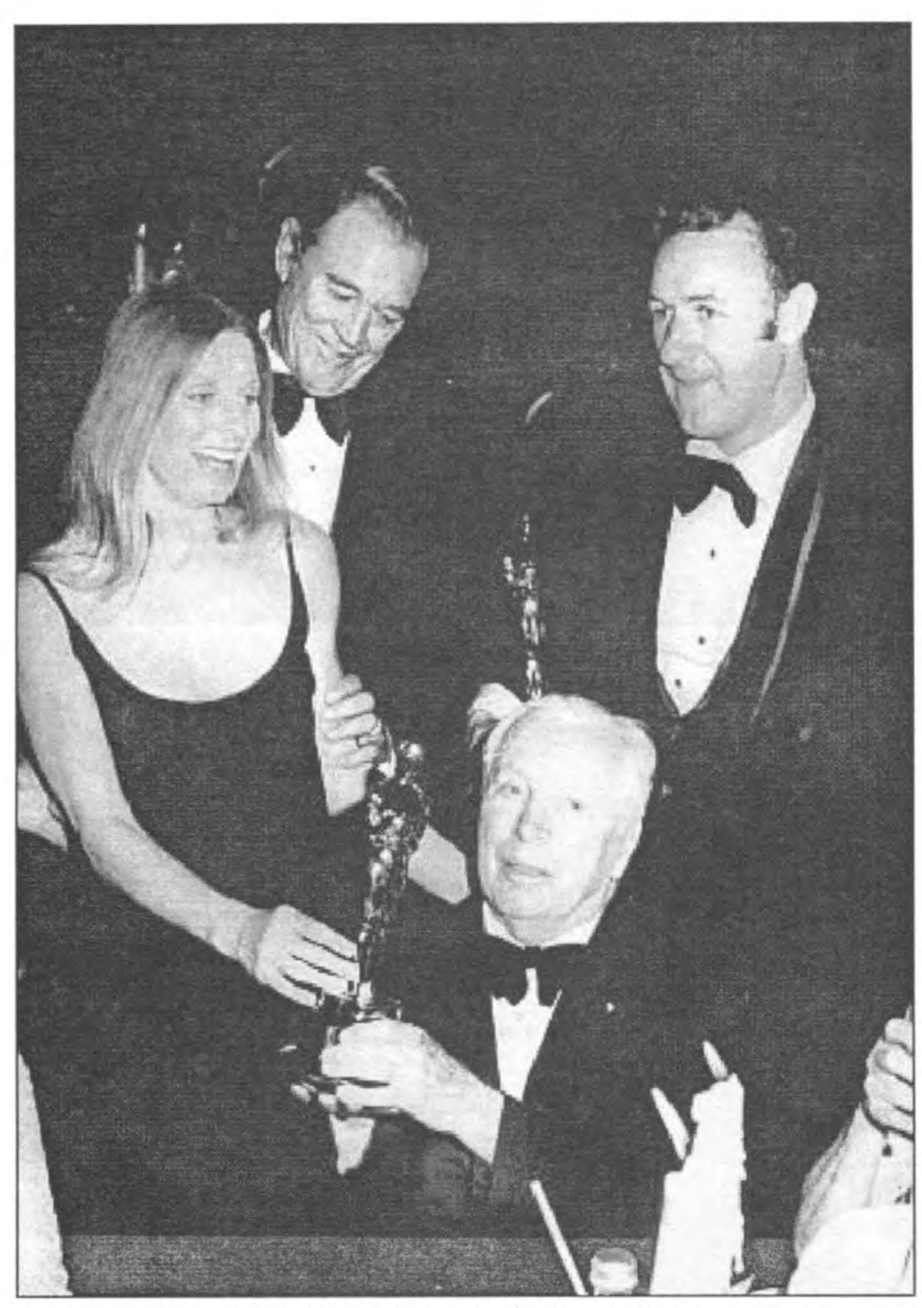
شابلن يؤدي شخصية هتلر فى فيلمه الشهير " الدكتاتور " .



شابلن حلاق السيدات !



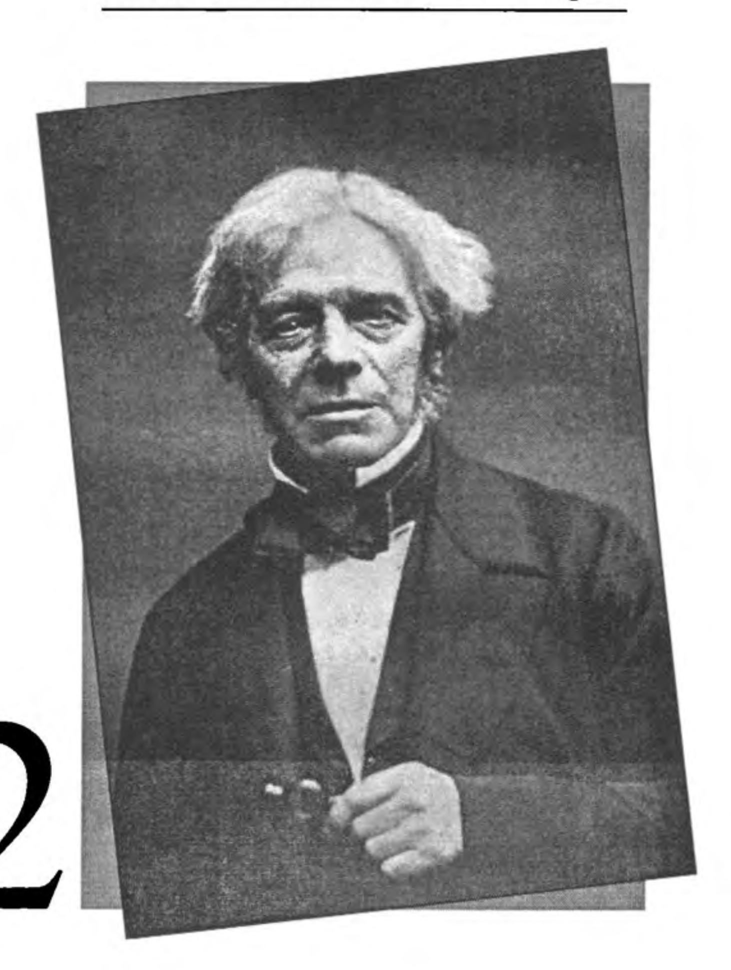
شابلن العاشق الولهان !



شابلن يمسك بآخر جائزة أوسكار حصل عليها فى نهاية حياته .

مايكل فاراداي ..

بائع الكتب من أعاظم المخترعين !!



2

كان من الطبيعي لو أن الصغير مايكل ظل بائعًا للكتب، وكان من الطبيعي أيضًا أن يصبح فى المستقبل مجرد شخص عادي، جاء إلى الدنيا ورحل دون أن يدري به أحد . ولكن ما حدث هو أن الصغير الذي فرضت عليه ظروفه أن يذوق الأَمَرَّيْن، ويضطر إلى العمل صغيرًا، قد قرر – فيما يبدو – أن يكون فى المستقبل كبيرًا ليتبوأ مكانته فى سجل الخالدين .

مايكل فاراداي (١٧٩١ – ١٨٦٧) هو أشهر كيميائي وفيزيائي إنكليزي، وأحد عباقرة العالم، وهو مخترع المولد الكهربي " الدينامو " أي أنه الرجل الذي جعلنا– كما يقولون - نتحرك .

ولد فاراداي فى " نيفغتون باتس " قرب لندن بإنكلترا فى أسرة فقيرة، لأب يعمل حدادًا، لا يتقاضى سوى أجر زهيد للغاية . ومن هنا اضطر الصغير أن يخرج إلى سوق العمل فى سن مبكرة، وبدلا من أن يحيا طفولته، كسائر أقرانه، راح يعمل ويعمل ليساعد أباه فى إعالة إخوته الأربعة .

وقبل أن يكمل عامه الثالث عشر عمل فاراداي بائعًا فى مخزن لبيع وتجليد الكتب، مستفيدًا من تعلمه للقراءة والكتابة . وكان ينكب على المطالعة خلال وقت الغداء وبعد انتهاء العمل، حيث كان يكرس أمسياته لدراسة الفيزياء والكيمياء، التي كانت تستهويه أكثر من أي شيء آخر !

وبعد أن مر عليه سبع سنوات فى مخزن بيع وتجليد الكتب ،وعلَّم فيها نفسه بنفسه، وتمكن من تكوين خلفية علمية ممتازة، استطاع أن يحصل على لقب "معلم " .

بعد ذلك، انتقل فاراداي للعمل فى معمل " دي لاروش " وبعد انتهاء العمل كان يذهب مع صديقه " دين داتس " للاستماع إلى محاضرات العالم همفري ديفي. وفي سنة ١٨١٢وجه رسالة إلى رئيس الجمعية الملكية يطلب فيها قبوله كمساعد فى المختبر فلم يحصل على جواب .

اتصل بعد مدة بالعالم " همفري ديفي " فطلب منه مقابلة فى ١٤ أغسطس سنة ١٨١٢ ورفض هذا الأخير مساعدته، لكنه عاد وقبله كعامل بسيط .

بدأ مايكل العمل فى مختبر ديفي فى أواخر أغسطس عام ١٨١٢ كمنظف للأدوات وتحضير المواد الكيميائية، وأعطى غرفة للسكن فى المختبر . . ثم حدث انفجار فى مختبر ديفي عند اكتشاف الصوديوم مما اضطر ديفي بعد أن فقد عينه اليمنى، إلى طلب مساعدة فاراداي لقراءة مؤشرات الأجهزة وأرقامها. وعند زواج ديفي سافر فاراداي معه فى رحلته التي زار فيها باريس ومونبليه وفلورنسا وروما ونابولي . لم يعلق فى ذهن مايكل سوى المشهد الذي حضره فى قصر دوق توسكانا عندما قام ديفي بحرق خاتم الدوق الماسي لإقناعه بأن الماس مكون فقط من الكربون!!

وبعد أن عاد فاراداي إلى لندن عين أستاذاً مساعداً مسؤولاً عن التجهيزات فى المعهد الملكي البريطاني . كما بقي فى خدمة ديفي وقام بأول بحث بمفرده فى أثناء ذلك حول تحليل التربة التوسكانية ونشر مضمون هذه الدراسة فى مجلة المعهد الملكي سنة ١٨١٦.

وبدأت أبحاثه تتتابع سنة ١٨١٩ طلب إليه الصناعي جيمس ستودرت القيام بدراسة لتحضير الفولاذ المقاوم للصدأ، فتوصل فاراداي إلى ذلك بزيادة مادتي الكروم والنيكل إلى الفولاذ المعروف عادة.

كما قام بدراسات كيميائية اكتشف خلالها عدة مركبات عرفت باسم كلوريدات الهيدروكربونات .

ومن أهم أعماله فى تلك الفترة :

* اكتشف طريقة لمقاومة الصدأ من الفولاذ بإضافة مادتي الكروم والنيكل بنسب معينة .
* اكتشف مركبات كيميائية أهمها كلوريدات وهيدروكربونات .
* أصبح عضوا فى مختبرات المعهد الملكي سنة ١٨٢١ .
* اكتشف القوانين الناتجة عن تأثير التيار الكهربي على اتجاه البوصلة .
* اكتشف عام ١٨٣١ قانون المحول الكهربي وكيفية عمله .
* اكتشف ظاهرة الحث الكهرومغناطيسي induction electromagnetic .
* اكتشف الالكترود والكاتود والعازل الكهربائي وغيرها .
* اكتشف قانون حساب كمية المادة التي تتراكم على الالكترود عند مرور التيار الكهربائي فى محلول .

و قد انتخب فى العام ١٨٢١ مسؤولاً أساسياً عن مختبرات المعهد الملكي وتزوج فى السنة نفسها من " سارة برناد " وتابع آنذاك أبحاثه الكيميائية . وبعد أن اطلع على أبحاث أورستد فى أواخر ١٨٢١ حول تأثير التيار الكهربائي على اتجاه البوصلة، قام فاراداي بدراسة هذا الموضوع فتوصل إلى نتيجتين :

١- يغير عقرب البوصلة اتجاهه تحت تأثير التيار الكهربائي ليشكل معه زاوية قائمة .

٢- توصل إلى تصميم جهاز فيه قطعة ممغنطة تدور بدون توقف حول الجسم الذي يمر فيه التيار الكهربائي .

اكتشف قانون المحول الكهربائي وكيفية عمله، كما اكتشف ظاهرة الحث الكهرومغناطيسي ودرس عملية مرور التيار الكهربائي فى مختلف الأجسام، واقترح

عدداً كبيراً من المصطلحات العلمية التي لا تزال تستخدم اليوم ،نذكر منها: الإلكترود - الكاثود - الأنود - الأيون - العازل الكهربائي وغيرها .

أهم قانون وضعه هو كيفية إيجاد كمية المادة التي تتراكم على الإلكترود عند مرور التيار الكهربائي فى محلول معين، فعرف هذا القانون باسمه .

ويمكن تفسير قانون فارادي للتأثير المغناطيسي، وهو سر عبقريته وشهرته على النحو التالي :

عند تغيير التدفق المغناطيسي الذي يجتاز ملفًا كهر بائيا يتولد تيار كهربائي تأثيري لحظي (لحظة تغير التدفق) فى دائرة الملف.

ويعتمد اتجاه التيار على اتجاه هذا التغير بالزيادة أو النقصان. هذا ما لاحظه العالم "مايكل فاراداي" وهو يقوم بتجربته التي استخدم فيها الدائرة الكهربائية.

استخدم فاراداي ملفين حلزونيين، قام بتوصيل أحدهما (الملف الابتدائي) بدائرة كهربائية بها مفتاح كهربائي، ووصل الملف الآخر (الملف الثانوي) بجلفانومتر.

وحيث إن الملف الثانوي غير موصول ببطارية، فإن أي سريان للتيار الكهربائي فى الدائرة الثانوية يدل على وجود مؤثر خارجي قام بتوليد هذا التيار.

وعندما قام فاراداي بإغلاق مفتاح الدائرة الكهربائية لاحظ انحراف مؤشر الجلفانومتر مما يدل على مرور تيار كهربائي فى الدائرة الثانوية، ثم لاحظ انحراف المؤشر فى الاتجاه المعاكس عند قطع التيار عن الدائرة الابتدائية (لحظة فتح المفتاح الكهربائي)، وعند إبقاء الدائرة الابتدائية مغلقة (أو مفتوحة) لاحظ عدم انحراف المؤشر.

وقد استنتج فاراداي أن التيار الكهربائي(التأثيري) المتولد فى الدائرة الثانوية هو نتيجة تغير التدفق المغناطيسي الناشئ عن الملف الابتدائي لحظة غلق أو فتح المفتاح، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن التيار الأصلي فى الدائرة الابتدائية لا يصل لحظياً (لحظة غلق المفتاح) إلى قيمته العظمى، بل يبدأ من الصفر ثم يتزايد تدريجياً حتى يصل إلى قيمته العظمى.

ولذلك فإن المجال المغناطيسي الناشئ عن التيار يتزايد أيضاً من الصفر إلى القيمة العظمى ويتغير تبعاً لذلك التدفق المغناطيسي الناشئ عن الملف الابتدائي والذي يقطع الملف الثانوي مسبباً سريان تيار كهربائي تأثيري فى الدائرة الثانوية.

وعندما يصل المجال المغناطيسي الناشئ عن الملف الابتدائي إلى قيمة ثابتة(بعد فترة قصيرة من غلق المفتاح) تكون قراءة الجلفانومتر مساوية الصفر دلالة على عدم مرور تيار كهربائي فى الدائرة الثانوية.

وهكذا صاغ فاراداي قانونه الذي ينص على أنه: "إذا تعرض ملف موصل إلى تدفق مغناطيسي متغير، ينشأ بين طرفيه قوة دافعة تأثيرية (تسبب مرور تيار تأثيري، وتتناسب هذه القوة طرديا مع المعدل الزمني للتغير فى التدفق المغناطيسي خلال الملف) . ويستنتج من هذا القانون أنه **يمكن توليد القوة الدافعة التأثيرية بعدة طرق هي :**

* التغيير الزمني لمساحة الملف التي تجتازها خطوط التدفق المغناطيسي .

* تغيير المجال المغناطيسي مع الزمن .

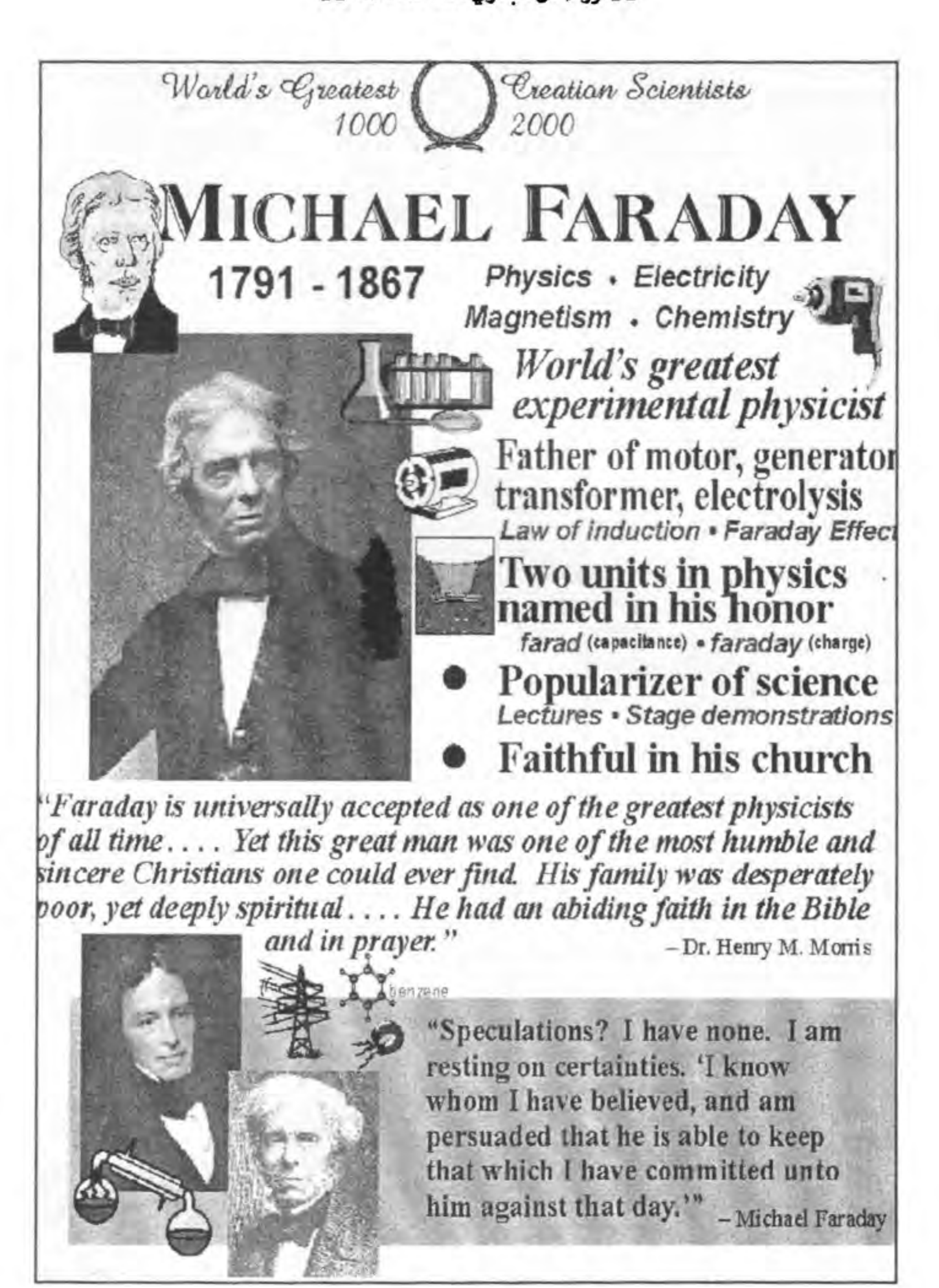
* التغيير الزمني للزاوية المحصورة بين المجال والعمودي على سطح الملف .

وكان فاراداي حريصًا على إلقاء المحاضرات العامة وتبسيط أعماله العلمية، واشتهر بمهارته فى الحوار والتشويق والإيضاح وكان مدركاً منذ ذلك الوقت المبكر

فى تطور الحركة العلمية لأهمية تعليم العلوم للجميع على أوسع نطاق ممكن، لقد اصبح فاراداي المتحدث باسم الحركة العلمية فى عصره والمروج لها إذ كانت محاضراته العامة ملتقى شرائح متنوعة من المجتمع البريطاني ولذا فقد عمدت الجمعية الملكية البريطانية مؤخراً إلى تأسيس جائزة فاراداي لتمنح الأوائل الذين يقدمون إسهامات بارزة فى مجال التوعية العلمية للجمهور .

ومن أطرف ما يحكى عن فاراداي قصتان شهيرتان، ففي نهاية إحدى محاضراته العامة عن ظاهرة الحث الكهرومغناطيسي اقتربت منه سيدة عجوز وسألته باستفزاز : وما هي فائدة الحث الكهرومغناطيسي ؟ فأجابها فاراداي بسؤال آخر "ولكن يا سيدتي .. ما هي فائدة طفل حديث الولادة ؟! أما القصة الأخرى فقد كانت فى محاضرة حضرها رئيس وزراء بريطانيا آنذاك الذي سأل فاراداي : " ولكن ما هي الفائدة من الكهرباء " وأجابه فاراداي فى لفتة ذكية : " إنك يا سيدي سوف تجمع الضرائب من وراء الكهرباء يوما ما " .

وقد قدمت الملكة فكتوريا منزلاً كبيراً ومريحاً له فى شيخوخته قضى فيه آخر أيامه وحيدًا، حيث إنه لم ينجب فى حياته، وظل هناك إلى أن توفي فى أغسطس عام ١٨٦٧ تاركاً تراثاً كبيراً من الاكتشافات، وخدمات جليلة قدمها للإنسانية .

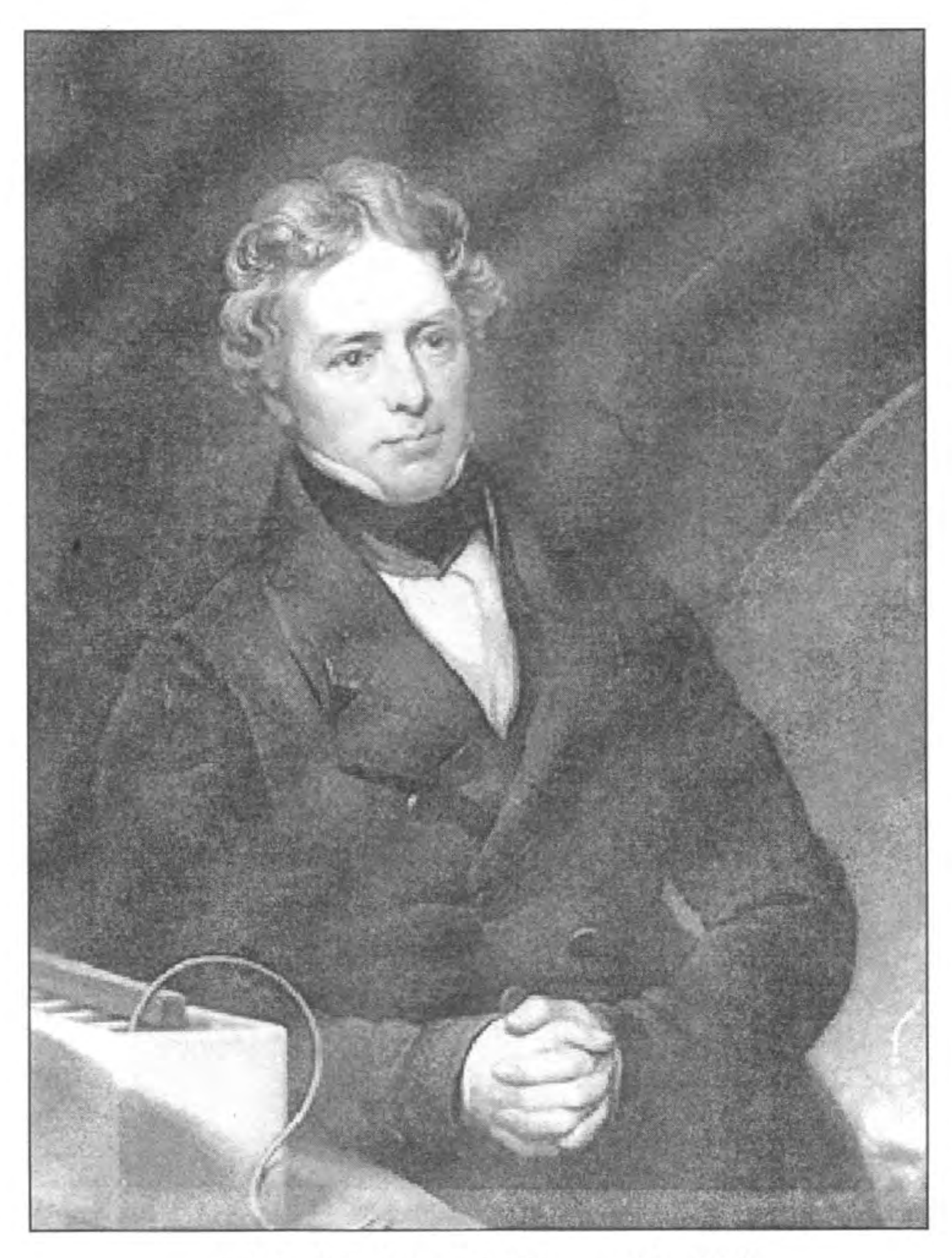


فاراداي فى موسوعة " عظماء التاريخ " .





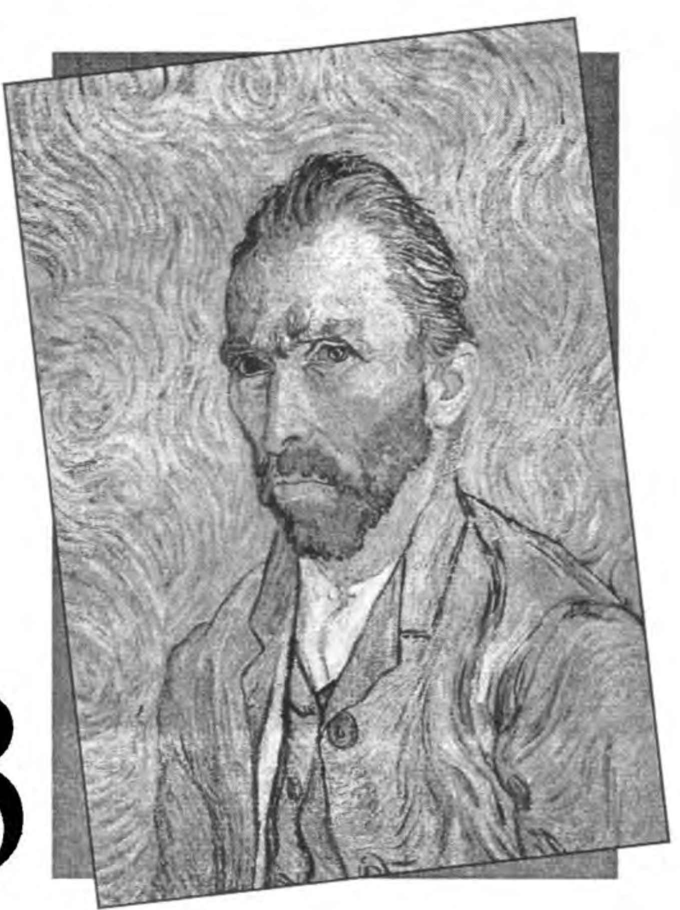
ومع الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا على أوراق البنكنوت كما الجنيه الإسترليني.



فاراداي دخل موسوعة العظماء بعد إنجازاته الرائعة .

فان جوخ ..

فى الحياة مأساة وفى الموت مأساة !!



3

رحل فان جوخ بعد حياة خاطفة كالومض، عاش خلالها وهو يعاني سلسلة من الكوارث والهزائم النفسية حتى وصل إلى حافة الجنون. . مات معدما، هزيلا، نحيلا، مهووسا، بعد أن طارده المرض وقذف به إلى مصحة عقلية، مات فان كوخ ليبدأ العالم تذكره وكتابة اسمه فى قائمة الخالدين بأعمالهم .. الآن لوحاته لا تقدر بملايين الدولارات .. وهو كان يعيش أياما بأكملها على رغيف خبز واحد .. !

مرت عليه سفينة حياته والتي واجهت العديد من الأمواج والتقلبات القاسية حتى وصلت إلى شاطئها الأخير فى نهاية مأساوية لقصة حياة قصيرة خلفت وراءها أجمل اللوحات وأكثرها قيمة فنية ومادية.

جوخ هو اسم عظيمٌ فى عالم الفن التشكيلي ، فهو الفنان الذي استطاع أن يحظى باحترام وتقدير وإعجاب مؤرخي ونقاد وعشاق الفن التشكيلي فى كافة أرجاء العالم.. مما جعل أعماله تحتل مكاناً بارزاً ومتميزاً فى متاحف العديد من الدول، ولعل أشهرها متاحف موسكو ولينجراد .. وغيرهما.

بالإضافة إلى تلك الشعبية العارمة التي يتمتع بها فى كافة دول أوربا وأمريكا وكذلك دول العالم الثالث التي لا توجد فيها لغة واحدة لم يُنشر بها كتاب أو أكثر عن"فان جوخ"وبأغلفة الأفلام السينمائية والروائية والتسجيلية التي تناولت حياة هذا الفنان، وربما هذا الشغف كان السبب الأول فى استمرار نشر واستنساخ لوحاته. فمن هو هذا الفنان صاحب تلك الجماهيرية الواسعة؟

وحياة "فان جوخ" المليئة بالأحداث والمآسي التي أثرت بلا شك فى فنه وربما كانت سبباً قوياً فى شهرته.

ولد فان جوخ فى بلدة " زونديت " بهولندا عام ١٨٥٣ لأب يعمل قسيساً بكنيسة البلدة، وهو الأب الذي زرع فى أعماق هذا الصغير من خلال الجو الديني الصارم الذي أحاط بالأسرة مُثلاً عليا ربما كانت تصطدم كثيراً جدّاً بالواقع طوال حياة فان جوخ.

جاءت ولادة فان جوخ بعد سنة واحدة من اليوم الذي ولدت فيه أمه " آنا كورنيليا كاربنتوس " طفلاً ميتاً بالولادة، سمي أيضاً بفنسنت. لقد كان هناك توقع كبير بحدوث صدمة نفسية لفنسنت فان جوخ كنتيجة لكونه "بديل طفل" لاحقاً. وإن له أخا ميتاً بنفس الاسم وتاريخ الولادة.

وعندما بلغ فان جوخ السادسة عشرة من عمره اصطحبه عمه إلى مدينة لاهاي ليعمل معه فى القاعة التي يديرها والمتخصصة فى بيع الأعمال الفنية سواء من الآثار القديمة أو من إنتاج الفنانين المعاصرين، وهي القاعة التي كانت تتبع مؤسسة جوبيل الشهيرة والتي يقع مركزها الرئيسي بباريس. ومن خلال هذا العمل تعرف فان جوخ على عالم الفن وتحمس لبعض الأعمال ولبعض الفنانين، ولهذا بذل جهده فى إقناع عملائه بشراء أعمال هؤلاء الفنانين وبلغ من نجاحه أن قررت المؤسسة نقله إلى لندن ليدير فرعها هناك.

واستمر هذا النجاح الذي صاحبه اهتمام فان بمظهره وأناقته الشخصية إلى أن أحب إحدى الفتيات وتدعي " أرسيولا " ولكنه عندما طلب منها الزواج هزأت به وصدته فى خشونة شديدة مما جعله يصاب بما يشبه الهوس الديني، فبدلاً من أن يناقش العملاء عن جماليات اللوحات المعروضة بالقاعة التي يديرها أخذ يحثهم على الدين.. مما جعل الشركة تنقله إلى باريس حيث تدهورت حالته النفسية وانطوى على نفسه وأصابته الكآبة .

وقبل أن تقرر الشركة فصله كان قد قدم استقالته عازماً على تكريس حياته للخدمة الدينية بعد أن اتجه إلى لندن ليعمل كمدرس للغة الفرنسية، ولكن جو لندن المظلم الكئيب وذكريات جرحه العاطفي جعلت حالته النفسية تزداد سوءاً فعاد إلى هولندا حيث التحق بمعهد لاهوتي فى " أمستردام " وعكف على الدراسة الجادة ستة أشهر حتى أصابه الملل وقرر أن يعمل واعظاً بين عمال المناجم والفلاحين فى إحدى قرى بلجيكا حيث عايش المرضى بحمى التيفود وحاول تخفيف آلام الاحتضار عليهم، وسهر مع الفقراء والجرحى، متخطياً بذلك الحدود المرسومة له كمبعوث ديني إلى نوع من الامتزاج والتوحد الكلي، حيث يقضي أيامه ولياليه بين هؤلاء لا يأكل إلا معهم ولا يخصص الوقت الكافي لراحته ونومه .. بل ووزع عليهم ملابسه وأغطيته وأصبح يعاني من البرد والجوع إلى الحد الذي جعل مظهره يتدهور .. مما زاد من تعلق هؤلاء العمال به حتى طردته السلطات الدينية قبل أن يمر عام واحد على تسلمه لهذا العمل، وذلك لعدم اقتناعهم بطريقته فى تطبيق التعاليم المسيحية على هذا النحو.

وهو الأمر الذي زاد من أزمته النفسية حيث شعر بالفشل فى كل ما أسند إليه من أعمال بجانب فشله فى حبه، ولكنه قرر ألا يستسلم.. فما لبث أن كتب لأخيه "تيو" ليقول له : " إنني بالرغم من كل شيء سوف أنهض ثانية .. سوف أتناول من جديد ريشتي التي تخليت عنها فى أيام انكساري، وسأعود للرسم، والآن يبدو لي كل شيء وقد تغير " .

ومنذ ذلك الحين آمن" تيو " بأخيه فان جوخ وسنح له الفرصة ليخرج أعظم الأعمال الفنية .. حيث لم ينقطع تيو طيلة السنوات العشر التالية عن بذل المعونة المالية لأخيه وتشجيعه ومساعدته بكل ما استطاع توفيره من دخله المتواضع .. وببلوغ " فان جوخ " السابعة والعشرين من عمره التحق بأكاديمية الفنون فى مدينة " انفري " حيث بدأ حياته فى عالم الألوان.

عكف على رسم الفلاحين الهولنديين وعمال المناجم والبؤساء مسجلاً ما نقش فى مخيلته من ذكريات فى مجموعة من اللوحات الحزينة القاتمة القوية التعبير وهي المرحلة التي يطلق عليها فى فنه المرحلة الهولندية التي امتدت ما بين عامي ١٨٥٤، ١٨٥٥ وفى العام التالي رحل فان جوخ إلى باريس للإقامة مع أخيه فى أستوديو بحي " مونمارتر " حيث كان أخوه تيو من تجار الصور المهتمين بتتبع الاتجاهات الحديثة فى الفن، فقد كان مديراً لفرع إحدى المؤسسات الفنية.

هذا الفنان العبقري لم يكن يرسم كثيرا فقط، بل كان يكتب أيضا بنفس الحرارة والتوهج كمّا هائلا من الرسائل والخواطر إلى شقيقه " تيو " والتي جُمعت فى كتاب من ثلاثة مجلدات تضمنت آراءه فى الرسم وفي النقد والمجتمع والمرأة وعن نفسه فى أغلب الأحيان.

وسعد فان جوخ كثيراً بصحبة أخيه بعد ما قاساه من وحشة وحرمان وكذلك سعد بحياته الجديدة فى باريس .. فما لبث أن تغيرت ألوانه القاتمة وحلت محلها الألوان الزاهية البراقة التي ربما عكست رؤيته للحياة فى تلك الفترة، والتي اتجه فيها إلى دراسة النظريات والأساليب الفنية الجديدة ومناقشتها مع أصحابها بل وتجربتها فى لوحاته، كما تعرف خلال هذه الفترة على عدد من الفنانين الشباب ومنهم " تولوزلوتريك " و" بول جو جان " .

كما تأثرت لوحاته بالرسوم اليابانية المطبوعة .. ثم ظهرت تأثيرات تجارب زملائه المعاصرين على فنه، وبعد مضي عام آخر كان قد استوعب كل ما حوله من تجارب ليصبح مهيئاً لمرحلة ناضجة استغرقت بقية حياته..

واستمرت إقامة فان جوخ الأخيرة فى باريس لمدة عامين إلى أن قرر فجأة فى فبراير عام ١٨٨٨ السفر إلى بلدة " أرل " بمقاطعة " بروفانس " فى جنوب فرنسا حيث الشمس الساطعة طوال النهار والألوان المتوهجة، وعكف خلال العامين التاليين على الرسم فى سعادة وحماس لدرجة أن لوحاته فى تلك الفترة تشع حيوية فى ألوانها وشكلها.

ومع أنه كان يرسم بأسلوب لمسات الفرشاة المتعددة الألوان إلا أن لمساته فى تلك الفترة كانت أعرض وأقوي .. وقد شرح طريقته فى خطاب لأخيه يقول فيه: "إنني بدلاً من محاولة نقل الطبيعة بأمانة استخدمت الألوان بحريه ودون تقيد من أجل التعبير عن نفسي تعبيراً قوياً " .

وفي هذه المرحلة دعا بول جوجان إلى الإقامة معه وهو يحلم بإنشاء رابطة للفنانين وبأن يكون منزله هو نواة تحقيق هذا الحلم .. إلا أن وصول جوجان أعقبته المتاعب، فالمناقشات احتدمت والخلاف فى الرأي اتسع والصخب الذي يثيره جوجان أينما حل أدى إلى توتر أعصاب فان جوخ حتى كان الانفجار عندما سخر جوجان من فكرة إنشاء رابطة للفنانين وعندئذ قذف فان جوخ محتويات كأسه فى وجه جوجان ثم أغمى عليه، فحمله جوجان من المقهى إلى المنزل وأرقده فى الفراش، وفى الصباح ندم فان جوخ وطلب من زميله الصفح، ولكنهما ما لبثا أن عادا إلى الشجار بعد منتصف الليل، وتطور غضب فان جوخ لدرجة جعلته يخرج موسى الحلاقة ويشهره فى وجه جوجان بل وجرى وراءه فى الشوارع محاولاً قتله، ولكنه عاد إلى بيته بعد أن أفاق وهو يشعر بحالة تمزق عنيف.

ورحل جوجان تاركاً فان جوخ التي ظلت حالات الهياج الجنوني تعاوده من حين لآخر حتى قام فى إحداها بقطع آذنه وربط رأسه المصاب ثم قدم الأذن المقطوعة فى لفافة إلى محبوبته التي طلبت منه أذنه خلال إحدى مداعباتها له، وعندما عاد إلى بيته أغمي عليه ولم يفق إلا فى المستشفي، وعندما استرد صحته طاردته أنظار أهل البلدة وصيحات أطفالها.. فانهارت أعصابه ولم يجد أخوه بدّاً من نقله إلى مستشفي للأمراض العقلية بالقرب من " أرل "، وهو المستشفي الذى مكث فيه عامًا، وسمح له بالرسم فيه فظهر فى لوحاته بهذه المرحلة شيء من عنف نوبات الصرع التي تعرض لها.. وعندما نجح أخوه فى بيع إحدى لوحاته بمبلغ ٤٠٠ فرنك، اقترح أن يستخدم هذا المبلغ فى الاستشفاء بمصحة خاصة قرب باريس.

ودخل فان جوخ إلى " مصحة سان ريمي " التي يشرف عليها دكتور جاشيت وهو من هواة الفن، لينسج آخر الخيوط فى قصته الحزينة، لقد عاش يعاني الخوف الدائم من شبح الموت الذي يطارده، يتعلق تعلقا لاهثا بالحياة من خلال ديمومة اللوحة وحيويتها، وعلى قدر اندفاعه برغبة دفينة تجاه الموت كانت لديه رغبة أعمق فى الهروب.. ومقاومة الموت من خلال بث الحياة والحرارة والعاطفة فى لوحاته الخالدة، إنه ودون وعي منه كان يرسم حياته كلها كلوحة فنية نارية تتعدد فيها الأماكن والوجوه وقصص الحب المريرة ولحظات الإلهام الخاطفة.

وقد أمضي دكتور جاشيت أوقاتاً طويلة فى صحبة مريضه جوخ، ولكن نوبات الصرع راحت تتوالى بانتظام عليه وسئم جوخ الحياة .. فخرج إلى حقل مجاور وأطلق على نفسه الرصاص ولكنه لم يمت على الفور حيث نقله " تيو " إلى المستشفى الذى مات به بعد يومين وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد أن رسم أكثر من ٧٠٠ لوحة وحوالي ١٠٠٠ رسمة، كتب بها اسمه فى قائمة الخالدين، وأصبحت لا تقدر بملايين الدولارات .. وهو الذي كان يعيش أياما بأكملها على رغيف خبز واحد !

وهكذا رحل جوخ فى شهر يوليو عام ١٨٩٠ بعد حياة خاطفة كالوميض، عاش خلالها وهو يعاني سلسلة من الكوارث والهزائم النفسية حتى وصل إلى حافة الجنون.

وهكذا عاش فان جوخ حياة قصيرة ومأساوية ومات فقيرا مغمورا لم يبع فى حياته سوى لوحة واحدة لكن الهوس بأعماله جاء متأخرًا بعد موته .

لقد قضى جوخ الجزء الأكبر من حياته فى معاناة وحزن وبؤس فلم يعرف معنى السعادة والرخاء سوى لفترات قليلة تعد من اللحظات النادرة فى حياته، وعلى الرغم من هذا تمكن من أن يقدم للتاريخ الفني واحدا من أعظم فنانيه فأثرى العديد من المتاحف بأعماله الرائعة وتم تشييد متحف باسمه فى بلده هولندا

بالعاصمة أمستردام يضم مجموعة كبيرة من أروع أعماله. ومن المعروف أن جوخ ينتمي إلى المدرسة الانطباعية المتأخرة وتباع لوحاته اليوم بملايين الدولارات وأشهرها " دوار الشمس " و" زهرة الخشخاش "والبورتربهات الحزينة التي رسمها لنفسه ولآخرين وتبدو كأنها على حافة الجنون والانهيار النفسي كصاحبها!

وقد قام فان جوخ بكتابة العديد من الرسائل والخواطر إلى أخيه " تيو" والتي تضمنت آراءه فى الرسم والنقد والمجتمع وعن نفسه وغيرها العديد من الأمور، وتم تجميع آرائه هذه فى ثلاثة مجلدات.

وفي ختامه للرسالة الأخيرة التي كتبها فان جوخ إلى أخيه ثيو، والتي وجدت فى جيبه فى اليوم الذي مات فيه، بعد يومين من إطلاقه النار على نفسه منتحرا وسط الحقول التي كان يرسمها فى كل فصل من فصول السنة قال : " حسنا .. ففي نهاية الأمر لن يتحدث عنا سوى لوحاتنا " .. وفعلا منذ ذلك الحين تحدثت لوحاته عنه لجميع شعوب العالم !!



فسنت فان جوخ فى الثالثة عشرة من عمره .





جوخ هكذا تصور نفسه مغطيًا أذنه المقطوعة .



غرفة فان جوخ كما رسمها فى هذه اللوحة التي اختار لها اسم " غرفة فى آرل " .



ولوحته الشهيرة " آكلو البطاطا "(البطاطس) .

هيلين كيلر ..

من رحم المأساة يولد الأمل !!



4

تتمثل معجزة هيلين كيلر فى أنها قهرت ظلمات ثلاثا، وشقت طريقها الوعر بالإرادة الصلبة. وظلت قصة حياتها إلى يومنا الحالي مصدر إلهام للكثيرين... لم تكن إلا فتاة صماء عمياء بكماء، ومع ذلك فقد بلغت من الأهمية أن قال عنها مارك توين الأديب الأميركي الساخر: " أهم شخصيتين فى القرن العشرين على الإطلاق هما: نابليون وهيلين كيلر ".

ولدت هيلين كيلر عام ١٨٨٠ طفلة معافاة سليمة الحواس، ولكن بعدما أتمت عامًا ونصف عام أصابتها حمى شديدة حار الأطباء فى نوعها وعجزوا عن علاجها، فلم يجدوا وقد أدركهم اليأس إلا أن ينفضوا سائلين الله أن يلهم والديها الصبر على فقدانها، ولكن إرادة الحياة كانت جلية فى هيلين منذ طفولتها، فلم تمض عدة أيام حتى دبت الحياة فى جسد الصغيرة وعادت الحمرة تعلو وجنتيها.

ولكن والديها اللذين غمرتهما الفرحة بعودة الروح إلى صغيرتهما لم يدركا أن المرض قد سلبها قبل أن يغادر جسمها الصغير أهم حاستين وهما حاستا السمع والبصر.

وعاشت هيلين فى سنواتها الأولى حياة عشوائية بهيمية لا تفقه من الحياة غير حاجاتها الفطرية. ولم تجد الصغيرة طريقة للتواصل مع الآخرين فى عالمها الدامس إلا بعض الإيماءات والإشارات البدائية، حتى إذا ما فشلت فى التعبير عن نفسها والحصول على رغباتها انتابتها نوبات غضب شديدة، وجنحت إلى البكاء والعويل وتحطيم كل ما يصادف طريقها. ولم تجد أسرتها وقد وجدوا أنفسهم

أمام فتاة صعبة المراس أعيتهم الحيل فى التعامل معها إلا أن يبحثوا عن معلمة تعاونهم فى تربيتها وتضيء لها بعض ما أظلم من طريقها. ولم تكن هذه المعلمة إلا " آن سوليفان "المعلمة الرائعة التي أضاءت لها الدياجير المظلمة وفتحت لها الأبواب المغلقة. لم تكن هيلين تدرك أن اليوم الذي التقت فيه معلمتها لأول مرة وهي لما تبلغ السابعة بعد، سيكون أهم يوم فى حياتها كما وصفته لاحقًا.

ولم تكن " آن " الشابة الصغيرة ذات الواحد وعشرين ربيعًا تتصور أن حياتها سترتبط بحياة تلميذتها منذ ذلك اليوم حتى آخر يوم فى حياتها.

فمنذ ذلك اليوم بدأت المعلمة محاولاتها الدءوب لتعليم هيلين. كان أول ما لفت نظر المعلمة هو عادات هيلين البدائية ومسلكها العدواني مع الجميع، فقررت المعلمة أن تعلمها قبل كل شيء الطاعة والنظام. ولم تمر فترة بسيطة حتى تحولت هيلين الفتاة المرعبة إلى طفلة وديعة هادئة.

وكانت تكتب بإصبعها أسماء الأشياء على كف هيلين وبهذه الطريقة حفظت هيلين هجاء العديد من الأسماء، وإن لم تكن تدرك الصلة بين هذه الأشكال التي ترسمها والكلمات، أو تدرك الصلة بين الكلمة والفكرة التي تمثلها حتى أتت لحظة التنوير فى حياة هيلين والتي سجلتها فى كتابها الرائع " قصة حياتي " حيث تقول: ذهبنا إلى البئر وكان هناك شخص يضخ الماء، ووضعت معلمتي يدي تحت المضخة. وبينما كان تيار من الماء البارد ينهمر على إحدى يديَّ كانت معلمتي تكتب بإصبعها على يدي الأخرى كلمة water فى البداية ببطء ثم بعد ذلك بسرعة. وقفت ساكنة وكل تركيزي منصب على حركة أصابعها وفجأة شعرت بحالة وعي ضبابية لشيء كان منسيّا، بالإثارة المصاحبة لفكرة عائدة، وهكذا تكشف أمامي غموض اللغة.

وكم كانت فرحة هيلين عظيمة وقد انفتح لها باب العالم الخارجي الذي كان موصدًا دونها، ولم تعد إلى البيت إلا بعد أن سألت عن اسم كل شيء مرت به. منذ

تلك اللحظة بدأت هيلين رحلتها مع المعرفة تلك الرحلة التي لم يكن زادها فيها إلا العزيمة والإصرار والإرادة. فتعلمت القراءة بطريقة " بريل " التي أصبحت متعتها المفضلة، وانكبت على الكتب تلتهم ما تقرؤه أصابعها، وعن طريق القراءة تعلمت الكتابة وتمكنت منها بل فاقت فى أسلوبها الأدبي أقرانها من المبصرين. عندما سئلت عن سبب غرامها بالكتب أجابت: لأنها تحدثني عن الكثير من الحقائق الممتعة عن الأشياء التي لا أستطيع مشاهدتها، كما أن الكتب بخلاف الناس لا تتعب ولا تتضايق فتظل تحدثني المرة تلو الأخرى عما أود معرفته، ثم ما هي إلا فترة بسيطة حتى تسمع عن فتاة صماء استطاعت تعلم الكلام فأصرت على المحاولة والخضوع للتجربة، وبذلت العديد من المحاولات المضنية لتعلم المحادثة، وهي الفتاة الصماء التي لم تسمع الكلام فكانت تضع يديها على حنجرة المعلمة وشفتيها حتى تتبين مخارج الحروف.

ورغم هذه المحاولات المستميتة فإن كلامها لا يفهمه إلا المقربون منها. دخلت هيلين الكلية لتدرس جنبًا إلى جنب مع فتيات مبصرات متحدية إعاقتها وجميع من تنبأ بفشلها أو أشفق عليها من مرارة الفشل، لتكون أول عمياء صماء تنال درجة جامعية. وكانت معلمتها الرائعة معها فى قاعة المحاضرة تتهجى فى يد هيلين بصبر متناهٍ كل ما يقوله الأستاذ المحاضر، وفي المنزل كانت تنقب لها فى القواميس عن معاني الكلمات الجديدة، وتقرأ لها مرات عديدة الكتب التي لم تكن مكتوبة بطريقة بريل .

بلغت هيلين من الثقافة شأوًا عظيمًا، وكانت إلى جانب ثقافتها الواسعة تتقن أكثر من لغة قراءة وكتابة، فبالإضافة إلى الإنجليزية أتقنت الفرنسية والألمانية واللاتينية. وبعد تخرجها دارت هيلين ومعلمتها المخلصة فى جميع أنحاء العالم تلقي المحاضرات وتقوم بحملات لجمع التبرعات للجمعيات التي تعنى بفاقدي البصر، وتُبَصِّر العالم بحقوق العميان. وقد لازمتها معلمتها فى جولاتها إلى أن توفيت عام ١٩٣٦.

ألفت هيلين العديد من الكتب والمقالات التي نشرت فى الصحف والمجلات والدوريات فى تلك الأيام، والتقت جميع رؤساء الولايات المتحدة فى عهدها، كما التقت بالعديد من الشخصيات المشهورة. ومنحت العديد من الأوسمة. توفيت هيلين عام ١٩٦٨ عن عمر يناهز الثامنة والثمانين لتسطر لها مكانًا بين الخالدين، ولتكون دليلاً ناطقًا على أن إرادة الإنسان أقوى من الألم والمحن وظروف الحياة، ولتضرب لنا أكبر مثال على قدرة الإنسان على فلسفة الألم.

وتقول هيلين عندما يوصد فى وجهنا أحد أبواب السعادة تنفتح لنا العديد من الأبواب الأخرى، لكن مشكلتنا أننا نضيع وقتنا ونحن ننظر بحسرة إلى الباب المغلق ولا نلتفت لما فتح لنا من أبواب.

قصة حياة هيلين التي روتها فى كتابها هي قصة رحلة الإنسان من عالم الظلام إلى عالم النور، ومن عالم المجهول إلى عالم الإدراك. كتابها صور متلاحقة نعرف من خلالها وجهًا لوجه صفات خالدة مثل العزيمة والإرادة والصمود والقوة، بل إن روح الإرادة فيه واضحة حتى لنكاد نلمسها. هذه الصفات جميعًا أهلتها لتكون قدوة ليس لفاقدي حاستي السمع والبصر من أمثالها فحسب، بل للمبصرين سليمي الحواس من أمثالنا.

وما يلفت النظر عند قراءة كتابها هو روح المرح التي تظهر جلية فى كثير من فقرات الكتاب. وهيلين العمياء الخرساء الصماء لا تعدم البهجة والإحساس بالجمال فى هذه الحياة. بل إن هيلين تنقد فى كتاباتها الكثيرة أقرانها المبصرين لأنهم لا يستغلون حواسهم التي وهبها إياهم الباري خير استغلال ولا يسخرونها للاستمتاع بجمال الطبيعة من حولهم.

تقول هيلين فى مقال لها بعنوان " لو كان لي أن أرى ثلاثة أيام " : اعتدت من وقت إلى آخر أن أختبر أصدقائي المبصرين لأكتشف ماذا يشاهدون. كنت مؤخرًا فى زيارة لإحدى صديقاتي التي كانت عائدة لتوها من أحد الحقول، وعندما سألتها

ماذا شاهدت ؟ أجابتني لا شيء على وجه التحديد. كدت لا أصدقها لو أنني لم أعتد سماع هذا الجواب من غيرها. فقد توصلت منذ وقت طويل إلى القناعة بأن المبصرين لا يرون إلا القليل، ثم تقول: دائمًا ما أتساءل كيف يمكن أن نمشي لمدة ساعة بين الحقول ثم لا نشاهد شيئًا جديرًا بالملاحظة؟! أنا الإنسانة العمياء أجد مئات الأشياء التي تشد انتباهي من خلال حاسة اللمس فقط. وأحيانًا يقفز قلبي شوقًا لمشاهدة هذه الأشياء. إذا كنت أحصل على متعة من مجرد اللمس فأي جمال سيتكشف لي من حاسة البصر. ولكن الأشخاص المبصرين مع الأسف لا يرون إلا القليل. ربما هي صفة بشرية ألا نشعر بأهمية ما نملك ونتوق لما لا نملك. من الخسارة أن تستخدم نعمة البصر فى عالم النور كمجرد وسيلة لتسهيل المعيشة وليس أداة لإضافة بهجة للحياة.

ولهيلين فلسفة رائعة فى التعامل مع الألم وظروف الحياة القاسية فتقول فى مقال لها بعنوان " التفاؤل " : عن طريق الاحتكاك بالشر فقط استطعت أن أشعر بجمال الحقيقة والحب والخير. وتقول أستطيع أن أجزم بأن الصراع الذي يحتمه الشر هو أحد أعظم النعم. فهو يصيرنا إلى أشخاص أقوياء، صبورين ومحبين للخير. ويمنحنا نظرة ثاقبة فى حقيقة الأشياء، ويعلمنا أنه رغم أن هذا العالم مليء بأنواع المعاناة فهو أيضًا يمتلئ بنماذج الانتصار وقهر الألم.

وتؤكد هيلين أن السعادة تنبع من داخل الإنسان بغض النظر عن ظروفه، تقول هيلين معظم الناس يقيسون سعادتهم بمقاييس المتعة الجسدية والممتلكات المادية. إذا كانت السعادة بهذه المقاييس فإن الأشخاص الذين حرموا من نعمة البصر أو السمع لا يملكون إلا أن ينكمشوا مكتوفي الأيدي فى إحدى الزوايا ويجهشوا بالبكاء. لكن إذا كنت سعيدة على الرغم من كل ما حرمت منه، إذا كانت سعادتي من العمق بحيث أصبحت عقيدة،إذا كانت متغلغلة فى فكري بحيث أصبحت فلسفة حياة، باختصار: إذا كنت متفائلة فإن شهادتي جديرة بأن تسمع حقًا.

وقد ألفت هيلين كتاب " أضواء فى ظلامي " وكتاب " قصة حياتي "، وكانت وفاتها عام ١٩٦٨ عن ثمانية وثمانين عاماً.

وكما بهرت هيلين العالم، كذلك بهرته معلمتها " آن سوليفان " .. ولها أيضًا قصة .

ولدت آن سوليفان عام ١٨٦٦. وعندما كانت فى الثامنة توفيت والدتها، وفي العاشرة هجرها والدها هي وأخويها وتركهم ليواجهوا مصيرهم وحدهم. عاشت فى الملاجئ فترة من الزمن. قليل من الناس يعلمون أنها كانت هي نفسها عمياء حتى سن الثامنة عشرة حيث أجريت لها عملية جراحية فى عينيها استردت بعدها جزءًا من بصرها، ولكنها فقدته آخر أيام حياتها.

تزوجت آن عام ١٩٠٥ ولكن زيجتها لم يكتب لها النجاح. قصتها هي قصة الإخلاص والتفاؤل والثقة بالنفس والعزيمة والإصرار. صفات رائعة كانت بالمصادفة هي الصفات ذاتها التي ميزت تلميذتها الذكية. هكذا ارتبط اسمها باسم تلميذتها. فلا يذكر اسم هيلين إلا ويذكر اسم آن والعكس صحيح.

وقد ظلت هيلين وفية لذكرى معلمتها الرائعة بل إنها ألفت كتابًا كاملاً عن معلمتها أسمته " المعلمة " . وتقول هيلين عن معلمتها: كم هي قريبة إلى نفسي (معلمتي) لدرجة أني نادرًا ما أفكر فى نفسي بمعزل عنها. لا أدري فيما إذا كان استمتاعي بجمال الأشياء من حولي يعود فى أغلبه إلى أمر فطري لديَّ أو بسبب تأثيرها عليَّ. وأشعر أن وجودها لا يمكن فصله عن وجودي. أفضل ما عندي ينتمي إليها، ولا توجد فى داخلي موهبة أو أمنية أو متعة إلا وقد أيقظتها بلمستها الحانية.

منذ البداية أخذت آن على نفسها عهدًا أن تخرج هذه الفتاة البكماء العمياء الصماء من الظلمات إلى النور. مهمتها لم تكن سهلة قط، بل كان عليها أن تسلك طريقًا شائكًا وعرًا. مرت عليها لحظات إحباط ويأس وملل، ولكن سرعان ما تحرق

جذوة النار التي فى داخلها هذه المشاعر السلبية. كانت فى البداية تقول: لو كنت فقط مؤهلة أكثر لهذه المهمة العظيمة. كل يوم أشعر بقصوري. عقلي مليء بالأفكار ولكني لا أعرف كيف أنظمها. كم أتمنى لو أجد من يساعدني. فأنا أحتاج إلى معلمة تمامًا مثلما تحتاج هيلين إلى واحدة. ثم تقول: أعلم أن تعليم هذه الطفلة سوف يكون أهم حدث فى حياتي. ولكنها سرعان ما استردت ثقتها بنفسها وتلمست طريقها، فنجدها تقول فى رسالة لاحقة إلى إحدى معلماتها:شيء فى داخلي يخبرني بأني سأنجح نجاحًا يفوق ما خططت له فى أحلامي. أدرك أن هيلين تمتلك قدرات متميزة، وأعتقد أنني سوف أستطيع أن أطور هذه القدرات وأعيد تشكيلها. لا أدري كيف تكوّن فى داخلي هذا الإحساس. إذ منذ فترة قصيرة فقط لم يكن لدي أي فكرة كيف أبدأ عملي، وكنت أتلمس طريقي فى الظلام، ولكني الآن أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل. وأعرف أني أعرف. لا أستطيع أن أشرح ذلك لك. ولكن عندما تواجهني المصاعب لا أنزعج ولا يصيبني اليأس بل أعرف كيف أتصدى لهما. وتقول: كم هو عظيم أن تشعر بأنك ذو فائدة فى هذا العالم. إن وجودك مهم لشخص مًّا. إن اعتماد هيلين عليّ، تقريبًا فى كل شيء، يجعلني قوية وسعيدة.

و قد سلكت آن فى تعليم هيلين اللغة منهجًا يعتبر الأول من نوعه فى هذا المجال، وآراؤها المتناثرة فى رسائلها وبعض التقارير التي كتبتها عن هيلين تعتبر مرجعًا هامًّا فى تدريس اللغة، ليس للصم فحسب بل فى تدريس اللغة الأجنبية للأطفال سليمي الحواس. وهذه الآراء تجعل منها منظِّرة فذة وخبيرة لغوية بارعة.و إليها يرجع قصب السبق فى اعتماد الطريقة الطبيعية التلقائية فى التعليم كمنهج فى تعليم اللغة. فهي تعتقد أن تعليم اللغة لا يتم عن طريق حشو عقل التلميذ بقواعد اللغة وفروعها وأنواع الجمل واستخداماتها والمفردات اللغوية وتعريفاتها، بل هو عن طريق التعرض المباشر للغة الحية والتعامل اليومي معها عن طريق المحادثة والاستماع والقراءة. وقد استقت آن طريقتها من ملاحظاتها المستمرة للأطفال الصغار وطريقتهم فى اكتساب اللغة، فلاحظت أن الأطفال الصغار يتلقون اللغة

عن طريق سماع الآلاف من الكلمات التي لا يفهمون فى البداية إلا كمّا محدودًا منها، ولكن مع التعرض المستمر لهذه الكلمات يبدأ الطفل بالربط بين هذه الكلمات ومدلولاتها ودواعي استخداماتها، ومن ثم يبدأ هو بنفسه باستخدام هذه الكلمات فى البداية على شكل كلمات مفردة وبعد مدة على شكل جمل لا تعدو الكلمتين فى أول الأمر، ثم تتطور لاحقًا لتصبح جملاً كاملة مفيدة.

وبهذا توصلت إلى الاعتقاد بأن الطفل الأصم يجب ألا يدَرّس كل كلمة لغوية بمفردها عن طريق تزويده بتعريفها، بل يجب أن يتلقى اللغة عن طريق التكرار المستمر للغة التي لا يفهمها فى البداية. وهذا هو اختراع آن العظيم. وطوال اليوم سواء فى وقت اللعب أو خلال وقت الدرس لم تتوقف المعلمة المخلصة عن كتابة الكلمات على كف تلميذتها الصغيرة، وبهذه الطريقة تشربت الصغيرة، الكلمات تمامًا كما يتشرب الطفل فى المهد الكلمات.فلم تكن قواعد اللغة بتقسيماتها المملة يومًا من الأيام جزءًا من تعليم هيلين.

وتركز آن على القراءة والدور الكبير الذي تؤديه فى تزويد الطفل بالمفردات اللغوية وقواعد اللغة وأساليب التعبير وتنادي بضرورة تشجيع الأطفال على القراءة فتقول: أعتقد أن القراءة لابد أن تتم بمعزل عن تمارين المدرسة. لابد أن يشجع الصغار على القراءة من أجل مجرد المتعة. وموقف الطالب من الكتاب لابد أن يكون هو التلقي غير الواعي. لابد أن تكون أعظم الأعمال التي ابتكرها خيال الإنسان هي جزء من حياتهم، كما كانت تلك الأعمال هي الجوهر الأساسي فى تكوين هؤلاء الأشخاص الذين كتبوها. وهي تدعو ألا يكون جهل الطفل بكثير من المفردات اللغوية حائلاً بينه وبين القراءة إذ أنه مع تكرار القراءة يكتسب الطفل كمًّا كبيرًا من الكلمات التي يتوصل إلى معناها بنفسه عن طريق السياق، وهذه بالضبط الطريقة التي نناشد طلابنا اليوم أن يتبعوها، وهي ألا يضعوا نصب أعينهم أن يعرفوا معنى كل كلمة وألا يجعلوا هذا هو شغلهم الشاغل وألا يصرفهم الكم الهائل من الكلمات التي يجهلونها عن القراءة، إذ عن طريق الممارسة المستمرة للقراءة

يكتسب الطالب لا شعوريًا كمًا هائلًا من أدوات اللغة والتي ستظهر تلقائيًا مع مرور الأيام فى محادثاتهم وكتاباتهم.

وتنادي آن بتعريض الطفل منذ وقت مبكر للغة الشعرية الراقية التي وإن صعبت على أفهامهم معانيها لا يعدمون تذوق جمالها اللغوي والذي يتجلى بإيقاعها الموسيقيّ فتقول: كثيرًا ما لاحظت أن الأطفال يبدون الإعجاب الأكبر والمتعة العظمى عند سماع اللغة الشعرية الراقية والتي دائمًا ما نظن نحن الكبار أنها فوق مستواهم، وأنها أصعب من أن تستوعبها عقولهم الصغيرة. هذا كل ما تستطيعون فهمه، هذا ما قالته إحدى المعلمات لتلاميذها الصغار وهي تغلق الكتاب الذي كانت تقرأ لهم منه. أرجوك اقرئي لنا الباقي حتى لو لم نستطع فهمه، أصرّ الأطفال الصغار مستمتعين بالإيقاع الموسيقيّ وبالجمال الذي يحسونه فى المعنى وإن لم يكونوا يستطيعون شرحه. ليس من المهم أن يفهم الطالب الصغير كل كلمة فى الكتاب الذي يقرؤه حتى يستمتع به ويجني منه فائدة. لقد شربت هيلين من اللغة التي لم تكن فى البداية تفهمها، وبقيت فى ذاكرتها حتى احتاجت إليها فتجلت بتلقائية وسهولة فى أحاديثها وكتاباتها.

وهي تعيب على المعلمين الذين يطلبون من الأطفال أن يشرعوا فى الكتابة ولمَّا يتعرفوا على العالم من حولهم، ولما يشعروا بالحاجة إلى الكتابة. فهي تعتقد بأنه حتى تكتب لا بد أن يكون عندك شيء تريد أن تكتب عنه، وهذا يحتاج إلى استعداد ذهني، ولابد أن تكون الذاكرة مليئة بالأفكار، ولابد أن يثرى العقل بالمعرفة قبل أن تكون الكتابة جهدًا طبيعيًا وممتعًا. وتنقد الأسلوب الذي يدرس فيه الأطفال الكتابة فتعتقد بأنه عادة ما يطلب من الطفل آن يكتب قبل أن يكون عنده أي شيء يقوله، فتقول: لنعلمهم أن يفكروا ويقرؤوا ويتحدثوا بحرية عند ذلك فقط سوف يشرعون بالكتابة لأنهم لن يستطيعوا أن يقاوموا سحرها. وهذه الطريقة تقوم فى فكرتها على قواعد الاتصال الثلاث وهي لكي تتم الكتابة لابد أن يكون هناك متصِل ومتصَل به وسبب للاتصال.

وهي تعتقد أن التعبير الجيد بدون التحضير المسبق له بالقراءة هو ضرب من المستحيل.

وآن تصدر فى الكثير من آرائها عن معرفة عميقة بنفسية الصغار وطريقة التعامل مع النشء الصغير. فتتكلم عن أهمية التقديم الجيد للدرس، فهي كما تقول كانت تبحث دائمًا عن أكثر ما يشد هيلين، ومتى اكتشفته جعلته نقطة البداية لدرسها سواء كان هذا الشيء ذا صلة بالدرس الذي تنوي تدريسه أم لا. كانت عندها قاعدة مهمة وهي ألا تنهر الطفل الكثير التساؤل بل تجيب عن أسئلته إجابة صحيحة وافية ما أمكن؛ لأن الأسئلة كما تعتقد الآنسة آن هي البوابة لعقل الطفل. لم تكن آن لتبسط أجوبتها أو تعبيراتها بدون حاجة حتى تتناسب مع مستوى الطفل العقلي. وكانت تصر على كل من يتكلم مع هيلين أن يتحدث معها بطريقة طبيعية كما لو كانوا يتحدثون مع نظرائهم بجمل كاملة وأفكار عالية المستوى سواء فهمت هيلين أم لم تفهم.

وهي تعتقد بأن كل طفل يمتلك كمًّا من الإبداع داخله، وما علينا إلا أن نكتشف هذه المواهب ونطورها بالطريقة الصحيحة. هذا كله يقودني إلى التساؤل: كم من المواهب المدفونة التي ضاعت لعدم توفر من يكتشفها ويرعاها؟ كم من الطاقات كانت تنتظر يد ذلك المعلم الذي يستخرجها ويمسح عنها الغبار وما تراكم على مر الأيام؟

ما يلفت النظر فى آن هو روحها الثورية التي تنقد الممارسات الخاطئة باسم التعليم، وتهاجم كل تقليدي موروث. تسجل فى إحدى رسائلها زيارة قامت.بها إلى معهد الصم، فاستقبلوها هي وهيلين أحسن استقبال، واندهشت المعلمات من طلاقة هيلين اللغوية (أعني استخدام لغة الإشارة) وأخبروها أن التلاميذ لا يمتلكون طلاقة هيلين رغم أن بعضهم يدرس فى المعهد منذ أكثر من ثلاث سنوات. فى البداية تملكت آن الدهشة، ولكن دهشتها سرعان ما زالت عندما دخلت

أول فصل. فوجدت التلاميذ مجتمعين حول السبورة ليكتبوا بمشقة بالغة بعض ما يسمى بالجمل البسيطة، وقد بدت عليهم أمارات السأم والملل. وعلى السبورة كتبت فتاة جملاً من نوع (عندي فستان أحمر جميل) و(عندي كرة كبيرة). وما إن انتبه الأطفال إلى وجود هيلين حتى تجمعوا حولها فى لهفة وفي عيونهم ألف سؤال وسؤال. عندما سألت آن المعلمة عن المغزى من كتابة هذه الجمل قالت حتى يتدربوا على كتابة الجملة المفيدة. تقول آن شعرت بالألم لحال هؤلاء الأطفال الذين يتلقون اللغة بطريقة ميكانيكية جامدة. ثم تنتقد حصر تعليم اللغة بتمارين السبورة المقيتة، فتقول لا شيء يصرف الطلاب من الرغبة عن تعلم اللغة مثل الاقتصار على هذه التمارين البغيضة. فحتى يتعلم الطالب اللغة لابد أن يتلقاها فى البداية بطريقة لا شعورية عن طريق التعرض المستمر لها عن طريق المحادثة والقراءة الحرة لا عن طريق تضييع الوقت بتعليم قواعد اللغة وتعريف الكلمات التي يحتاج إليها الطالب فى مرحلة لاحقة.

رحلت آن عام ١٩٣٦، وقبل أن تموت قالت : عرفت منذ سنوات أن أكبر مكافأة يحصل عليها المعلم هي أن يرى الطفل الذي قضى الوقت فى تعليمه وقد أضحى شخصية هامة ذات ثقل فى هذا العالم، وأن يصل إلى علمه أن إنجازه كان مصدر إلهام للعديد من المعلمين.

وهكذا كانت هيلين كيلر الأديبة والمحاضرة والناشطة الأمريكية، وهي تعتبر واحدة من رموز الإرادة الإنسانية، حيث إنها كانت فاقدة السمع والنطق والبصر، واستطاعت أن تتغلب على إعاقتها وتم تلقيبها بمعجزة الإنسانية لما قاومته من إعاقتها حيث إن مقاومة تلك الظروف كانت بمثابة معجزة.



هيلين الطفلة التي فقدت حواسها الثلاث !!



وكفتاة عندما بدأت تكتشف عمق مأساتها وتقرر عدم الاستسلام .



هيلين عام ١٩٠٥



أثناء التخرج فى كلية "رادكليف" . هيلين عام ١٩٠٤



هيلين (إلى اليسار) مع معلمتها العظيمة " آن سوليفان " التي خلدها التاريخ معها !!



هيلين الرائعة لا تزال حديث العالم أجمع !



هيلين مع الرئيس الأمريكي الراحل جون كينيدي أثناء حفل تكريمها !



وتداعب بيدها الرئيس الأمريكي الراحل دوايت أيزنهاور !!

أرسطو أوناسيس ..

من عامل بدالة لقنصل لإمبراطور !!

5



تشبه حكاية صعود هذا الرجل العصامي- من الفقر إلى الثراء الفاحش- الأساطير. ولكن حياته الشخصية تصلح كسيناريو لإحدى المآسي الإغريقية القديمة.

ذا هو أرسطو أوناسيس الملقب بـ " آري " على سبيل التدليل، أحد أشهر من أنجبتهم اليونان فى العصر الحديث، وكبير أباطرة الشحن إمبراطوريته على مدى أربعة عقود متسلحًا بعزيمة جبارة، وروح مغامرة وثابة، وذكاء لا يضاهى، حتى أصبح الرجل الذي يُشار له بالبنان، وانتهى به الأمر بالزواج من أشهر سيدة أولى عرفها العالم، الأمريكية جاكلين كيندي " جاكي " أرملة الرئيس الراحل جون كيندي بعد أن بهرها بعبقريته الفذة !!

أوناسيس لم يتلق أي نوع من أنواع العلم فى أية مدرسة إلا مدرسة الحياة، كان وهو فى السادسة من عمره يعمل على البواخر اليونانية يتسابق مع فئران المركب ليأكل فتات الموائد!!

ولد أريستول أوناسيس " آري "، فى مدينة سميرنا بتركيا فى الأول من يناير ١٩٠٦، من زوجين هما سقراط أوناسيس وبينيلوب أوناسيس. كان والده، سقراط تاجرا ناجحا متخصصا فى تجارة التبغ.

ومن عمر مبكر، كان على أوناسيس أن يواجه العديد من التحديات الصعبة، أولها وفاة والدته، والثاني تمثل فى اجتياح الأتراك لمدينة سميرنا مما أجبر أسرته على الهرب. وأثناء عملية الهرب ألقي القبض على والده لكن أوناسيس،

أو "أرسطو" وهو ما كان يطلق عليه أثناء طفولته، نجح فى التوصل إلى طريقة لإطلاق سراح أبيه.

بعد تلك الحادثة، وقع أوناسيس ضحية لشعور بالخيبة فى أوروبا مما دفعه إلى السفر إلى العالم الجديد ليستقر فى الأرجنتين ولم يكن يملك سوى أصابع يده . وهناك بدأ العمل كعامل بدالة يرد على الهاتف، مما سمح له للاستماع إلى محادثات كثيرة مكنته من تعلم لغة البلاد. وقد أحب آري بشكل خاص الاستماع إلى المكالمات التي كانت تجري بين الأرجنتين ونيويورك. وفي إحدى المناسبات درت عليه مكالمة من تلك المكالمات صفقة جذابة استطاع بفضلها أن يحقق أموالا فى المضاربة.

ورأى أوناسيس الفرصة متاحة أمامه لاستيراد بعض منتجات والده من التبغ ليقوم وبشكل سريع بتحويل تلك الفرصة إلى عمل مربح. وعندما أقدمت اليونان فى وقت لاحق على تغيير أنظمتها الخاصة بالتصدير، أصبح آري قنصلا لليونان فى الأرجنتين حتى يتمكن من الاستمرار فى نشاطه من دون أن يتحمل ضرائب ورسوما إضافية.

خلال ذلك الوقت وفي الأرجنتين بدأ آري فى بناء أسطوله البحري. وأول ما اشتراه كان عبارة عن ست سفن من شركة كندية للشحن وذلك أثناء فترة الكساد العظيم وبسعر زهيد لا يتعدى قيمة الخردة الحديدية المصنوعة منها تلك السفن. وأثناء أول رحلة بحرية لهذه السفن، ابتدع آري فكرة تغيير أعلام السفن حسبما وجد ذلك مناسبا وضروريا.

وفي حين أفضت الحرب العالمية الثانية إلى احتجاز بعض من سفن أوناسيس فى موانئ أوروبية محايدة، إلا أن نتائج الحرب لم تكن جميعها سلبية على أعماله. فمباشرة بعد نهاية الحرب، أقدم أوناسيس على القيام بصفقات شراء مهمة لسفن قديمة من قوات البحرية الأمريكية وذلك من خلال تأسيس شركة أمريكية قامت بشراء تلك السفن.

لقد كان أوناسيس رجل يتملك حاسة أعمال مرهفة مكنته من أن يوازن بين جميع الأجزاء المختلفة للصفقات التي يقوم بها.

وهكذا بدأ فى هذه السن المبكرة يضع فى رأسه هدفا هو أن يكون يوما صاحب هذه الباخرة .. فبدأ بالاتجار فى التبغ اليوناني حتي أصبح تاجرا كبيرا ثم مليونيرا ثم صاحب أكبر ثروة جمعها إنسان على سطح هذه الكرة الأرضية في عصره !

وشملت ممتلكاته أسطولا من ناقلات النفط وشركة طيران أوليمبيك إير وايز وقائمة طويلة من العقارات الفخمة من نيويورك إلى باريس وجزيرة خاصة فى اليونان وأفخم يخت خاص فى ذلك الوقت ويحمل اسم ابنته كريستينا.

وعلى ظهر هذا اليخت اقام الحفلات الباذخة لاغني واشهر الشخصيات فى العالم فى الخمسينيات والستينيات.

وتشمل الصور النادرة المعروضة صورة لرئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل فى حديث ودي مع الزعيم اليوغوسلافي جوزيف بروس تيتو فى ذروة الحرب الباردة على متن كريستينا.

و قد وصف "جوني ماير " وكيل أعمال أوناسيس فى الولايات المتحدة الأميركية مقدرة أوناسيس على أن يتعلم أي شيء بسرعة فائقة، قائلا: إن أوناسيس ليس عنده دماغ بالمعنى العادي..إن داخل رأسه نشافة وكاميرا وجهاز تسجيل!.

فإذا ذهبت ـ مثلا ـ بصحبة أوناسيس تتمشى فى شارع غريب وقطعت مسافة قصيرة وتركت وراءك بعض المباني، فإنه من المحتمل أنك لا تستطيع أن تتذكر شيئا مما رأيته فى هذا الشارع، وتجد نفسك لا تجد جوابا، إذا سئلت عما شاهدته فى المبنى الذي خلفته وراءك منذ ثوان.

ولكنك إذا سألت أوناسيس، فإنه يستطيع أن يخبرك بالضبط بنوع المتاجر التي مررت بها..فيقول لك مثلا: إن المتاجر والحوانيت التي مررت بها تبدأ بمحل

جزار، يليها محل بقال، ثم متجر لبيع ملابس للنساء والرابعة مقهى وبعد ذلك مكتبة..وكان على اليسار فى نفس الرصيف أمام المكتبة هاتف عمومي..وهكذا!!.

وأوناسيس عنده مقدرة غريبة إذا قرأ بيانا ثم طواه..أو استمع إلى بيان مالي معين تلاه سكرتير الجلسة، فإنه يتذكر كل سطر فى البيان بجميع أرقامه مهما كانت الأرقام مليئة بالكسور..إن مخه (نشافة) ولكنها نشافة نظيفة دائما يطبع عليها كل شيء بمجرد القراءة.

وذاكرة أوناسيس (حديد)..إنه يتذكرك إذا قابلك لمدة ثوان منذ عشرين عاما فى حفلة استقبال ضخمة..إنه يتذكر اسمك وصناعتك أيضا؟!.وفوق هذا كله.. فإن الفيلسوف درس علما غريبا يمكنه من أن يحلل شخصية أي إنسان يقابله..إنه بمجرد نظرة واحدة يستطيع أن يعرف كل مشاكلك!.

هل أنت ذكي أم غبي، نشط أم كسول، طموح أم متواضع، ساذج أم مريب، عدواني أم مسالم؟!.

وقال مدير حسابات أحد فروع شركته الملاحية الضخمة: إنك تستطيع ان تسأل أوناسيس الذي لم يدخل مدرسة: ما هي حصيلة ضرب ٥ر٧٨٥ فى ٣٥ر٧٢٣ مثلا؟..وفي ظرف ثوان سيعطيك أوناسيس الجواب الصحيح دون استخدام ورقة أو قلم!!.

وقال أحد رجال المال الأميركيين المشهور عنهم خفة الظل: حينما يموت أوناسيس..فإنه يترك مخه للعلم..ولكنه قد يوصي به لشركة هانوفر البحرية لكي يديرها كأحسن ما تكون الإدارة!.

ومن المعروف أن شركة هانوفر الألمانية من أكبر شركات الملاحة العالمية.. يعني أن الشركة فى حاجة إلى مخه. وهو ميت!.

أما حياة أوناسيس الشخصية فقد كانت بمثابة قصة مثيرة للدهشة والإعجاب. فعلى الدوام كانت إلى جنبه امرأة جميلة. وإن لم تكن تلك المرأة زوجتيه " تينا "

التي تزوجها من أجل الدخول إلى نخبة رجال أعمال الشحن، وفيما بعد جاكي كيندي زوجة الرئيس الأمريكي الراحل جون إف كيندي الزوجة الأولى " ماريا كالاس" التي تركها من أجل جاكي .

وسنبدأ بقصة أوناسيس بماريا كلاس المغنية الأشهر فى زمانها .. كيف ظهرت، وكيف صعدت لقمة النجومية، وكيف تعرفت على أوناسيس، وكيف تطورت الأمور بينهما، وكيف انتهت ؟!

فى أمسية ربيعية من عام ١٩٥٢ حدث ما يشبه الزلزال فى عالم الغناء الأوبرالي حينما صعدت ماريا كالاس إلى مسرح أوبرا لاسكالا فى ميلانو لتؤدي دوراً فى أوبرا «نواقيس صقلية للموسيقي الإيطالي فيردي».

أصبحت ماريا كالاس (١٩٢٣ ـ ١٩٧٧) من أشهر الأصوات الأوبرالية فى القرن العشرين، وكان صوتها يصدح فى كل موسم دار أوبرا لاسكالا فى ميلانو، ويصل إلى معجبيها فى كل مكان، وقيل إنها نصف ساحرة ونصف نمرة، فهي تملك الجاذبية والقوة والموهبة. ولا ندري كيف استطاع المخرج السينمائي بازوليني إقناعها بأداء دور سينمائي وحيد فى حياتها هو دور ميديا فى فيلمه «ميديا» عام ١٩٧١، المأخوذ عن مسرحية يوربيدس، حيث تضحي ميديا بشقيقها وثروة أبيها الملك فى سبيل الزواج من البطل الخرافي جاسون، وعندما يعرض عليه الملك كريون فى ما بعد الزواج من ابنته يقبل بهذا العرض ويطلق ميديا التي تجن وتحاول أن تقتل العروس، ثم تحرق أبناءها نكاية بزوجها الأسطوري، ولكن بازوليني كعادته أضاف إلى الأسطورة رؤيته المعاصرة الخاصة.

إذا كانت ميلانو تشكل الحلم الفني الذي عاشته ماريا، حيث انطلقت موهبتها فى دار الأوبرا «لاسكالا» فإن باريس كانت تمثل مدينة الفن والحب لديها، منذ زيارتها الأولى إلى هناك عام ١٩٥٨، حيث غنت فى دار الأوبرا الفرنسية أدواراً فى «توسكا»، و«نورما» و«حلاق أشبيلية» . والتقت بكبار الشخصيات، منهم: الرئيس الفرنسي

رينيه كوتي والمليونير الشهير ارتورو لوبيز، والأمير على خان، والكاتب الفرنسي أندريه مالرو، وصور المخرج السينمائي فرانكو زيفريلي فيلماً وثائقياً عن دورها فى أوبرا توسكا، وكانت ماريا تعمل مع لوكينو فيسكونتي الذي كان ينتقل من إخراج المسرحيات إلى إخراج الأفلام والأوبرات، وفي عملها المشترك الأول معه تجاوزت ماريا المدة المحددة فى تنويعات على صوتها، وتجاوزت عزف الأوركسترا فانفجر الجمهور بالتصفيق لها، وأضافت نجاحاً آخر فى أوبرا «لاترافياتا».

كانت حياة ماريا مستقرة، فهي زوجة ممتازة تقضي وقتها بين منزلها ودار الأوبرا «لاسكالا» حيث تقوم بتدريباتها المألوفة، وكانت تردد قولها: إن اهتمامي ينصب على الاعتناء بفني وزوجي.. حيث كانت تشكل مع زوجها ثنائيا منسجما، إذ يقوم زوجها «منغيني» بدور مدير أعمالها، وهي لا تتخذ أي قرار دون استشارته، وكانت تصر على اقتران اسميهما فى الإعلان عن أي عمل فني لها.

ويبدو أن حياة ماريا كالاس ظلت هادئة حتى عام ١٩٥٩ حيث دعي الزوجان إلى رحلة بحرية على متن السفينة "كريستينا" التي يملكها إمبراطور الأساطيل البحرية والجوية المليونير اليوناني أوناسيس، وكان ونستون شرشل مدعوا إلى تلك الرحلة.

ولدت ماريا فى نيويورك لأبوين مهاجرين من أصل يوناني، وحينما بلغت الرابعة والعشرين عادت عائلتها إلى أثينا، فى الوقت الذي بدأت فيه بتطوير موهبتها على أيدي مدربين محترفين، وكانت أول فرصة لها لمواجهة الجمهور حينما غنت فى «فيديليو» على مدرج هيرودوت فى أثينا، مستفيدة من تدريباتها السابقة على أداء دورين غنائيين فى «كارمن» و«عايدة».

في صيف عام ١٩٤٧ أدت الدور الأول فى أوبرا «جوكندا» لبوتشيلي وهي مفتونة بإبداع قائد الأوركسترا توليو سورافين، ومعها مغنية السوبرانو روزا بونسيلي التي كانت ماريا، فى طفولتها. مسحورة بأدائها، وفي الوقت نفسه رافقتها مغنية السوبرانو ريناتا تيبالدي التي صارت منافستها فى ما بعد.

بعد ربع قرن من وفاة ماريا كالاس قدم المخرج الإيطالي فرانكو زيفيرلي، فيلم «كالاس إلى الأبد» من بطولة الممثلة الفرنسية فاني أردان، التي برعت فى أداء أدوار نساء شهيرات على المسرح، منهن سارة برنار، كما قامت بدور ماريا كالاس فى مسرحية عرضت عام ١٩٩٦ بعنوان «ماستر كالاس»، وكان زيفيرلي مولعاً بالأفلام الغنائية، ومن أشهر أعماله فيلم «أوبرا عايدة».

تبادلت ماريا الأدوار الأوبرالية مع ريناتا. وتحولت العلاقة بينهما إلى مايشبه الصراع بين ديكين عنيدين، وكان الجمهور ينحاز وهو يتحدث عن صعود إحداهما أو هبوطها عن مستوى الأخرى فى الأداء، إضافة إلى انحياز النقاد فى الصحافة الفنية التي تنقل عنهما تعليقات متضاربة، حيث تقول ماريا: إن ريناتا ليست هي العمود الفقري، فتجيب ريناتا: ولكنني أنا القلب. وترد ماريا: هل يمكن مقارنتي مع ريناتا؟ إنها تشبه مقارنة الكوكاكولا بالشمبانيا.

كان أوناسيس قد التقى ماريا كالاس أول مرة فى ميلانو فى إحدى الحفلات فركع وقبّل يدها وقال لها باللغة اليونانية: «مدام ماريا كالاس، أنت فعلاً الإلهة الإغريقية التي كنت أتخيلها، من رأسها إلى قدميها، وأتمنى أن نلتقي مرة أخرى»، وكان أوناسيس يشير بذلك إلى جذور ماريا كالاس، وحينما تحقق هذا اللقاء على ظهر السفينة كريستينا بدأت مرحلة جديدة فى حياة ماريا.. أما زوجها فقد ترك نابولي وعاد إلى مدينة فيرونا حيث كانا يسكنان فى البداية، وكانت الصحف تكتب عن سهم كيوبيد الذي أصاب أشهر مغنية أوبرا وأشهر الأثرياء فى العالم، وكان لابد من الانفصال بين ماريا وزوجها، وحينما غادرت المنزل صرخ زوجها قائلاً: خذي كلبك معك، ورمى لها كلبها وصفق الباب بقوة.

قضت ماريا كالاس السنوات الأولى مع أوناسيس فى حالة من الانتظار الدائم، وكانت نجمة المجتمع الباريسي، وفي تلك الفترة كان أوناسيس يدعى إلى ولائم خاصة بصحبة ماريا، ولكنه ينصرف إلى متابعة أعمال إمبراطوريته المالية ليلاً،

حيث اعتاد أن يناقش أموره العملية مع زوجته السابقة تينا، أما ماريا فإنها لم تكن تحب أحاديث المال والأعمال، لأنها تغرق فى أحلام الفن دائماً، ومع ذلك فهي تحتمل المتاعب وتنتظر من أجل حبها، بينما كان أوناسيس فى مزاج متقلب دائماً، وحينما طالبته فى عام ١٩٦٦ بالزواج كما وعدها أجابها بسخرية: أنت تريدين عائلة وأنا أريد العالم! حينذاك أدركت ماريا بأن أحلامها بدأت تتحطم، ولكنها حاولت أن تتجاوز الأزمة فالتحقت بأوناسيس وأمضت معه الصيف فى جزيرة سكوربيوس فى أرخبيل اليونان.

كان صيف عام ١٩٦٧ هو الصيف الأخير الذي أمضياه معاً، وكان الأكثر توتراً فى تلك العلاقة المضطربة، حيث كان أوناسيس يتصرف وكأن ماريا غير مهمة فى حياته، فهو يتأخر عن مواعيد الطعام ويمضي أكثر الوقت بعيداً عنها، فأدركت أخيراً أنها بدأت تفقد الرجل الذي أحبته، وشعرت بأنه كان يمارس الكذب والخداع.

في تلك الفترة نشرت الصحف المولعة بالأخبار الخاصة بالمشاهير وفضائحهم صوراً تجمع بين جاكلين كيندي وأوناسيس فى منتجعات المغرب، وحينما عاد أوناسيس إلى باريس اقترح على ماريا القيام برحلة إلى جزر الكاريبي، وأخبرها أن جاكلين ستنضم إليهما هناك، وفهمت ماريا كلامه، وتذكرت موقفاً مشابهاً، ولكنه معكوس، حينما كانت مع أوناسيس فى نيويورك، واتصل هو بجاكلين يدعوها إلى رحلة، وقال لها بأن ماريا ستنضم إليهما، فأجابته جاكلين: فى هذه الحالة ربما نلتقي فى مرة أخرى.. وأدركت ماريا معنى «في هذه الحالة»..

تخلت جاكلين كنيدي عن الصورة التي رسمتها لها الصحافة الأمريكية كزوجة مفجوعة بمصرع زوجها، وأم حنون، وأصبحت مغامرات «جاكي» هدفاً للصحفيين والمصورين الذين يبحثون عن الإثارة.

كانت السفينة الخاصة كرستينا فى رحلة إلى جزر الكاريبي، وعلى متنها جاكلين وأوناسيس، وظلت ماريا فى المنزل تعاني من الغيرة والخيبة والوحدة، فى الوقت

الذي تم فيه الاتفاق على الزواج بين جاكلين وأوناسيس، ولكن الإعلان عن هذا الزواج تأخر حتى تنتهي الانتخابات الأمريكية لكي لا يسبب فضيحة لآل كيندي، ومع ذلك لم يكن الأمر سراً فقرر أوناسيس إبلاغ ماريا بالخبر، ولكنه حاول التخفيف من آثار الصدمة، فلم يقطع الاتصال بها، ولم يتأخر فى إرسال باقات الزهر الضخمة إليها بين حين وآخر.

وفي نهاية ذلك الخريف الساخن نشرت الصحف خبر زواج أوناسيس من جاكلين، وكان بمثابة صفقة كبيرة بين المال من جهة والشباب والشهرة من جهة أخرى، وراح الصحفيون والمصورون يلاحقون "جاكي" من مكان إلى آخر، وشعر أوناسيس بأن جاكي تستغله أكثر مما تحبه، واكتشف طمعها الذي لا يقف عند حد، فعاد إلى ذاكرته طيف ماريا التي كان صوتها يصدح فى أوبرا لاسكالا فيطرب العالم، وقبل أن ينتهي «شهر العسل» مع جاكي اتصل أوناسيس بماريا، واستمر فى الاتصال بها كل يوم، فلم يكن زواجه من جاكي سوى ملصق إعلاني، وهكذا شوهد وهو يزور منزل ماريا فى وقت متأخر من الليل، والتقط المصورون لهما صورة مشتركة فى مطعم مكسيم فى باريس، وبعد يومين أصرت جاكلين على مرافقة أوناسيس إلى مطعم مكسيم لتأكيد أن علاقتهما لا تزال على ما يرام. كان ذلك فى عام ١٩٧٠، حيث عادت الأحلام تداعب مخيلة ماريا كالاس، فسافرت إلى اليونان ولحق بها أوناسيس وأقسم لها بأنه يحبها ويريدها أن تكون إلى جانبه دائماً.

في عام ١٩٧٣ تعرضت حياة أوناسيس لكارثة هزت كيانه، حيث توفي ابنه ألكسندر فى حادث سقوط طائرته الخاصة، وظهرت علامات الشيخوخة على ملامح أوناسيس، وطلب من ماريا أن تكون إلى جانبه وتساعده فى تجاوز هذه المحنة، وكانت جاكلين قد ابتعدت عنه شيئاً فشيئاً، وحينما تعرض لذبحة صدرية نصحه الأطباء بالتوجه إلى المشفى الأمريكي فى باريس، وحمل معه إلى المشفى بطانية حمراء من الكشمير، كانت ماريا قد أهدتها إليه فى عيد ميلاده، وقبل ذهابه إلى المشفى استدعى محاميه الخاص وطلب منه تخفيض حصة جاكلين من الإرث، تعبيراً عن شعوره بالندم على الزواج منها.

وحينما توفي أوناسيس فجأة فى ١٥-٣-١٩٧٥ شعرت ماريا بأنها أصيبت بصاعقة، وأن حياتها فى خطر، وظلت تعاني من الكآبة والحزن حتى توفيت، وتركت وراءها مشاعر الخيبة لدى عشاق فنها، حيث كان صوتها يصدح فى دار أوبرا لاسكالا فى كل عام، وقال مغني الأوبرا الشهير بلاسيندو دومنغو: أعتقد أن ماريا تركت نفسها تموت من الحزن، نستطيع حقّاً أن نموت إذا أردنا، دون أن ننتحر، وإنما نغادر الحياة».

أما بالنسبة لعلاقة جاكلين كيندي أرملة الرئيس الراحل بالملياردير اليوناني أوناسيس، فيقول الصحافي الأميركي كريستوفر أندرسون المتخصص فى الكتابة عن عائلة كيندي وشؤونها .. يقول فى كتابه " كارولين الحلوة " إن روبرت كيندي نصحها بالابتعاد عنه ولو لفترة من الزمن: أي حتى تكون الانتخابات قد مرّت.

وقال لها بالحرف الواحد: إذا ما عرف الناس بعلاقتك مع أوناسيس فسوف أخسر خمس ولايات من الناحية الانتخابية. وبالتالي فسوف أخسر الرئاسة. فهل هذا ما تريدين؟ ولذلك أجلت إعلان علاقتها مع أوناسيس بضعة أشهر. ولكن ذلك لم يفد روبرت كيندي كثيراً لأنهم اغتالوه حتى قبل أن يصل إلى الشوط الأخير.

ثم يردف المؤلف قائلاً: عندما سمعت جاكلين كيندي بأنهم اغتالوا روبرت جن جنونها وقالت: هذا هو مصير آل كيندي! لقد كتب الله عليهم أن يموتوا فى عزّ الشباب، ان يدفعوا ثمن شهرتهم وجمالهم وجاذبيتهم باهظاً، ولكن كيف سمعت بمقتله؟ كانت تشاهد التلفزيون فى ساعة متأخرة وترى انتصار أخ زوجها فى مؤتمر الحزب الديمقراطي بلوس انجلوس. وعندئذ أصبح المرشح الرسمي للحزب.

وأصبح طريق الرئاسة مفتوحاً أمامه. وقد فرحت كثيراً بالنبأ وقالت لأولادها: سوف نعود قريباً إلى البيت الأبيض! ثم أطفأت التلفزيون ونامت قريرة العين. وفجأة يرن صوت التليفون، فتنهض مذعورة من الفراش لكي ترد. فاذا بإحدى صديقاتها من لندن تقول لها: هل سمعت بما حصل لروبرت كيندي؟

فأجابتها: نعم، سمعت، لقد انتصر انتصاراً ساحقاً على منافسه.. فسكتت الأخرى على الخط قليلاً ثم قالت لها: لا، لا.

هل سمعت بما حصل له بعد انتهاء المؤتمر عندما خرج من الفندق؟ عندئذ عرفت جاكلين كيندي أن مكروهاً قد وقع فصرخت قائلة: ويلك! ماذا تقولين لي؟ هل حصل له شيء؟.. فأجابتها: آسفة جداً، ولكن افتحي التلفزيون، لقد اغتالوه، ولكنه لم يمت. لقد اغتاله شاب فلسطيني يريد أن ينتقم لهزيمة العرب فى ٥ يونيو ١٩٦٧.

وعندئذ أحضرت جاكلين كيندي حقائبها فوراً لكي تذهب بالطائرة إلى لوس انجلوس حيث يسجى جسد روبرت كيندي فى المستشفى. ولكنه مات بعد ساعات قليلة متأثراً بجراحه. وهكذا خسر آل كيندي رئاسة أميركا بعد أن كانت فى جيبهم تقريباً كما يقال.

ثم يردف المؤلف قائلاً: ولكن الشيء الذي أثر على الرأي العام فيما بعد هو زواج أرملة الرئيس من أوناسيس بعد اغتيال روبرت كيندي بزمن قصير فقط. وحدثت عندئذ فضيحة كبرى ليس فقط على مستوى العائلة وانما على مستوى أميركا والعالم كله.

فجريدة " فرانس سوار" الفرنسية مثلا كتبت بالخط العريض وفي صفحتها الأولى: كيندي يغتال مرة اخرى! كيف يمكن لزوجة أشهر رئيس للولايات المتحدة أن تخونه وتخذل عائلته بمثل هذه السرعة؟ كيف يمكن لها أن تتزوج من شخص مشبوه جمع ثروته الطائلة بطرق غير مشروعة؟ ألا يكبرها بثلاثين سنة؟ إنه فى عمر أبيها.

وشنت الصحافة الأميركية هجوماً مماثلاً عليها، بل وكان أكثر عنفا، ورأى الجميع أن جاكلين كيندي لطخت سمعة زوجها وشوهت ذكراه، هو الذي كان قد تحول إلى أسطورة.

والواقع ان صورتها كانت تشبه الملاك بالنسبة للشعب الأميركي والعالم كله. وما كان أحد يتوقع ان تتزوج امرأة مثلها من رجل مثله. ولكن المال أعماها. فالواقع أن أوناسيس كان يغدق عليها الهدايا والهبات من كل حدب وصوب. وكان يلاحقها بالتليفونات حتى منتصف الليل. وكان يعلن حبه لها على رؤوس الأشهاد. وأخيراً استطاع اقناعها بأن تصبح زوجته بعد أن أغراها بذكائه وثرائه والأخطر حبه الغريب للحياة !

وهكذا أصبحت مدام كيندي مدام أوناسيس! وصدم العالم كله للنبأ وأصيب بالذهول.

وقد شعرت ابنته كريستينا وابنه الكسندر بذلك وغضبا غضباً شديداً. ولذلك نراهما عابسين فى الصور التي أخذت لذلك العرس الشهير فى الكنيسة الأرثوذكسية لنيويورك. فقد كانا يرغبان فى أن يعود إلى والدتهما وتحصل المصالحة بينهما. فإذا بـ جاكي كيندي تخطفه من بين الأيدي لكي تتلاعب به وتفعل به ما تشاء.

ثم يردف المؤلف قائلا: أما أوناسيس فكان يرجو من هذا الزواج زيادة شهرته فى العالم أجمع. وهذا ما كان. وبالتالي الصفقة كانت مربحة لكلا الطرفين. وبما أنه كان يمتلك جزيرة فى البحر فإنه قضى شهر العسل مع محبوبته هناك. وذهبت كارولين الحلوة وجون جون كيندي معهما إلى هناك.

وأغرقهما أوناسيس بالهدايا لكيلا يكرهانه لأنه تزوج أمهما الغالية. وهكذا عرف كيف يكسب ود الأطفال ثم دارت الدوائر على الجميع. فقد قتل ابن أوناسيس الوحيد الكسندر فى حادث طائرة وعندئذ جن جنون والده وتغيرت تصرفاته مع زوجته وأصبح سريع الغضب لأدنى سبب.

وعندئذ فكرت جاكلين كيندي بسحب أكبر مبلغ منه قبل أن تتركه. وعرف أنها تريد مئة مليون دولار على الأقل. وهو مبلغ ضخم فى حساب ذلك الزمان ويعادل

الآن خمسمئة مليون دولار وعندما مات أوناسيس فى المستشفى الأميركي بباريس، كانت ابنته وحدها إلى جانبه.

وفي أثناء الجنازة حاولوا منع جاكلين كيندي من الظهور فى الصف الأول ولكنها توصلت إلى مبتغاها وأخذت مبلغاً كبيراً من ثروته التي تقدر بمليارات الدولارات. ثم انتحرت ابنته كرستينا كما هو معروف لأسباب مجهولة.

بقي أن نقول هنا إن جينا لولو بريجيدا الممثلة الإيطالية الراحلة، وإحدى صديقاته كانت تقول عنه إنه أكثر جاذبية من أي ممثل سينما..و إنه " صاحب وجه جذاب لا تجده فى هوليوود ثم هو أكثر رجولة من هؤلاء أصحاب العضلات الذين تظهر صورهم فى مجلات رفع الأثقال " !

وتضيف جينا لولو بريجيدا..قائلة: إن النساء من جميع الأعمار والأحجام..ومن جميع المشارب، يحسسن نحو آري بمجرد مقابلتهن له بجاذبية.

وتقول أيضا: إن من الصعوبة بمكان مقارنة آري بأي رجل آخر فى مسائل المال أو فى مسائل رعاية الإناث..ولكن دعوني أقول إنه " حينما يكون الأمر متعلقا بالمال..فإن آري يكون ذلك الرجل القاسي الغليظ القلب الذي لا يرحم .. أما إذا كان الأمر يتعلق بالنساء فهو الشهم الكريم اللطيف السمح الذي لا تفارق الابتسامة شفتيه"!!

وبالرغم من مرور كل هذه الأعوام على وفاة رجل الأعمال الأسطورة أوناسيس.. إلا ان أصداء سيرته وما تركه من ثروة مازال محل الصراع الذي وصل إلى صدام قضائي بين أثينا حفيدته لابنته كريستينا وبين مؤسسة أوناسيس حول رئاسة المؤسسة حيث رفعت أثينا دعوي قضائية تعيد بمقتضاها حقها فى رئاسة المؤسسة، فقد كان المعتاد ان يكون رئيس المجلس الذي يرأس المؤسسة الخيرية لأوناسيس من الأسرة وفقا للدستور القديم، لكن المجلس فيما بعد تحايل

على هذا العرف أو الدستور القديم وقرر أن يكون الرئيس للمؤسسة بالانتخاب فى محاولة منه لإبعاد أثينا الحفيدة عن المؤسسة وقالوا إن التصور السابق حول توريث الرئاسة يتناقض مع رغبة أرسطو طاليس أوناسيس الواردة فى القضية.

وقد وصفت أثينا أوناسيس فى الشكوي التي رفعتها للقضاء التغير الذي حدث فى اختيار رئيس مجلس مؤسسة أوناسيس بالانتخاب، بأنه سلوك انقلابي يحرمها من حقها فى وراثة رئاسة المؤسسة، وهكذا بدأت الحرب بين حفيدة أوناسيس وأبناء معاوني جدها على رئاسة مؤسسة أوناسيس.

وكان أحد المحامين اليونانيين قد تولى قبل أن تصل أثينا سن الرشد تزويدها بما تحتاج إليه شكلا وموضوعا حتي تصبح رئيسة لمؤسسة أوناسيس، وحسب الأحكام السابقة، كان أمر وصولها إلى رئاسة المجلس أكثر سهولة بوصفها حفيدة ارسطوطاليس، إذا رغبت فى ذلك وتوفرت لها المؤهلات المطلوبة لخدمة أهداف المؤسسة والتي فسرها معاونو أرسطوطاليس القدامي بأنها تعني الرغبة والمعرفة وعودة إلى الوراء لعام ٢٠٠٣، أقدم المجلس الإداري بالإجماع على تعديل الأحكام بالشكل الذي يبعد أثينا تماما عن منصب الرئاسة، حيث ترى الأحكام المعدلة بأن انتخاب أي عضو يتم من الآن وصاعدا بالأغلبية العادية بدون حق توريث الرئاسة، وبهذا النحو تم انتخاب بابا ديمتريو رئيسا لمؤسسة أوناسيس.

وقد ذكرت وسائل الإعلام أن محامي أثينا البريطاني الجنسية كان قد قام أوائل هذا الشهر بتقديم شكوي إلى محكمة لفنشتايه ضد إدارة مؤسسة أوناسيس يصف فيها التعديل الذي أجراه المجلس الإداري على الأحكام بالانقلاب الذي يهدف فقط إلى إبعاد أثينا من الرئاسة، وطالب المحكمة بإصدار حكم يقضي ببطلان هذا التعديل.

ومن جانبها أشارت مؤسسة أوناسيس فى بيان لها صدر بعد العلم بهذه الشكوي إلى أن التعديل الذي قامت به يحقق الانسجام بين أحكام المؤسسة ومضمون وصية أرسطوطاليس أوناسيس الذي يريد أن يكون انتخاب جميع أعضاء المجلس

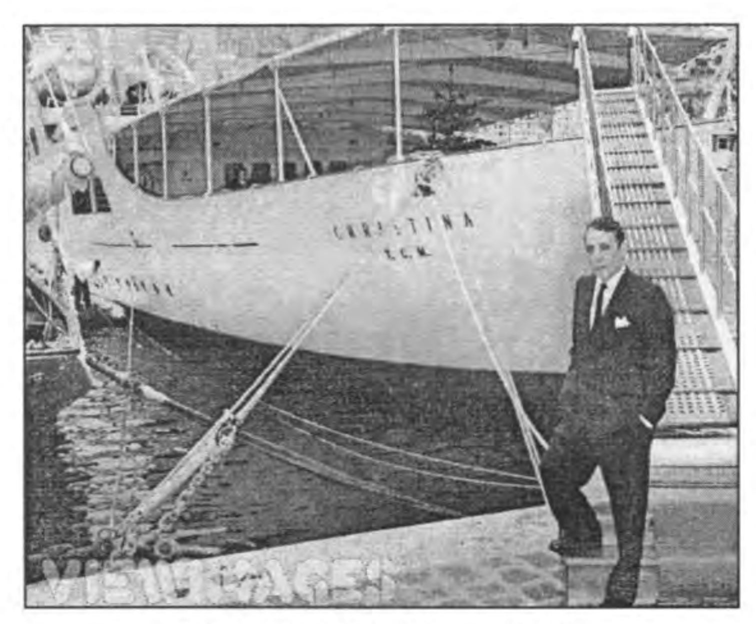
الإداري عن طريق الأغلبية العادية، وقال البيان إن المجلس لن يستجيب لطلب أثينا ويتوجب عليه أن يدافع فى المحكمة عن ذكري ورغبة مؤسس المؤسسة الراحل أرسطو طاليس أوناسيس.

وفي تصريح للمكتب القانوني البريطاني بيكر وماكنزي الذي يتولي قضية أثينا لإحدي وكالات الأنباء، قال المكتب إنه يلتزم بسرية ملف القضية، غير أن المعركة القضائية الماراثونية بين إدارة مؤسسة أوناسيس وعائلة روسيل (والد أثينا) لن تنتهي عند هذا الحد.

وتعد أثينا روسيل، أغني طفلة فى العالم، لكن والدها حارب كي تعيش طفولة عادية بسيطة فى منزل ريفي من دور واحد على مشارف إحدى القري السويسرية، فغرفة نومها ليست أكبر من المعتاد وأثاثها بسيط وكانت تذهب إلى مدرستها الحكومية بأتوبيس المدرسة وتلهو مع أصدقائها فى شوارع القرية كأي طفلة عادية، والآن حرمتها مشكلات الثروة من هذه المتع البسيطة بعد أن دخلت العلاقة بين والدها ومجلس الأوصياء اليوناني الذي تبنته والدتها كريستينا لحماية ثروتها مرحلة حرجة.

وتعود قصة هذا الإرث الذي حصلت عليه كريستينا إلى أنه بعد وفاة أرسطو اوناسيس، حصلت ابنته كريستينا على نصف إمبراطوريته، والتي كانت تقدر قيمتها منذ ٢٥ عاما بنحو ٢٥٠ مليون دولار عبارة عن ٨٧ شركة ومصنعا منتشرة فى مختلف أرجاء العالم وودائع نقدية فى ٢١٧ بنكا، وناطحة سحاب فى نيويورك تضم مكاتب إدارية مكونة من ٥٢ طابقا، هذا بالإضافة إلى منازل فى أثينا وباريس ونيويورك مع مجموعة هائلة من المقتنيات الفنية، وقد أوصي أوناسيس بإيداع أرباح النصف الآخر من ثروته لصالح مؤسسة خيرية تحمل اسم ابنه الكسندر فى محاولة منه لتحسين صورته أمام العالم، وتحويله من زير نساء إلى شخصية تتبني الأعمال الخيرية وتمويل مجموعة من الجوائز العالمية تنافس جوائز نوبل.

إن انخراط كريستينا ابنة أوناسيس فى الأعمال التجارية وتوليها منصب أول رئيسة لمؤسسة أوناسيس لم يمنعها من التفكير فى الزواج والإنجاب، وبعد فشل زواجين لكريستينا، فكرت فى الزواج للمرة الثالثة، وكان ارتباطها بتيري روسيل حفيد أحد أقطاب صناعة المستحضرات الطبية الفرنسي جاستون روسيل، عام ١٩٨٤ وكانت الابنة أثينا ثمرة هذا الزواج بعد مرور عام واحد فقط ومثل أي حياة زوجية بدأت علاقة تيري روسيل وكريستينا فى ثوب وردي لشهور قليلة، اختفى بعد ذلك ليكشف عن تصدع أعمدة الأسرة بسبب الثانية وهي اكتشاف ان زوجها تيري روسيل له ابن صغير من زوجته عارضة أزياء سويدية تدعي ماريان جابي. وبعد هذا الاكتشاف بعامين انهارت أعمدة الأسرة تماما بانفصال كريستينا وتيري بعد أن أنجبت جابي طفلتها الثانية من تيري روسيل.



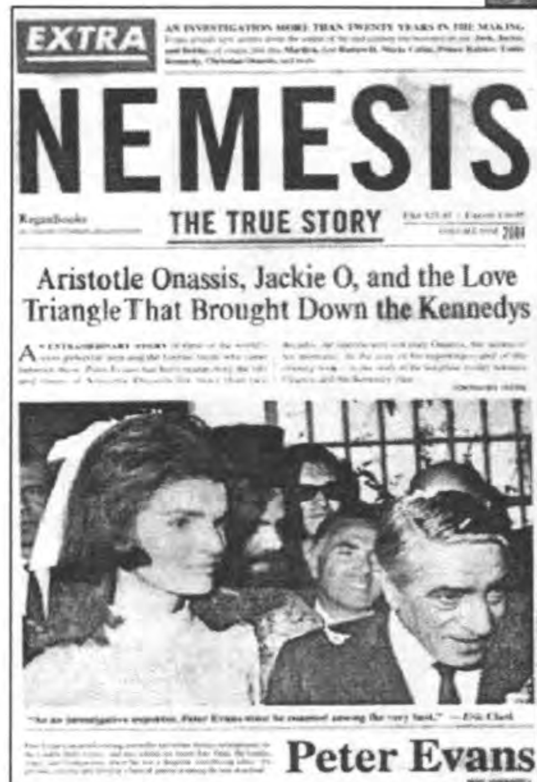
أوناسيس .. وضع جاكي نصب عينيه !



أوناسيس على ظهر يخته .



جاكي تحدت الجميع وتزوجت أوناسيس !



هكذا هاجمت الصحف الأمريكية زواج أوناسيس وجاكلين كنيدي واعتبرته خيانة وطنية من جانب "جاكي" أرملة رئيسهم جون كيندي .



وكان الفراق بين ماريا كلاس وأوناسيس بسبب ارتباطه بأرملة الرئيس الأمريكي جاكلين كيندي أو " جاكي " .

دستوفسكى ..

الجريمة والعقاب !!



عاش حياته كلها فى صراع مع المرض اللعين "الصرع " .. ورغم هذا فقد ذاق مرارة السجن، بعد أن انتظر حكمًا بإعدامه، تم تخفيفه قبل ثوانٍ من إطلاق كتيبة الإعدام الرصاص عليه تنفيذًا للحكم !!

يقولون ثلاثة يمثلون العبقرية البشرية : أينشتاين يمثل عبقرية الذهن، ونابليون يمثل عبقرية الإرادة، ودستوفسكي يمثل عبقرية الإحساس .

يعد دستوفسكس واحدا من أكبر الكتاب الروس، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين، شخوصه دائماً مثله فى أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، ورواياته تحوي فهماً عميقاً للنفس البشرية كما تقدم تحليلاً ثاقباً للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا فى ذلك الوقت.

لم يكن دوستويفسكي هو كاتب القرن العشرين الأكثر عصرية ومتعة فحسب، بل ثمة مبررات للافتراض بأن القرن الحادي والعشرين سيجري تحت رايات "الجريمة والعقاب" حسب رأي الكثيرين من النقاد والمحللين. كما يرى توماس مان أن دوستويفسكي هو "أول مبدع نفساني فى الآداب العالمية على مر العصور" .

من أشهر أعماله: بيت الموتى، الجريمة والعقاب، المقامر، الأبله، الإخوة كرامازوف وهي الرواية التي تم تعريبها ومثلت فى فيلم عربي باسم (الإخوة الأعداء)، الفقراء، قلب ضعيف، نيتو، الليالي البيضاء، بروخارتشين، الجارة، المهرج، السارق الشريف، البطل الصغير، شجرة عيد الميلاد والزواج، التمساح،

فى قبوي، الزوج الأبدي، الشياطين، المراهق، قصة أليمة، ذكريات شتاء عن مشاعر صيف، زوجة آخر ورجل تحت السرير.

ولعل السر فى نجاح دستويفسكي وخلود اسمه بين أعلام الأدب العالمي، يرجع إلى أنه كان يحرص فى قَصصه على أن يصور الحياة كما كان يراها، ويلمسها ويخبرها، ولعل السر فى نجاحه فى الجريمة والعقاب بالذات إلى أنه عاش خلال عمره الكثير من وقائعها.

كان يستمع إلى المعذبين الذين كانوا يفضفضون عن صدورهم هناك، كان ينصت إلى أحاديثهم.. ولم يكن لخجله يجرؤ على مجاذبتهم أطراف الحديث، ولكنه كان يستدرج الناس إلى لعب البلياردو... اللعبة التي تمكنه من أن ينكس رأسه فيخفي وجهه بينما يرهف أذنيه.. وهكذا كان يخسر مالا، ولكن يكتسب حكمة.

يقول دستوفسكي مثلا : "من الصحيح ياسيدي أن الفقر ليس رذيلة ... ولكن ارتضاء الهوان رذيلة .. وقد تكون فقيرا ولكنك تظل محتفظا بكبريائك الطبيعية.. أما إذا فرطت فى كرامتك، فلن تجني شيئا، بل إن الذي يرتضي الهوان هو أول من يحتقر نفسه".

عاش دوستويفسكي فى العزلة والانطواء، حين كان يطلب العلم فى الجامعة، فلم يكن يؤنسه سوي الأحلام ورؤي الخيال، وعاش فى الهواجس والوساوس التي كانت تؤرقه الليالي، فاتجه به هذا إلى التحليل النفسي فى علاج أبطال قصته هذه وبقية قصصه لأنه جرب آثار العوامل النفسية على المرء.

وعاش فى السجن وفي سيبريا حين اعتقل مع الثائرين الناقمين على الأوضاع التي كانت تسود روسيا إذ ذاك.

وأقبل الشباب بجنسيه على فيودور دوستويفسكي يرون فيه أستاذا للجيل، ويناقشونه فى المصير الاجتماعي للإنسان.. وكانوا إذا حدثوه عن أحلامهم

فى خلع القيصر وإقامة الجمهورية، تذكر كيف نفي فى شبابه ليعيش بين القتلة والمجرمين فى سيبريا، فيهز رأسه فى أسي ويقول: "اهدأوا يا أبنائي.. لسنا بحاجة إلى العنف لكي نبعث الدنيا ونخلقها خلقا جديدا ... إنما نحن بحاجة إلى عمل جليل.. إلى ثورة عظيمة .. تنبعث من أعماقنا".

فيعارضه الشبان صائحين فى غيظ: "وكيف نلهم الناس جميعا بأن يقوموا بهذا العمل الجليل .. وبهذه الثورة العظيمة التي تنبعث من أعماقهم كما تقول؟".

وكان رده عليهم "ولم تطالبون الناس جميعا بذلك .... ألا تستطيعون أن تتصوروا ما قد يصل إليه رجل مستقيم واحد من قوة وسلطان؟ . ليظهر رجل مستقيم واحد، وأنتم ترون كل الناس يتبعونه".

لقد أدرك ديستوفسكي أن وجود الإنسان لا يمثل إلا حريته، وجعل للحرية معيارا للتمييز بين الخير والشر باعتبارها القانون الأخلاقي الوحيد .

إنها معادلة صعبة ولكن ديستوفسكي استطاع أن يجتازها لأنه كان فنانا وخلاقا للجمال، لقد قدم لنا الإنسان بتفرده دون ارتباطه بأرض روسية أو أوروبية بل إنه الإنسان فوق الأرض، شاملة الإنسان والكون وصراعه الدائم من أجل حياته .

وعند احتضاره كان يقول "يا أبنائي .. لا ينبغي أن نتوق إلى حياة أبدية مقبلة .. فإننا إذا لم نصل إلى الأبدية فى دنيانا هذه، فلن نصل إليها قط، إن الأبدية معنا الآن .. هناك لحظات نصل فيها إلى أسمى وجود، فإذا الزمن يقف عن سيره، وإذا حياة الجنس البشري كله تذوب فى حياتك .. هذه هي لحظات الأبدية".

إن لدوستويفسكي روحا ما زالت تتعذب فى كل منا، وفي كل مرة نقرأ لهذا الرجل فكأننا نقوم بعملية استحضار لتلك الروح المعذبة، تغوص بنا فى أعماق الإنسانية الكالحة، نسبر أغوار أنفسنا نحن، نخرج منها شبه مخنوقين، ولعلنا نصل إلى نتيجة سبقنا إليها بقوله " أنا إنسان مريض "!

كانت حياته رحلة قاسية تأرجحت بين مرض الصرع الذي كان ينتابه بين الحين والآخر وتنامي قوة الرفض فى داخله وتمرده على الواقع الذي قاده للاشتراك فى حركة سياسية ضد الحكم القيصري فزج به فى السجن الذي أخذ منه الكثير وتآكلت روحه المتوهجة بين جدرانه الصدئة على الرغم من أن تجربة العزلة والاطلاع على عوالم السجن أفاده كثيرا فى التقاط الكثير من دقائق الأمور ونقلها من جغرافية الواقع المأزوم إلى جغرافية الفن .

ولد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي عام ١٨٢٢ وتوفى عام ١٨٨١ فى سان بترسبورج، بروسيا، لأب انحدر من أصلاب قبائل "النورمان" الرحالة، وكان طبيبا متواضع الحال، ولكنه كان قاسيا.. مولعا فى حياته بسياسة الأسوار، حتي لقد كان يكتب لابنه حين رحل للدراسة الجامعية يوصيه بأن "يبني حول نفسه سياجا، وأن يصون نفسه عن مباذل زملائه" .

وما كان فيودور بحاجة إلى هذه النصيحة، فلقد عوده والده منذ حداثته الابتعاد عن الناس، وكان يقسو عليه من أجل ذلك، فلما التحق الشاب بكلية الهندسة بجامعة بيترسبورج حافظ على وحدته، ولم يسمح لغير الأحلام بأن ترافقه.. كان يعيش فى الخيال لأن أباه لم يسمح له بأن يعيش فى الحقيقة... وحتي خيالاته لم تنج من تدخل أبيه إذ حرم عليه أن يذكر النساء فى أشعاره.

كان دستوفسكي مريضا طوال حياته بالصرع. وبعد ثلاث سنوات من نشر قصته الأولى " المساكين " عام ١٨٤٦، تم إلقاء القبض عليه فى عام ١٨٤٩ فى بطرسبرج ومعه نحو ثلاثين شابا، وكانت التهمة الخطيرة التى وجهت إليهم هى الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة، والاجتماع والاحتفال بميلاد الكاتب الفرنسى "فورييه" .

قضى المتهمون سبعة أشهر حكم عليهم بعدها بالإعدام، ثم قضوا شهرا آخر قبل التنفيذ، وفى يوم التنفيذ نصبت أعمدة فى أكبر ميدان فى بطرسبرج ثم ألبس

المتهمون جلاليب بيضاء وعلى رأس كل منهم طرطور وأخرجوا فى الصباح فى يوم ٢٢ديسمبر عام ١٨٤٩ والثلج يغطى الرأس، ثم حضر قسيس يحمل صليبا من الفضة ويطلب إلى كل منهم تقبيله حتى يغفر لهم فى العالم الآخر. ووقف ستة عشر جنديا يحملون البنادق وربط كل منهم إلى العمود لكى يتلقى الأعيرة النارية، تم أمر الجنود بفتح الأزندة استعدادا لإطلاق النار وفى هذه اللحظة أعلنوا بأن القيصر استبدل حكم الإعدام الحكم بالنفى إلى سيبريا ٤ سنوات.

و قد ألف دستوفسكي عن هذه التجربة كتابا يعد ذلك باسم " ذكريات من بيت الموتى ". وبعد سنوات، استقر على التأليف القصصى فأخرج " الإخوة كرامازوف" و" الجريمة والعقاب ".

أرسل دستوفسكى خطابا لشقيقه يطمئنه عنه ويحكى له قصة المحاكمة والإعدام ثم النفى ويقول له : " لا تظن أن الحكم قد هدنى أو غم على فالحياة فى كل مكان هى الحياة، وهى فى داخلنا وليست فيما هو خارج عنا وسيكون قريبا منى أناس وسأكون رجلا بينهم وأبقى كذلك إلى الأبد. ولن يهن قلبى أو تفشل عزيمتى أمام المصائب. وهذا فى اعتقادى هو الحياة أو الواجب فى الحياة ".

وقال " وعندما ألتفت إلى الماضى وأتذكر مقدار الوقت الذى ضاع عبثا وكم منه ضاع فى الأوهام والكسل والجهل بالعيش وكيف أننى لم أقدر الوقت حق قدره وكيف جنيت على قلبى وذهنى، أحس بأن قلبى يسيل دما، أجل إن الحياة عطية وهى سعادة وكان من الممكن أن نجعل من كل دقيقة منها عصرا طويلا من السعادة".

وقد ألف دستوفسكي - فيما بعد- كما ذكرنا- كتابا عن تجربة الحكم بإعدامه ثم تخفيفه إلى السجن باسم " ذكريات من بيت الموتى ". وبعد سنوات، إستقر على التأليف القصصى فأخرج " الإخوة كرامازوف " و" الجريمة والعقاب " أعظم أعماله، التي سنتوقف قليلا عندها .

كان ديستوفسكي يملي على سكرتيرته "آنا جريجوريي فينا" التي كانت فى مقتبل الشباب رواية "الجريمة والعقاب" والتي تحكي قصة الطالب راسكولينكوف الذي ذابت إرادته فى الصورة الوهمية التي رسمها خياله للإنسان المثالي، فإذا جسده يصبح عبدا لعقله.. وإذا الوهم يبرز للحياة، والحي يتلاشي فى الأوهام، وإذا بسلطان العقل يسر الجسد إلى الجريمة ليختبر آراءه فيها.

وكانت الفتاة تكتب ما يمليه عليها وهي تتطلع فى عجب وإعجاب إلى النابغة الذي كان يكتب تحفة كهذه إلى جوار سرير زوجته وهي تحتضر.. وما أن أوشك الكتاب على نهايته حتي بدا يعتري فيودور اضطراب غريب.. ولكن آنا استجمعت يوما جرأتها لتقول له: "قد لا يقدر لأي جيلين أن يجتمعا معا.. ولكن أي إنسانين يستطيعان ذلك"، وكان أن تزوجا.. بعد موت زوجته طبعا.

وأخذت نوبات الصرع تهاجمه أثناء شهر العسل ولكنه مضى فى إتمام الرواية التي بلغت تطوراتها إلى أن اكتشف أن " المرء قد يجد نفسه مسوقا إلى الجريمة، لا من أجل الجريمة ذاتها وإنما.. من أجل العقاب التي يتلوها".

ويمضي دوستويفسكي فى القصة فيكشف جريمة راسكولنيكوف ويرسله إلى سيبريا.. وهناك وهو يتلقى العقاب يشعر لأول مرة بالبراءة والطهر.. لأنه عرف الحقيقة وعرف الله.

يقول دوستوفسكي "إن الجمال لينقذ البشرية" إن هدف كل إنسان أن يجعل إنساناً آخراً سعيداً، لقد وصف "فيودور دوستوفسكي" هذه المقولة بعبقرية فى قصته "الجريمة والعقاب" لقد بنى قصته على هذه الفكرة وجعل بطل روايته "روديون راسكولينكوف" يقتل المرابية العجوز كي ينقذ حياة إنسان، وفيها أيضا تصبح "سونيا مارميلادوف" عاهرة كي تطعم أفواه أطفال جوعى.

لقد ارتكب الاثنان الجريمة ومن ثَم فإن شبح خطاياهما يتبعهما بلا رحمة.. عندما يدرك البشر جوهر الشر والعمل الآثم الذي ارتكبوه فإن هذا يعني أنهم قادرون على محو الخطيئة من نفوسهم.

إن أزقة بطرس سبورج وأحياءها القذرة وبيوتها الضيقة وحاناتها هي مسرح أحداث رواية الجريمة والعقاب، ومنها نتطلع إلى صور مرعبة للتعاسة والشقاء والبؤس التي يعيشها فقراء العاصمة .

فى الجريمة والعقاب، يتحدث دوستويفسكي عن فلسفة الجريمة، وكيف أنها من الممكن أن ترتكب بضمير بارد جدا، لا لأجل الجريمة نفسها، لكن من منطلق إنساني بحت، وهو مافعله راسكولينكوف، حين قتل تلك العجوز المرابية، فلم يكن يقصد قتلها بذاتها، بل قتل مبدأ الاستغلال والجشع !!

أيضا فى هذه الرواية تعرض للشخصيات الإنسانية المحطمة، وبرع فى كشف التجليات النفسية لها، ومثال ذلك، كاترينا، وأيضا ابنة زوجها " سونيا " التي كانت مخلصة لـ راسكولينكوف، وكانت معه لآخر لحظة !!

ولا تظهر " الجريمة والعقاب" كرواية من روايات المغامرات أو الروايات البوليسية، بل هي فى الواقع نموذج لكل تأملات الكاتب فى واقع الستينيًات من القرن الماضي بروسيا، وهي الفترة التي تميزت بتطور الرأسمالية، وما ترتب على ذلك من تغيرات جديدة فى الواقع الذي ازداد به عدد الجرائم، ولذا نجد الكاتب يهتم اهتماما كبيرا فى روايته بإبراز ظروف الواقع الذي تبرز فيه الجريمة كثمرة من ثماره، ومرض من الأمراض الاجتماعية التي تعيشها المدينة الكبيرة بطرسبرج (لينتجراد حاليا) وهي المدينة التي أحبها الكاتب وبطله حبا مشوبا بالحزن والأسى على ما تعيشه من تناقضات، ولهذا السبب بالذات نجد الكاتب كثيرا ما يخرج بأحداثه للشارع ليجسد من خلاله حياة الناس البسطاء.

دستويفسكي فى رواياته هاجم بشدة الظلم الاجتماعي والمجتمع الذي تعج فيه بكثرة " المنافي والسجون والمحققون القضائيون والأشغال الشاقة"، وبالإضافة إلى هذه الموضوعات فقد انعكست فى الرواية نظرة الكاتب للجريمة كوسيلة من وسائل الاحتجاج ضد الظلم الاجتماعي، كما تجسد فيها تقييم الكاتب للدوافع المختلفة للجرائم والجذور الاجتماعية والنفسية لها .

وتنتهي الرواية بعبارة " إن الحياة لا توهب من جديد بغير مقابل، وإنما هي تتطلب ثمنا غاليا، ولا تكتسب بغير الصبر .. والألم .. والجهاد!".

وتروي " آنا غريغور ريفنا " زوجة الأديب الراحل دستويفسكي فى مذكراتها الكثير عنه، وتكشف جوانب خفية من حياته، وخفايا أحداث كثيرة عاصرتها معه.

وتقول " آنا " عن تعارفهما وزواجهما : التحقت بمعهد التربية لكني لم أكمل الدراسة فيه. وفي عام ١٨٦٦ دخلت دورة الاختزال بإصرار من والدي الذي ربما كان عرافاً يقرأ الغيب ويدري أني سألقى سعادتي بفضل هذه المهنة. فقد أبلغني أستاذي فى الدورة أن الكاتب دستويفسكي يبحث عن شخص يجيد الاختزال ليملي عليه روايته الجديدة " المقامر" بحوالي مائتي صفحة وبأجر قدره خمسون روبلا. ورشحني الأستاذ لهذه المهمة. خفق قلبي فرحا. كنت، شأن جميع فتيات الستينيات، أنشد الاستقلال وأبحث عن عمل يجعلني أعتمد على نفسي، لاسيما وأن تلك فرصة نادرة للتعرف على كاتب من أحب الكتاب إلى والدي، وأنا شخصيّاً معجبة به للغاية، وكنت أبكي عندما أقرأ روايته "مذكرات من بيت الأموات".

وتقول "آنا": تصورته شيخاً بعمر والدي، عبوسا كئيبا كما يتصوره الكثيرون، وجئت إلى الموعد المحدد. كان يقيم فى شقة متواضعة بعمارة ضخمة يسكنها تجار وباعة وحرفيون. وذكرتني فى الحال بالعمارة التي يقيم فيها راسكولنيكوف بطل "الجريمة والعقاب". مكتبه واسع بنافذتين مضيئتين أيام الصحو، لكن جوه فيما عدا ذلك حالك ساكن يثقل على النفس. وعندما رأيته لأول مرة خيل

إلى أنه عجوز بالفعل، ولكن ما إن تحدث معي حتى تضاءلت سنه وبدا لي فى الخامسة والثلاثين.

كان متوسط البنية معتدل القامة، شعره كستنائي فاتح أقرب إلى الأشقر، مدهون ومصفوف بأناقة. وجهه شاحب كوجوه المرضى. يرتدي سترة من الجوخ الأزرق تكاد تكون بالية، إلا أن قميصه ناصع البياض بياقة منشاة وردنين بارزين. ولكن ما أدهشني فيه هو عيناه، لاختلافهما الواضح. إحداهما بنية، وفي الأخرى بؤبؤ متسع يحتل فضاء العين ويأتي على معظم القزحية، مما يجعل نظراته لغزاً من الألغاز. فى نوبة مبكرة من الصرع سقط دستويفسكي وأدمى عينه اليمنى فوصف له الطبيب علاجا بالأتروبين أدى الإفراط فى استخدامه إلى توسع البؤبؤ لهذا الحد.

وفي أول لقاء عمل معه حدثني، وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة، عن حكم الإعدام الذي صدر بحقه مع جماعة بتراشيفسكي بتهمة التآمر على النظام فى عام ١٨٤٩و يصف ذلك لي قائلا :

كنت واقفاً فى الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي كان سينفذ بعد خمس دقائق. كلنا فى قمصان الموت موزعين على وجبات من ثلاثة محكومين. وكنت الثامن فى التعداد، ضمن الوجبة الثالثة. أوثقوا الثلاثة إلى الأعمدة. وبعد دقيقتين يطلق الرصاص على الوجبتين الأوليين ويأتي دوري...يا إلهي، ما أشد رغبتي فى الحياة . تذكرت كل ماضيَّ الذي أهدرته وأسات استخدامه، فرغبت فى الحياة من جديد وفي تحقيق الكثير مما كنت أنوي تحقيقه لأعيش عمراً طويلا... وفى اللحظة الأخيرة أعلن وقف التنفيذ. حلوا وثاق رفاقي وقرأوا حكماً جديداً على كل منا. وكانت من نصيبي هذه المرة الأشغال الشاقة أربع سنين. فما أعظم سعادتي. أمضيت باقي الأيام قبيل الرحيل إلى المنفى أغني وأترنم فى الثكنة تلك يوم. ما أنشد فرحتي بحياة وهبت إلى من جديد..

وتقول " آنا " اقشعر بدني من حديثه. وأدهشني بصراحته. فهذا الرجل الذي تبدو عليه مظاهر الانطوائية القاتمة يتحدث عن تفاصيل حياته بصدق وإخلاص

مع فتاة غريرة يراها لأول مرة. ولم تتبدد حيرتي من هذا التناقض إلا بعد أن اطلعت على أوضاعه العائلية وأدركت سبب بحثه عن أناس يضع ثقته فيهم ويفضي إليهم بما يعتمل فى نفسه. كان يشعر بوحدة قاتلة بعد وفاة زوجته الأولى ماريا وشقيقه الأكبر ميخائيل ويعيش محاصراً من قبل الخصوم والحساد والدائنين، كانت انطباعات اليوم الأول مرهقة للغاية. عدت إلى منزلي فى ساعة متأخرة من الليل وأنا فى أقصى درجات الإعياء بعد أن أملى عليَّ فيودور دستويفسكي أولى صفحات "المقامر". ولأول مرة فى حياتي أرى إنساناً ذكياً وطيب القلب إلى هذا الحد، لكنه تعيس بنفس القدر وكان الجميع أشاحوا بوجوههم عنه. فتألمت وشعرت بالإشفاق عليه.

وتواصل " آنا " : تأخرت عليه قليلا فى اليوم التالي. فوجدته قلقاً للغاية. قال لي إنه ملزم بإنهاء الرواية فى غضون شهر، فإن دائني مجلة " الوقت " التى كان يصدرها شقيقه ميخائيل وتعهد هو بتسديد ديونها بعد وفاته هددوه بمصادرة ممتلكاته وزجه فى السجن. كانت الديون المستحقة حسب الكمبيالات ثلاثة آلاف روبل. وبهذا المبلغ باع دستويفسكي إلى ناشر اسمه ستيلوفسكي حقوق طبع مؤلفاته بثلاثة مجلدات والتزم فضلا عن ذلك بتأليف رواية جديدة يدخل ريعها ضمن المبلغ المذكور. وكان ستيلوفسكي أقدم على خطوة غادرة، حيث اشترى قبل ذلك بأبخس الأثمان كمبيالات ديون ميخائيل. فعاد إليه المبلغ الذي دفعه إلى دستويفسكي. وها هو، فوق ذلك، يشترط تسليم الرواية الجديدة فى مدة غير معقولة، وإلا ستعود إليه، حسب العقد الموقع مع دستويفسكي، حقوق نشر مؤلفاته لأجل غير مسمى. وكان يأمل بالطبع أن يعجز الكاتب المريض عن الإيفاء بتعهده، لاسيما وأنه كان فى عام ١٨٦٦ ذاته على وشك إنهاء "الجريمة والعقاب".

وتمضي " آنا " فتقول : صرت أتردد عليه يومياً فى الثانية عشرة، فيملي على فصول "المقامر" حتى الرابعة، على ثلاث وجبات بنصف ساعة أو أكثر. وفيما بين ذلك نتحدث فى شتى الأمور. وبالتدريج تحسن مزاجه وتعود على الإملاء، فهو

يمارسه لأول مرة. وكان يسره بخاصة الرد إلى تساؤلاتي عن الأدباء الروس. فهو، مثلا، يعتبر نيكولاي نكراسوف صديق الطفولة ويقدر موهبته الشعرية كثيرا. كما يقدر أبولون مايكوف كشاعر موهوب وإنسان ذكى ومثال للطيبة. ويرى أن إيفان تورغينيف روائى من الدرجة الأولى، لكنه يأسف لأن هذا الأخير أمضى وقتا طويلا فى الخارج ولم يعد يتفهم طبيعة روسيا والروس كما ينبغي لكاتب كبير مثله - كانت العلاقة بين دوستويفسكي، وتورغينيف معقدة يغلب عليها الجفاء والقطيعة -.

و تضيف : على ذكر الخارج أبلغني ذات مرة، وكان فى حالة من اليأس والقنوط، أنه مقدم على اختيار أحد طرق ثلاثة، فإما الرحيل إلى القدس ليقيم مع الطائفة الأرثوذكسية الروسية هناك ربما لآخر العمر، وإما الهجرة إلى أوروبا ليغرق فى القمار الذي أولع به، وإما الزواج للمرة الثانية لعله يجد السعادة والفرحة فى أحضان العائلة. وكانت كفة القدس هى الراجحة من حيث جدية نوايا دستويفسكي، فقد عثرت بين أوراقه فيما بعد على رسالة مؤرخة فى ١٨٦٣/٦/٣ من رئيس اتحاد الأدباء الروس آنذاك إلى القنصل الروسي فى القسطنطينية لتسهيل أمر رحيله، وسألني رأيي فى هذا الخيار الذي كان سيغير مجرى حياته الفاشلة تغييراً جذريّاً. تحيرت فى الجواب. بدت لى نيته فى الرحيل إلى القدس العثمانية أو إلى كازينوهات أوروبا غامضة وخيالية ولعلمي بوجود عوائل سعيدة بين معارفي وأقربائي نصحته أن يبحث عن أمنيته المنشودة فى الأسرة. فعلق قائلا:

- وهل تتصورين بأن امرأة ستقبلني زوجاً ؟ وأية امرأة أختار؟ راجحة العقل أم طيبة القلب ؟

- راجحة العقل طبعاً، كي تناسبك.

- كلا، أفضل امرأة طيبة القلب تشفق على وتحبني.

و تقول " آنا " واصلنا العمل فى " المقامر" حتى غدا واضحاً فى آخر الأسبوع الثالث أننا سنتمكن من تسليم الرواية فى الموعد. وصرنا كلانا نشاطر أبطالها

حياتهم. فكان لى بينهم، كما لدستويفسكي، شخوص أحبهم وآخرون أنفر منهم. أشفقت على الجدة التى خسرت أموالها وعلى مستر استلي، لكنى امتعضت من بولينا ألكسندروفنا ومن البطل الرئيسي أليكسى ايفانوفيتش، فيما التزم دستويفسكى جانب هذا الأخير وأكد أنه شخصياً جرب الكثير من مشاعر البطل وانطباعاته.

أنجز دستويفسكى روايته فى ٢٦ يوماً وسلمها إلى الشرطة، مقابل إيصال، ليتفادى غدر الناشر الماكر. وقبضت أجرتي، لكن علاقتي بالكاتب لم تنقطع. فقد أبدى رغبة فى زيارة عائلتي. ودعوته إلى بيتي بعد أيام. أعجبت به أمي كل الإعجاب بعد أن كانت فى البداية متهيبة مرتبكة لزيارة الكاتب " الشهير " وهو، والحق يقال، جذاب للغاية يسحر، كما لاحظت فيما بعد، حتى خصومه الذين لا يرتاحون إليه عادة، عرض على أن نواصل العمل فى الجزء الأخير من "الجريمة والعقاب" هذه المرة. وكنت مترددة بعض الشيء، لكني وافقت عندما رأيته مُصِراً.

وتوضح " آنا " : بعد ثلاثة أيام زارنا من جديد دون سابق إنذار. وطلب أن آتى إليه لتدقيق شروط العمل. ولكنى حينما جئته، فى الثامن من تشرين الثاني ١٨٦٦، فوجئت به يصارحني بحبه ويرجوني أن أقبل به زوجاً... كان منفعلا ومبتهجاً حتى بدا لي فى سن الشباب. سألته عن سبب ابتهاجه فأجاب أنه رأى حلماً فى المنام. فقهقهت، لكنه أوقفني قائلا: "لا تسخري مني. أنا أؤمن بالأحلام. وأحلامي تتحقق دوماً. حينما أرى المرحوم شقيقي ميخائيل أو يحضرني طيف والدي فى المنام لا بد أن تحل بي مصيبة. لكنى هذه المرة رأيت جوهرة براقة بين مخطوطاتي فى هذا الصندوق، ثم توالت أحلام أخرى ولا أدري أين اختفت الجوهرة ". فقلت له: " الأحلام تفسر عادة بالمقلوب"، وأسفت لما قلت. فقد امتقع وجهه وسأل: " تعتقدين أنني لن ألقى السعادة وأن ذلك مجرد أمل واه؟ ". وأجبته: "والله لا أدري. ثم أننى لا أصدق الأحلام ". واختفى كل أثر للإبتهاج. ودهشت لسرعة تبدل مزاجه. ثم انتقل بالحديث إلى رواية يخطط لكتابتها، فتحسن حاله رأساً وأخبرني أنه لم يتوصل بعد إلى خاتمة جيدة. ففي الرواية فتاة، وهو غير مُلمٌ بارتعاشات نفوس الفتيات.

ورجانى أن أساعده. عرض على بالخطوط العامة حبكة الرواية، فأدركت أنه يقص عليَّ مشاهد من حياته تلقي الأضواء على طفولته القاسية وعلاقته بزوجته المتوفاة وأقربائه والملابسات الأليمة التى شغلت الفنان عن عمله المحبب عدة سنين. وكان المفروض أن تنتهى الرواية بعودة الفنان إلى الحياة من خلال حب يشفيه وينقذه من وحدته وشيخوخته المبكرة. ولم يخطر ببالي ساعتها أنني كنت المقصودة ببطلة الرواية المزعومة. لكنه باغتني مرتبكا:

- ما رأيك؟ هل تستطيع فتاة شابة أن تحب فنانا عجوزاً مريضاً مثقلا بالديون؟.. لنفترض أن الفنان هو أنا، البطلة أنتِ، فما رأيك؟

- لو كان الأمر كذلك فعلا لأجبتك: أحبك وسأظل على حبي مدى العمر. وبعد ساعة أخذ فيودور دستويفسكي يخطط لمستقبلنا ويسألني رأيي فى التفاصيل. وكنت عاجزة عن الخوض فيها من فرط السعادة. اتفقنا على كتمان سر الخطبة مؤقتا إلى أن تنجلى الملابسات.

وعندما ودعني هتف مبتهجاً: وجدت الجوهرة أخيراً.

وأجبته: عسى ألا تكون حجراً.

أظن أن أمي فرحت لنبأ خطبتي. فهي تدرك بالطبع أني سأعاني الكثير فيما لو تزوجت من رجل مصاب بداء عضال ويفتقر إلى المال. لكنها لم تعمد إلى إقناعي بالعدول عن الزواج، كما فعل آخرون بعدها. وللحقيقة أقول أن دستويفسكي أبدى طوال ١٤ عاماً من حياتنا الزوجية منتهى الطيبة فى معاملة والدتي، وبعد أسبوع افتضح سر الخطبة على غير المتوقع. أفضى به دستويفسكي نفسه إلى حوذيه فى لحظة ابتهاج. فأبلغ هذا الأخير خادمة نقلت الخبر فى الحال إلى بافل، ابن دستويفسكى المتبنىء. غضب هذا على " أبيه العجوز"، فكيف يجوز له أن يبدأ الحياة من جديد دون أن يستشير " ابنه "؟. وانسحب غضب الفتى على طبعاً،

إلا أن موقفه مني غدا أكثر ليونة بمرور الزمن. رغبت فى معرفة كل شىء عن دستويفسكي. وما كانت أسئلتي المتلاحقة لتضايقه. حدثنى عن حبه لأمه وأخيه المتوفَّى ميخائيل وأخته الكبرى فاريا، لكنه لم يبد حماساً فى الكلام عن اخوته وأخواته الأصغر. واستغربت من غياب كل ما يشير إلى غرامه بامرأة ما فى شبابه. وأعتقد أن السبب هو تفرغه المبكر للكتابة. فالنشاط الثقافي أزاح حياته الشخصية إلى المرتبة الثانية، ثم أنه تورط فى عمل سياسي دفع ثمنه غالياً وصرفه عن الاهتمام بأموره الخاصة، لم يكن يميل إلى تذكر زوجته المتوفاة، لكنه يذكر خطيبته الأولى آنا كورفين بكل خير، ويأسف على فسخ خطبتهما لاختلاف الطباع والأراء كما يقول. وظل حتى النهاية يحتفظ بعلاقات طيبة معها. وتعرفت عليها أنا أيضاً بعد ست سنوات من زواجي فربطت بيننا أواصر صداقة .

سألته مرة: لمَ لَمْ تتقدم إليَّ بخطبة عادية كما يفعل الجميع، وجئت بمقدمات طويلة عريضة بشَكل " رواية " مختلقة؟ وأجاب:

- الحقيقة كنت يائساً، وكنت أعتبر الزواج منك تهوراً وجنوناً. فالتفاوت بيننا رهيب. أنا شيخ عجوز تقريباً وأنتِ فى عمر الطفولة وفارق السن بيننا ربع قرن. أنا مريض كئيب سريع الانفعال، وأَنت مفعمة بالحيوية والمرح. أنا إنسان مستهلك أكلت عمري وتجرعت المصائب والأهوال. وأنتِ تعيشين حياة هانئة والمستقبل كله أمامك. ثم إني فقير ومكبل بالديون. فماذا أنتظر؟

- إنك تبالغ يا عزيزي. فالتفاوت بيننا ليس فيما تقول. التفاوت الحقيقي أنك اخترت فتاة متخلفة لن تقترب شبراً من مستواك الثقافي فى يوم من الأيام.

- كنت متردداً متهيباً فى الخطبة. أخشى ما أخشاه أن أغدو مثاراً للسخرية فيما لو رفضتِ. فكيف يحق لرجل كهل قبيح مثلي أن يطلب يد فتاة شابة مثلك؟ كنت أتوقع أن تَردي على بأنك تحبين شخصاً آخر. ولو جاء جوابك على هذا النحو لكان ضربة قاسية لي، فأنا أعاني من وحدة نفسانية خانقة وكنت أريد أن أحتفظ

بصداقتك على الأقل. ولذا أردت أن أستطلع رأيك فى البداية، من خلال مخطط رواية وهمية. كان أسهل على عندئذ أن أتحمل رفضك. إذ سيكون موجها ضد بطل الرواية وليس ضدي شخصياً. وعلى أية حال أرى أن تلك الرواية المختلقة أفضل رواياتي على الإطلاق. فقد عادت على بالثمار رأساً.

تلقى دستويفسكي رسالة من مجلة " البشير الروسي" الصادرة فى موسكو تطالبه بالجزء الثالث من " الجريمة والعقاب". وكنا نسينا هذه الرواية فيما نحن فيه من أفراح. فعاد دستويفسكي يملى على بقية الرواية بهمة ونشاط. تحسن مزاجه، فتحسنت صحته، حتى إن الشهور الثلاثة التى سبقت زفافنا لم تشهد سوى ثلاث أو أربع نوبات من الصرع، مما جعلنى آملة بأن هذا الداء اللعين سيخف فيما لو توافرت لزوجي حياة هادئة سعيدة. وهذا ما حدث بالفعل. فالنوبات التى كانت تنتابه كل أسبوع تقريباً لم تعد تتكرر فى السنوات التالية إلا لماماً. ولم يكن الشفاء من هذا المرض بالأمر الممكن، لا سيما وأن دستويفسكي تهاون فى العلاج، بل وأهمله لاقتناعه بعدم جدواه. إلا أن تقلص النوبات كان بالنسبة إلينا هبة عظيمة خلصته من الرواسب النفسانية الثقيلة بعد كل نوبة، وخلصتني من الدموع والآلام التي تكويني عندما يقع فريسة للصرع بحضوري. كانت نياط قلبى تتمزق وأنا أسمعه يزعق بصوت لا يشبه أصوات البشر ثم أراه يتلوى ويخر على الأرض متشنجاً. وعندما ألفيته لأول مرة يتضور ألماً ويصرخ ويئن ساعات بلسان متلعثم ووجه ملتو وعينين جامدتين ظننته مجنوناً مختل العقل. لكنه، والحمد لله، كان يغفو طويلا ويستيقظ بعد ذلك سوياً كالآخرين، لولا الكآبة التي تظل تلازمه أكثر من أسبوع وكأنه فقد أعز ما لديه فى الدنيا على حد تعبيره.

وتتذكر " آنا " : جاءني ذات يوم، فى عز الشتاء، يرتجف من البرد بمعطف خريفي، فأسرعت إليه بالشاي الساخن وسألته مستغربة: أين معطف الفرو؟ فأجابني متردداً : قيل لي أن الجو دافئ. ثم أضاف موضحاً أن أقرب أقربائه، "ابنه" بافل وأخاه الأصغر نيكولاي وكذلك إميليا زوجة أخيه ميخائيل، طلبوا منه

نقوداً لحاجة ماسة وعاجلة. فاضطر أن يرهن معطفه الفرائي. ثارت ثائرتي ورحت أبكي وأزعق: كيف يقول أقرباؤك القساة أن الجو دافئ فهو لا يتناول قهوة الصباح بدون قشدة.. قبيل الظهر يأكل بافل طيراً مشوياً، فتقدم لنا الخادمة على الغداء الطيرين المتبقيين فلا يكفياننا نحن الثلاثة.. يختفي الثقاب أحيانا مع أن علباً كثيرة منه كانت فى البيت أمس. وكذا يحدث لأقلام الرصاص المبرية. وتثور ثائرة دستويفسكي عندما يريد التدخين فيصرخ فى وجه فيدوسيا. ويهز بافل كتفيه: "انظر يا بابا، لم تحدث أشياء كهذه عندما كنا لوحدنا" ..والخادمة المسكينة تخشى غضب دستويفسكي حتى الموت، والأصح أنها تخشى أن تصيبه نوبة مفزعة بسبب ذلك، كما حدث له مراراً بحضورها، كانت متزوجة من موظف سكير توفي وتركها وأطفالها الثلاثة فى فقر مدقع. بلغ خبرها مسامع دستويفسكي فأخذها خادمة مع صغارها. وحدثتني، والدموع تترقرق فى عينيها، عن طيبته البالغة وكيف كان يدخل على الأطفال ليلا عندما يسمع سعالا أو بكاء فيغطي الواحد منهم ويهدهده، وإذا لم يفلح فى ذلك يوقظها لتسهر على المريض.

و فى الأسبوع الخامس بعد عقد القران بدا شهر العسل فعلا. فالمتاعب والإهانات التي تعرضت لها خلال هذه الفترة من أقارب دستويفسكي حطمت أعصابي لدرجة جعلتني أفكر فى الطلاق. صارحت زوجي بتلك المتاعب، وما كان يعرف بالإهانات من جانب " ابنه " خصوصاً، فلامني على سكوتي وبدد شكوكي ومخاوفي. وشد العزم على السفر غداً إلى موسكو ومن ثم، ربما، إلى الخارج، إذا تمكن من إقناع السيد كاتكوف، رئيس تحرير " البشير"، أن يمنحه سلفة جديدة، استقبلتني فيرا، شقيقة زوجي، فى موسكو خير استقبال. إلا أن أبناءها السبعة عاملوني ببرود. أدهشني موقفهم وأحزنني، حتى علمت سره فيما بعد. كانوا يحبون عمتهم إيلينا المتزوجة من رجل شارف الموت ويريدون لها بعد وفاته أن تتزوج من خالهم فيودور دستويفسكي، ليقيم فى موسكو دائماً، فهم يحبونه هو الآخر حباً جماً، ولكي أخفف من الموقف العدائي الذي قوبلت به فى بيت عديلتي أبديت متعمدة بعض الاهتمام

بشاب من زوار البيت لأعيد الاعتبار لنفسي. لكن دستويفسكي لم يفهمني. وتأكد لي أنه يغار على كثيراً، فرأيت ألا أتمادى فى الكلام والمرح مع أي غريب بحضوره. فالغيرة تؤذيه، إذ خرج عن طوره ساعتها وانهال على بتقريع شديد حينما عدنا إلى الفندق الذي نزلنا فيه. وفيما بعد تكررت " نوبات " الغيرة حتى فى الخارج. ولم أفلح فى اجتثات هذه الصفة الذميمة فى طباع دستويفسكي إلا بالتواضع فى المظهر والملبس والتحفظ الشديد بحضور الرجال، حتى إن رفيقاتي أكدن لي عندما عدنا إلى الوطن أنني "شخت" سريعا فى الغربة. ولم يكن ذلك ليسؤونى، فزوجي يحبني على ما أنا عليه.

وتواصل " آنا " ذكرياتها مع دستوفسكي فتقول : أمضينا فى موسكو أياما لا تنسى. كنا كل صباح نتفرج على أبرز معالمها ونتفقد كنائس الكرملين وقصوره. وزرنا قبر والدة زوجى (ماريا) التي كان يقدس ذكراها - ولد فيودور دوستويفسكى فى موسكو فى الثلاثين من تشرين الأول ١٨٢١ -. وكنا نتناول طعام الغداء كل يوم تقريبا فى منزل عديلتي. تحسنت علاقتي مع أبنائها وصرت ألازم زوجي طول الوقت حتى تبدد الشعور بالغربة والنفور الذي كاد يستولي على تجاهه فى الأسابيع الأخيرة من حياتنا فى بطرسبورغ. وعاد إلى مرحي وحبوري. وأكد لي دستويفسكي أنه استعاد هنا فى موسكو، " زوجته آنا " بعد أن كاد يفقدها مؤخراً فى بطرسبورغ وأن "شهر العسل" الحقيقي قد بدأ بالنسبة إليه.

وتقول : عدنا من موسكو إلى بطرسبورغ بعد أن وافقت مجلة "البشير" على منح دستويفسكي سلفة جديدة بألف روبل. أعلن زوجي عن نيتنا فى السفر إلى الخارج. فواجه جميع أقربائه هذا النبأ بالاستنكار. وطالبوه أن يترك لهم، فيما لو سافرنا بالفعل، نقوداً تكفي لعدة شهور. ويعنى ذلك بالطبع إلغاء الرحلة أصلا. كنا نأمل أن يرتاح دستويفسكي فى الخارج شهراً ليشرع فى كتابة بحثه المطول عن الناقد "بيلينسكي ". لكن إميليا زوجة أخيه أصرت أن يترك لها ولأولادها خمسمائة روبل. ولا بد من اعتماد مائتي روبل لإعالة " ابنه" بافل فى فترة غيابنا. لم يفلح

دستويفسكي فى إقناع إميليا بتأجيل الدفع، وما كان بوسعه أن يمتنع عن مساعدة عائلة أخيه المتوفَّى. فاستقر رأيه، آسفاً، على تأجيل السفر. ورأيت أن أنقذ الموقف بالتضحية بجهاز العرس، رغم فظاعة هذه الخطوة. لم تعترض أمي على قراري وقالت: "يؤسفني أن تجري الأمور بهذه الصورة، لكنكما إن لم توثقا أواصر الزواج الآن لن تحافظا عليه أبداً ". وكان على أن أقنع زوجي بضرورة رهن الأثاث والحلي. وعندما فاتحته بالموضوع، بعد أن صلينا معا فى كنيسة المعراج، رفض رفضاً باتاً. رجوته أن ينفذ حبنا ويمنحني شهرين أو ثلاثة من حياة هادئة سعيدة، وإلا سيفسد كل شيء. وانهمرت دموعي فأسقط فى يده ووافق على السفر مكرهاً، وكانت ثمة إشكالات بخصوص جواز السفر، إذ أن دستويفسكي محكوم سياسي تحت رقابة الشرطة ولا بد له من الحصول على ترخيص من الحاكم العسكري إضافة إلى الإجراءات الرسمية المعتادة. وساعده فى ذلك موظف من المعجبين بأدبه. وارتحلنا لنقضي فى الخارج ثلاثة شهور، لكننا لم نعد إلى روسيا إلا بعد أربع سنين!

وتسترسل " آنا " قائلة : أمضينا فى برلين يومين فى جو مطير غائم، ثم ارتحلنا إلى درسدن. قررنا أن نبقى فيها أكثر من شهر حتى يتمكن دستويفسكي من إنجاز بحثه المعقد فى النقد الأدبي. كان يحب درسدن أساساً بسبب معرضها الشهير وحدائقها الزاهرة. وكان يقف الساعات الطوال متاثرا منفعلاً أمام عذراء السيستين التي يعتبرها أسمى مظهر لعبقرية الإنسان. " ورد ذكر عذراء رافائيل، على سبيل المقارنة والتشبيه، فى العديد من مؤلفات دوستويفسكي، وبخاصة الجريمة والعقاب". وفيما بعد، فى فلورنسا، أعجب بلوحة رافائيل "يوحنا المعمدان فى الصحراء "، وفى بازل كانت له وقفة طويلة مؤثرة أمام لوحة هانز هولبن "يسوع ميتاً " التي تركت فى نفسه شعوراً بالانسحاق الفظيع انعكس فى رواية "الأبله". وكان يقيم وزناً للوحات تيتسيان وموريليو ورمبرانت وفان دايك بخاصة.

في درسدن انكب دستويفسكي على قراءة ألكسندر هيرتسن أحد أعمق المفكرين الروس الذين كان لهم تأثير كبير فى أدبه. وفى أوقات الفراغ يطلق العنان لبعض

عاداته المحببة. فكان يتناول يومياً سمكا مقلياً طازجاً فى مطعم مطل على نهر إلبا، ويتمشى فى حديقة غروسين غاردن والمسافة إليها من الفندق لا تقل عن سبعة كيلو مرات ذهاباً وإياباً. ولم يكن يتخلى عن هذه الجولة حتى فى الجو الممطر. فى تلك الحديقة مطعم تعزف جوقته أصنافاً من الموسيقى. ولم يكن دستويفسكي على إلمام كبير فى فنونها، لكنه يتمتع بموسيقى موزارت وبتهوفن وروسينى ولا يحب ريتشارد فاغنر " ربما لأن دستويفسكي تربى على تقاليد الموسيقى الروسية الكلاسيكية وعلى رومانسية غلينكا" .

و تقول : كنا فى الأمسيات نتجادل فى مواضيع شتى. وفي الجدال تطفو خلافاتنا الفكرية، حول "المسألة النسوية " خصوصاً. فقد كنت، من حيث السن والميول، من جيل الستينات الذي تميزت نساؤه بالنزعة التحررية والرفض العدمي. وكان فيودور دستويفسكي لا يحب الروافض ويشمئز من " رجولتهن" وخشونتهن وعدم اكتراثهن بمظاهر الأنوثة. وكان يؤلمني فى نقاشات زوجي معي أنه ينكر على نساء جيلي صلابة العود والمثابرة فى بلوغ الهدف المنشود، لكن موقفه من المرأة تبدل تماماً فى السبعينيات عندما ظهرت على المسرح نساء مثقفات وذكيات فعلا ينظرن إلى الحياة بمنظار حاد. وفي تلك الفترة أكد فى مجلته "يوميات كاتب " أنه يعلق آمالا عراضًا على المرأة الروسية التي "أخذت تبدي المزيد من المواظبة والجدية والصدق والعفة والتضحية والبحث عن الحقيقة"، على حد تعبيره.

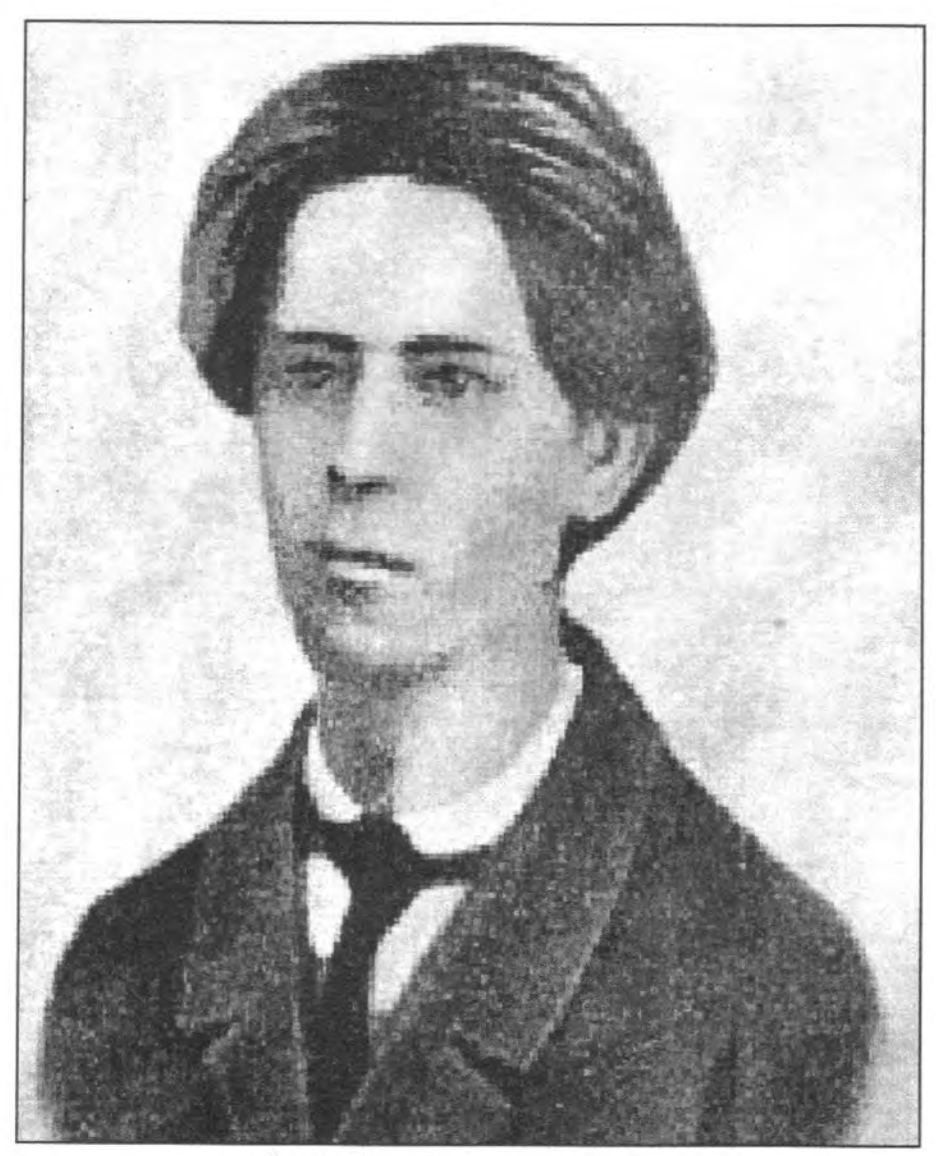
وتقول " آنا " : أشيع فى درسدن أن إمبراطور روسيا تعرض لمحاولة اغتيال أثناء زيارته للمعرض الدولي فى باريس وأن إرهابياً من أصل بولوني أصابه بعيارات نارية. كان لهذا النبأ وقع الصاعقة فى نفس دستويفسكي. فهو من المعجبين بالقيصر ألكسندر الثاني الذي ألغى القنانة وحرر الفلاحين منها وأقدم على الإصلاح. ثم أن دستويفسكي من المتحمسين للنظام الملكي عموما ويدعو إلى اتحاد الشعب مع " القيصر المحرر" المتنور. زد على ذلك أنه مدين للإمبراطور الحالي باسترجاع حقوقه المدنية كنبيل أباً عن جد، وقد سمع له القيصر، بمناسبة

اعتلائه العرش، بالعودة إلى بطرسبورغ بعد الإقامة الجبرية فى سيبيريا، أسرعنا حالا إلى قنصليتنا فى درسدن لتسجيل حضور ولاستنكار هذه الفعلة الشنيعة. اختطف لون دستويفسكي وكان فى اضطراب نفساني شديد، حتى إنه مضى إلى القنصلية راكضاً تقريبا. وكنت أخشى عليه من نوبة صرع جديدة. وقد أصابته فعلا فى تلك الليلة. ومن حسن الحظ أن محاولة الاغتيال كانت فاشلة. إلا أن زوجي ظل حزينا متألما للغاية. فتلك هى المحاولة الثانية لاغتيال القيصر الذي يحترمه ويعزه، مما يدل على أن شباك التآمر عليه ضربت جذورها عميقاً.

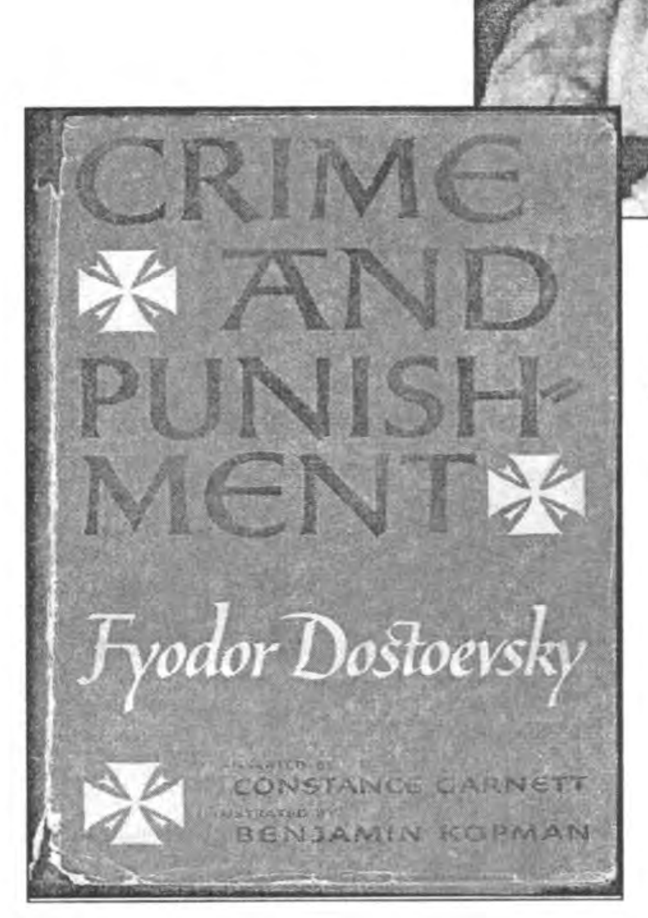
هذا هو دستوفسكي الذي قال عنه فرويد : « لقد تعلمت سلوك النفس البشرية من روايات ديستوفسكي »، وهو روائي عظيم حقاً، كتب مجموعة من الروايات تدور تقريباً جميعها عن السلوك الإنساني وتحليل السلوك البشري بطريقة فنية، أدبية رائعة، ولازالت تحظى برواج كبير بين القراء وبين الذين يدرسون السلوك البشري.

وهذا هو دستوفسكي الذي قال هو : " نحن فى هرولة الحياة الاجتماعية نتعب ونلهث لأجل الثراء أو الوجاهة أو ننساق فى أنانية بشعة لا نبالى بمصالح الغير ولا نرحم من ندوسه فى سبيل الاقتناء أو التغلب ".

ويقول : " إننا نحن بنو البشر كيان واحد قد تعددت أجزاؤه وانفصلت، ولكن انفصالها لم يمنع بينها التراحم والحب والحنان، فكلنا عندئذ بعد تأمل الموت أب وأم وأخ لأبناء البشر جميعا ".



دستوفسكي فى سنوات شبابه " عذابه " !



دستوفسكي خلدته رواياته
وخاصة رائعته
" الجريمة والعقاب " .

ميخائيل كلاشينكوف

من رحم المأساة تُولَد العبقرية !!



لم يخفت صوته يوما.. على مدى أكثر من ستين عامًا وهو سيد المعارك.. صدى طلقاته يتردد في كل أنحاء العالم. لم تستطع دولة أن تحتكره لنفسها، لم يخضع لفئة معينة. بل يلبي نداء الجميع، الجندي النظامي، والثوري، والإرهابي. هو العدو والصديق، سلاح الحق والباطل.. هو "الكلاشينكوف" أو البندقية الـ "AK-٤٧".

هو رفيق الجنود ومعينهم فى أحلك الظروف. وهو الملتصق دائما بأذرع الثوار، ورمز المنتصر والمقاومة، والدفاع المشروع عن الأرض فى الوقت نفسه.

كم طالب المثقفون باستبدال حواره: حوار الكلاشينكوف. واستبدال حوار العقل والمنطق به، وباسمه أسموا تيارات وجماعات، ومن اسمه خرجت مصطلحات، وكان الاسم نفسه عنوانا للعديد من القضايا.

عشرات الملايين راحوا ضحايا له، غير أن أفضاله العديدة لا ينكرها إلا جاحد؛ فإليه يرجع الفضل فى انتهاء عصر الاستعمار، صحيح أن الأسباب كانت عديدة، لكن قطعا كان أهمها توافر الكلاشينكوف فى أيدي من يدافعون عن أوطانهم، ويحاربون لطرد المستعمرين منها؛ إذ كان ذلك يعني إمكانية إيقاع خسائر بشرية كبيرة بالمستعمر، وهو الأمر الذي لم يكن مقبولا لدى الرأي العام فى الدول الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت الحرب الفيتنامية هي التعبير الأمثل عن توازنات عصر التحرر الوطني.

الكلاشينكوف كان أيضا هو الصديق الوفي لهؤلاء الذين لهم حق الكفاح المسلح، ولا يملكون جيشا وغير مسموح لهم بالتسليح، وهو الحال الذي كانت عليه حركات التحرر الوطني التي سادت العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

الكلاشينكوف رمز الحرية والنضال والكفاح ضد الدكتاتوريات والأنظمة الشمولية التي تقهر الشعوب .. إنه سلاح المقاومة فى كل زمان ومكان لإجبار الأنظمة الرجعية ذات القبضة الحديدية وانتزاع حقوق الشعوب منها بالقوة .

و قصة الكلاشينكوف ليست قصة سلاح فقط، وإنما هى قصة مخترعه العبقري الذي صنعته المأساة، وأنتجته الكارثة .

ولد عام ١٩١٩ فى أسرة من الفلاحين ليكون الطفل رقم ١٨ لوالدته وأحد الثمانية الذين بقوا منهم على قيد الحياة. أما أسرته فقد عاشت القمع الستاليني بكل تفاصيله؛ فقبل أن يبلغ الحادية عشرة تم تهجيره إلى سيبيريا مع أسرته باعتبارها من أعداء الشعب، لكنه قرر الهرب، فعاد إلى قريته ماشيًا على قدميه لأكثر من ١٠٠٠ كيلومتر؛ ليظل الخوف يلازمه من أن يكتشف أحدهم ماضيه كهارب من سيبيريا، وليظل حريصا باستمرار على أن تبقى هذه الفترة مجهولة من سيرة حياته، حتى إن أقرب المقربين منه، مثل أولاده وأحفاده، لم يعرفوا شيئا عنها قبل وصول ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة فى الاتحاد السوفييتي الذي كان..

عاد "ميشا" إلى قريته لينضم إلى الشبيبة الشيوعية "الكومسمول" التي مكنته من الحصول على وظيفة سكرتير فني ليمضي عامين لا يفعل شيئا خلالهما غير الرد على التليفون وملء الأوراق.

انضم ميشا إلى صفوف الجيش ليصبح عام ١٩٣٨ فنيا لدبابة، وهو المكان الذي أظهر فيه مهاراته، كما لاحت بوادر تميزه فى تصنيع الأسلحة؛ فسرعان ما اخترع (ولم يكن تجاوز العشرين) بعض تجهيزات للدبابة، لاقت إعجاب الجنرال جوكوف أحد أشهر الضباط فى التاريخ السوفييتي.

وجيورجي جوكوف تولى قيادة الجيوش فى منطقة كييف عام ١٩٤٠، وكان يشجع الجنود على سلوك طريق الاختراع، وذات مرة جرى تنظيم مسابقة لتصميم جهاز يحسب عدد القذائف التي تطلقها الدبابات، ولما كان ميشا بين المشاركين فقد وصل إلى التصفيات النهائية، وكانت جائزته الحصول على لقب "أديسون المحلي" الذي كان زملاؤه يتندرون به عليه وإن بدءوا ينظرون إليه بعين مختلفة وهم يرون صحيفة "الجيش" تعلن الاعتراف رسميا بمواهبه كمخترع، وقرأوا وصف الخبراء للاختراع بأنه سهل الاستخدام ومضمون النتيجة.

وجاءت الحرب العالمية الثانية ليشارك ميشا فى معركة بريانسك ضد الألمان؛ فكانت إصابته بعد ٧ أيام من القتال خلف الخطوط الألمانية، وبهذا الشكل انتهى به الحال فى أحد المستشفيات.

وكان كلاشينكوف أو "ميشا " - كما هو اسمه المختصر- قد عثر بالمصادفة على مسدس ألماني صدِىء خلفته الحرب العالمية وراءها، فأمضى أياما طويلة وهو يحاول إصلاحه، وعلى إثر وشاية تم اعتقاله والتحقيق معه لمدة ثلاثة أيام من أجل إعادة المسدس، لكنه نفى كل شيء، ثم لم يتردد عند إطلاق سراحه فى مغادرة قريته إلى كازاخستان حيث بدأ حياته المهنية كعامل فني، قبل التحاقه بالجيش وإصابته .

في هذا الوقت كان سيد الأسلحة هو المسدس الرشاش الذي اخترعه "سودابيف" قد دخل فى الخدمة العسكرية الروسية عام ١٩٤٢، وأثبت أنه الأفضل فى الحرب العالمية الثانية، فلم يكن لدى أي جيش أجنبي سلاح يعادل بساطته وفاعليته.

سودابيف كان قد صمم هذه البندقية فى مدينة لينينجراد عندما كانت الجيوش الألمانية تحاصرها، وكان هو نفسه أول من استخدمها، غير أن المجموعة الأولى من بنادق سودابيف كانت تعاني من نقطة ضعف تمثلت فى ثقل وزنها. وكان هذا العيب سر ظهور كلاشينكوف.

وعودة إلى المستشفى، هناك وعلى الرغم من الآلام التي كان يعاني منها بسبب جروحه، كانت الفكرة الوحيدة التي تسيطر على ذهنه هي كيف يخترع سلاحا يمكن الروس من قهر الفاشيين، ولم تمض ٥ سنوات من الجهد حتى توصل كلاشينكوف إلى تصميم بندقيته (AK-٤٧) التي حملت اسمه، والتي فاقت شهرتها كل أسلحة العالم.

كان العريف ميشا وهو جريح فى المستشفى يحلم ليلا بتصميم سلاح يتفوق على بندقية "ديجتياريف"، وفي النهار كان يبذل كل جهده ليرسم على الورق ما حلم به، لقد أصبح مريضا به فكان يعيد الرسم مئات المرات فى اليوم، وكان واضحا نقص معارفه؛ فهو لم يكن قد تلقى تعليما مدرسيا لأكثر من سبع سنوات.

أدرك ميشا ذلك فقرر أن يتغلب على آلامه، ويتردد يوميا على مكتبة المستشفى، وفيها وجد بعض الكتب التي كان لها تأثير كبير فى حياته، بينها كتاب "فلاديمير فيدوروف" عن تطور الأسلحة النارية.

هناك أيضا من كان يساعده، كان هناك ضابط جريح يعمل قبل الحرب باحثا فى مركز علمي حول آليات عمل الأسلحة الآلية، ومنه تعلم ميشا الكثير، أبسطه أنه شرح له ماذا تعني كلمة "آلي" باللغة اليونانية، وكيف أنها تدل على "ما يعمل ذاتيا"، أما فى الأسلحة فإنها تعني القدرة على الإطلاق دون توقف بمجرد الضغط على الزناد.

هكذا درس كل الأسلحة الآلية والأوتوماتيكية المعروفة وقتئذ، غير أن جراحه كانت تلتئم ببطء وذراعيه لم تكونا تساعدانه على القيام ببعض التجارب العملية.

وحدث فى عام ١٩٤٥ أن تم الإعلان عن مسابقة من أجل اختراع بندقية جديدة لاستخدامها مع ذخائر خاصة تكون أكبر من طلقات المسدس وأصغر من البندقية العادية وقتها. كانت المسابقة سرية وكل مشترك يحمل اسما مستعارا، واشترك بها

كبار مصنعي الأسلحة وقتها ومنهم "سوداييف"، مخترع بندقية تحمل اسمه، والتي كانت متسيدة للمعارك وقتها، وكذلك الجنرال "ديجتياريف".

تردد ميشا كثيرا، خاصة أن المسابقة سيشارك فيها كل مصممي الأسلحة الكبار فى الاتحاد السوفييتي، لكنه حسم أمره واتخذ قراره وقرر أن يشارك؛ فكان يعمل لأكثر من عشرين ساعة يوميا، استفاد خلالها من نماذج البنادق السابقة، وبعد أسابيع من العمل الدؤوب بدأت ملامح السلاح الذي يصممه كلاشينكوف تتضح، وعندما انتهى التصميم وتمت الحسابات المطلوبة جاء وقت الاسم المستعار، فاختار "ميختيم" أول ثلاثة حروف من ميخائيل وأول ثلاثة من اسم والده تيموفتش، وتحت هذا الاسم تم إرسال الملف للمسابقة.

وحدث ما لم يكن يتوقعه، وتلقى إخطارا رسميًّا بأن المشروع الذي يحمل توقيع "ميختيم" تم قبوله فى المسابقة؛ بما يعني أن عليه صناعة النموذج بالمعدن لاستكمال المنافسة مع تصميمات المتنافسين الباقين.

وأثناء المرحلة التالية للمسابقة -تحديدا عام ١٩٤٦- توفي "سوداييف" الذي كان أقوى المرشحين وأوفرهم حظا، ونموذجه الذي قدمه تطوير لسلاح تم تجريبه فى الجيش.

فيما كانت المنافسة مشتدة طرأت لميشا أفكار جديدة غيرت تماما البنية العامة للسلاح، لكن قواعد المسابقة كانت تمنع تجديد التصميم نفسه؛ فكان أن أظهر بأنه يعمل فقط على مجرد تحسين تصميمه، رغم أن التغييرات التي كان يريدها لم يكن منصوصا عليها فى قواعد المسابقة، وإن كانت تؤدي إلى تبسيط بنية السلاح وزيادة فاعليته فى الظروف الصعبة، كانت التغييرات باختصار تمثل قفزة حقيقية فى تاريخ تصنيع الأسلحة الآلية.

هكذا جازف "ميشا" وأنجز نموذجه على نحو لا يجعله مطابقا لمطالب اللجنة، لكنه راهن على أنها لن تلاحظ التعديل بمجرد النظر، واضعا أمله على أن سلاحه قادر على إثبات تفوقه.

لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، واكتشف الجنرال ديجتياريف منافس ميشا الأمر قبل المرحلة الأخيرة من التجارب حين حضر فريق لاختبار النموذجين، واقترح أن يكشف كل واحد للآخر عن نموذجه، وكانت المفاجأة أن الجنرال ديجتياريف نفسه (الذي كان يزين صدره بوسام النجم الأحمر لبطل العمل الاشتراكي) قال بصوت عال سمعه الجميع: "إن تصميم قطع نموذج الرقيب كلاشينكوف أكثر جودة من تصميمي، وله مستقبل أفضل، وأمامكمَ أعلن أنني لن أشارك فى المرحلة النهائية للمسابقة".

وفي اختبار دقة الرمي اكتشفت اللجنة التعديلات، وعرفت أن ميشا خرق قواعد المسابقة، لكنها لم تستطع أن تنفي أن النتائج التي حققها كانت هي الأفضل من حيث دقة الرمي؛ فاكتفت بتوجيه إنذار طلبت فيه ألا يكرر ذلك مرة أخرى!!

وبحلول يناير ١٩٤٨ عقدت اللجنة التقنية العملية المختصة بالتسليح اجتماعا فى موقع بوليجون (قرب موسكو)، لم يختلف خلاله أي عضو على أن بندقية كلاشينكوف تستجيب أفضل من غيرها لجميع المعايير المطلوبة، وهو ما أثبتت الأيام صحته على مدى أكثر من نصف قرن من استخدام هذا السلاح الذي لا تزال قطعه المصنوعة فى خمسينيات القرن الماضي صالحة للاستعمال.

ولم يبق أمام ميشا فى اليوم التالي لقرار اللجنة غير أن يتوجه إلى بلدة جيفسك تنفيذا للأوامر التي أصدرتها القيادة، من أجل إنتاج المجموعة الأولى من البندقية التي اخترعها، وكان هو اليوم الذي ظهرت فيه إلى النور بندقية الكلاشينكوف، كان هو يوم الميلاد، ولم يبق بعد ذلك غير اعتماد شهادة الميلاد، ولما كان على المخترع نفسه أن يذهب بعد شهرين بناء على استدعاء من الإدارة العامة للمدفعية فى موسكو؛ فقد ذهب ميشا ليرافق المارشال فورنوف قائد المدفعية إلى ميدان الرماية، حيث أراد أن يجرب السلاح بنفسه.

وبعد أن جربه قدم ميشا للجنود بقوله: "سأقدم لكم الرقيب كلاشينكوف، لا بل المخترع كلاشينكوف، لقد جاء ليعرف آراءكم وتعليقاتكم على بندقيته الجديدة".

ودعاه المارشال فورنوف ليقدمه إلى ١٠ من كبار الضباط، وبعد ذلك الاجتماع سأله المارشال عما إذا كان يريد البقاء فى صفوف الجيش أم أنه يفضل الحياة المدنية، فأكد ميشا أنه يفضل الحياة المدنية.

كان طبيعيا أن يغضب المارشال، لكنه وافق، وكان مدهشا للجميع أن يطلب من ميشا أن يترك له صورته الشخصية مع توقيعه عليها!! وبعد فترة قليلة عاد ميخائيل كلاشينكوف إلى مدينة جيتسك للإشراف على تصنيع بندقيته التي كان الجيش قد تبناها، وكان أول من يصل إلى المصنع وآخر من يغادره.

وفي مطلع الخمسينيات واجه كلاشينكوف مشكلة لم تكن بسيطة؛ إذ حدد ستالين هدفا جديدا لصانعي الأسلحة فى روسيا، وهو أن يوحدوا جميع الأسلحة النارية؛ حيث كان الجيش الأحمر السوفييتي مزودا آنذاك بثلاثة نماذج من تلك الأسلحة: الكلاشينكوف والديجثياريف والسيمولوف، وكانت الذخائر المستخدمة واحدة.

هكذا أعلنت الإدارة العامة لسلاح المدفعية السوفييتية عام ١٩٥٤ عن مسابقة جديدة لاختراع نماذج جديدة موحدة بحيث تعمل على عيار جديد للذخائر، ونصت شروط المسابقة على ضرورة تقليل وزن الأسلحة وزيادة دقتها فى الرمي، فانطلق أصحاب النماذج الثلاثة المستخدمة فى الجيش السوفييتي آنذاك: ديجثياريف وسيمونوف وكلاشينكوف من النماذج التي كانوا قد صمموها.

لكن كلاشينكوف رأى أنه ليس من الضروري تصميم نموذج آخر؛ لأن نموذجه أثبت جدارته فيما يتعلق بالبساطة والفعالية، فاكتفى بأن أجرى عددا من التعديلات جعلت سلاحه أخف وزنا وأكثر دقة فى الرمي ووضع السكين محل الحربة.

ولم تخب حساباته؛ ففي الشوط النهائي للمسابقة استبعدت اللجنة المكلفة باختيار السلاح الموحد عددا من المتنافسين: لتكون المواجهة الحاسمة بين كلاشينكوف والمهندس كوروف الذي كان قد اخترع نماذج جيدة للبندقية الهجومية والبندقية الرشاشة، لكن الذي فاز فى النهاية كان ميخائيل كلاشينكوف.

وبعد مسابقات أخرى ثبت أن الكلاشينكوف هو الوحيد الذي أظهر استجابته لجميع متطلبات الفعالية في الأوساط الصعبة، مثل تكاثر الغبار والأمطار؛ ليتم في النهاية اختيار الكلاشينكوف بديلا عن جميع الأسلحة الأخرى، وأصبحت الذخيرة الوحيدة المستخدمة هي من عيار ٧,٦٢ ملليمترات. ومن تلك اللحظة صار الجيش السوفييتي كله يستخدم الكلاشينكوف، واستمر ذلك طيلة استمرار الحقبة السوفيتية.

يسألوه هذا السؤال كثيرا، ودائما كان يؤكد أنه مرتاح البال ولا يشعر بالندم لاختراعه وتصميمه للبندقية كلاشينكوف وأسلحة خفيفة أخرى تنتشر في العالم على نطاق واسع، موضحا أن اللوم في استخدام الأسلحة لقتل البشر لا يقع على عاتقه، وإنما يتحمله السياسيون الذين يتخذون قرارات استخدام الأسلحة في الصراعات والحروب.

وتبقى الإشارة إلى أن كلاشينكوف لم يصبح مليونيرا مع كل ما بيع من بندقيته ورغم شهرته الواسعة، وكان يمكن أن يكون من كبار الأثرياء، تماما مثل مخترع البندقية إم-١٦ الأمريكي إيجين ستونر (توفي سنة ١٩٩٧) الذي كان يتقاضى دولارًا على كل بندقية إم-١٦ يتم بيعها.

بعد ذلك أصبح الكلاشينكوف البندقية الوحيدة المستخدمة فى الجيش حتى سقوط الاتحاد السوفيتي، حيث أثبت تفوقه فيها على الأسلحة الأخرى بسبب بساطته وخفة وزنه وصلابته، مع قدرته العالية على مقاومة الأحوال الجوية السيئة وخاصة الرمال، وامتلاكه قدرات خاصة فى مقاومة المياه الفزيرة وندرة تعطله، حتى القديم منه، وتدفق الطلقات منه بسرعة عالية، ودقته العالية فى التصويب وبساطة استخدامه حيث يكفي شخص لم يطلق النار من قبل ١٠ دقائق فقط من التعليمات ليستعمله كأي محترف.

يجمع الكثيرون على أن أهم ما يتميز به الكلاشينكوف هو متانته الشديدة وقوة تحمله وصلابته وخفة وزنه وفعاليته نظرًا لتصميمه المتقن والبسيط فى نفس

الوقت.. وهذه المتانة والقوة مكنت من استخدامه فى بيئات وأماكن ذات بيئات قاسية.. الحرارة والرطوبة العاليتين فى الأحراش والأدغال والغابات .. الرمال والأتربة فى البيئات الصحراوية والوديان القاحلة .. البرودة لدرجة التثلج فى المرتفعات .. المياه فى المستنقعات .. أثبت الكلاشينكوف عمليًا صلاحيته للعمل فى جميع هذه الأجواء الصعبة بدون أن تتأثر كفاءته ودقته مما جعله الأفضل فى العمليات الدقيقة التي تستلزم أن يكون أفرادها فى كامل جهازيتهم واستعدادهم.. ومن المميزات التي يتميز بها الكلاشينكوف أيضًا خفته التي وصلت فى بعض النماذج إلى أقل من ثلاثة كيلوجرامات ونصف وهذا الوزن مناسب جدًا للقوات التي تعتمد على الانتقال لمسافات طويلة سيرًا على الأقدام فى عملياتها .

وهنا بدأت قصة السلاح الذي تفوق به على مخترعين عظام فى الجيش الروسي فأصبح ميشا شخصية مرموقة، وإن بقي كما هو يحمل رتبة عريف!!

ومما يثير الدهشة أيضا أن ميخائيل كلاشينكوف لم يكن يتمتع بأي "براءة اختراع" بالنسبة للسلاح الذي صممه وتم إنتاجه، ولم يكن يتقاضى أي "كوبيك" -وهو أصغر وحدة نقدية من أجزاء الروبل الروسي- عن مبيعات ذلك السلاح، فقط كان يحصل على راتب كبير يدرج فى فئة راتب "حسب الشخص"، وهو الراتب الذي كان يكفي احتياجاته الضرورية دون زيادة أو نقصان، والأغرب أنه لم يحصل على رتبة رقيب إلا فى فترة متأخرة، بعد أن نشرت مجلة أمريكية مقالا قالت فيه إن عريفا روسيا يقوم بتسليح جميع بلدان حلف وارسو، وتلك كانت هي المرة الأولى التي تم فيها الحديث عنه فى الغرب، وبسبب هذا المقال التفتت السلطات الروسية إلى ترقيته، فحصل مع صعود بوريس يلتسين إلى السلطة فى روسيا على رتبة الكولونيل، ورغم صدور مرسوم من مجلس الوزراء الروسي بمنع منح رتبة جنرال؛ فإن يلتسين أصدر قرارا استثنائيا بمنح كلاشينكوف رتبة الجنرال.

نعود إلى عام ١٩٥٠ الذي أصبح فيه ميشا عضوا فى مجلس السوفييت الأعلى بعد اختراعه، ليبقى فى هذا المجلس حتى حله عام ١٩٨٨، فقط غاب عنه ١٠ سنوات عندما مات ستالين وخلفه نيكيتا خروتشوف.

دخل ميشا المجلس عندما كان عمره ٣٠ سنة فقط، وكانت كل مشاعر الخوف تتملكه وهو يجتاز للمرة الأولى إحدى بوابات الكريملين؛ خوفا من أن يعرف أحد أنه نفسه هو الشخص الذي هرب صغيرا من منفى سيبيريا حيث كانت السلطات ترسل أعداء الشعب، لكنه فور دخوله إلى القاعة كان فى منتهى السعادة وهو يجلس إلى جانب شخصيات كان قد سمع عنها وأعجب بها، كالشاعر رسول حمزاتوف ورائد الفضاء يوري جاجارين والكاتب الشهير ميخائيل شولوخوف وجراح العيون الشهير "فيدوروف"، ومن شدة تواضعه أراد فى أوقات كثيرة أن يقترب من شولوخوف ويتعرف عليه، لكنه لم يجرؤ أبدا على فعل ذلك!!

في ذلك الوقت كانت مدينة جيفسك قد أصبحت مقر إقامة كلاشينكوف وأسرته، وهي المدينة التي كانت فى سنوات العهد السوفيتي مغلقة، يمنع على الأجانب حتى العاملين فى روسيا زيارتها أو دخولها، ومثل مدينته كان كلاشينكوف مغلقا هو الآخر، لا يعرفه أحد إلا العاملين القليلين معه، يعيش فى شقة عادية مثله مثل الملايين، يذهب إلى محلات البقالة والأسواق لشراء احتياجاته ومتطلبات أسرته، وكثيرا ما كان ينتظر فى طوابير شراء المواد الغذائية كغيره فى العهد السوفيتي للحصول على الكفاف الضروري للحياة، ورغم أن اللافتات المعلقة فى المحلات كانت تبيح لمن يحمل أوسمة البطولة تخطي طوابير الانتظار للحصول على ما يريد فإنه حرص على عدم التباهي بوضع الأوسمة والميداليات على صدره.

وبزوال عهد الستار الحديدي السوفيتي ظهر كلاشينكوف علانية، وأخذت الأضواء تتركز عليه، وأصبح يَزور ويُزار، ويكتب ويتحدث ويحاضر ويجيب على أسئلة الصحفيين والإعلاميين.

وبعد عمر طال أقيم له فى مدينة جيفسك أكبر متحف يضم كل نماذج سلسلة اختراعاته وتطويراته التي أدخلها على الكلاشينكوف.

ومنذ عدة سنوات أقيم متحف يحمل اسم كلاشينكوف يحوي بعض نماذج الأسلحة الخاصة به، ولكنه متحف أقرب إلى واجهة تجارية، حيث يوجد بالدور السفلي ساحة لتجريب الأسلحة الأوتوماتيكية كما يوجد بالمتحف طابق خاص بتوقيع الاتفاقيات مع الراغبين فى شراء هذا السلاح من بلده الأصلية.

كما يحمل مدخل مدينة "جيفسك" صورة كبيرة لكلاشنكوف تقديرا لجهوده، تحتها تلك الكلمات "لقد بذلت كل جهدي وقدرتي فى الدفاع عن وطني وحتى تكون حياتكم صافية ومزدهرة لا تعكرها الحروب".

كان كلاشينكوف يردد دائما أنه لا يندم على صنعه سلاحه (الذي تنتشر منه ١٥٠ مليون قطعة فى جميع أنحاء العالم فى ترسانات ٨٢ دولة، حيث يبلغ سعر الرشاش الكلاشينكوف فى بعض دول أفريقيا ٣٠ دولارا)، حيث يقول: "غالبا ما أسأل ما إذا كنت أشعر بالذنب بسبب المآسي البشرية التي تخلفها البندقية، لكن المصممين لا يتحملون مسؤولية وجهة الأسلحة وكيفية استخدامها".

وفي شهر أغسطس من عام ٢٠٠٥،، رثى ميخائيل كلاشينكوف المصير الذي آل إليه اختراعه الذي صممه قبل ستة عقود للدفاع عن بلاده فى مواجهة الغزو النازي.

وتحسر كلاشينكوف، وكان فى الـ ٨٦ من عمره، على انتشار اختراعه الذي أضحى الخيار المفضل للإرهابيين ورجال العصابات قائلاً : " كلما نظرت إلى التلفاز ورأيت السلاح الذي اخترعته للدفاع عن وطني الأم فى أيدي الإرهابيين وأتعجب كيف وقع فى أيديهم ؟! " .

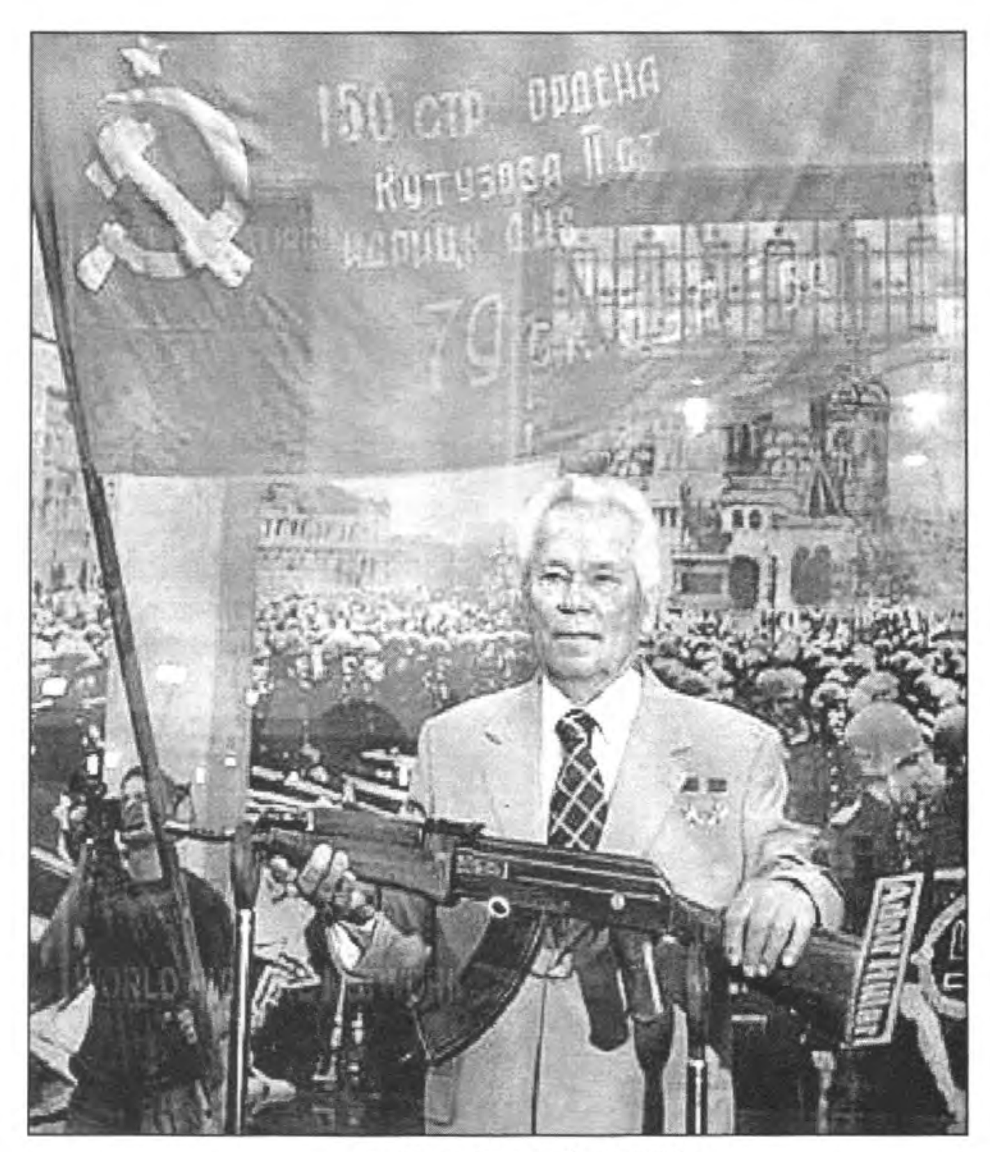
وبادر إلى تبرئة نفسه قائلاً : " لم أضع الكلاشينكوف فى أيدي رجال العصابات والإرهابيين، وليس خطأي إذا انفرط عقد استخدامه حول العالم دون سيطرة .. هل تلقى التبعة عليّ لأنهم يعتبرونه السلاح الأكثر اعتماداً " .

وأضاف قائلاً : "بعنا السلاح بأسعار رمزية، أو قدمناه مجاناً لمساعدة بعض الدول فى الصراع من أجل التحرير " .

وبعد عامين وفى سن الثامنة والثمانين - قبيل وفاته - قال ميخائيل كلاشينكوف: " كثيرًا ما يلومنني الناس بسبب سقوط عدد كبير من القتلى " وقال: " وذات يوم.. التقيت بوزير دفاع موزمبيق وقال لي : حين نلنا حريتنا بمساعدة بندقيتك عاد الجنود لديارهم وأطلق من رزقوا بأطفال على أبنائهم اسم كلاش " !

وتابع : " أي مصمم هذا الذي لا يسعد لذلك ؟!

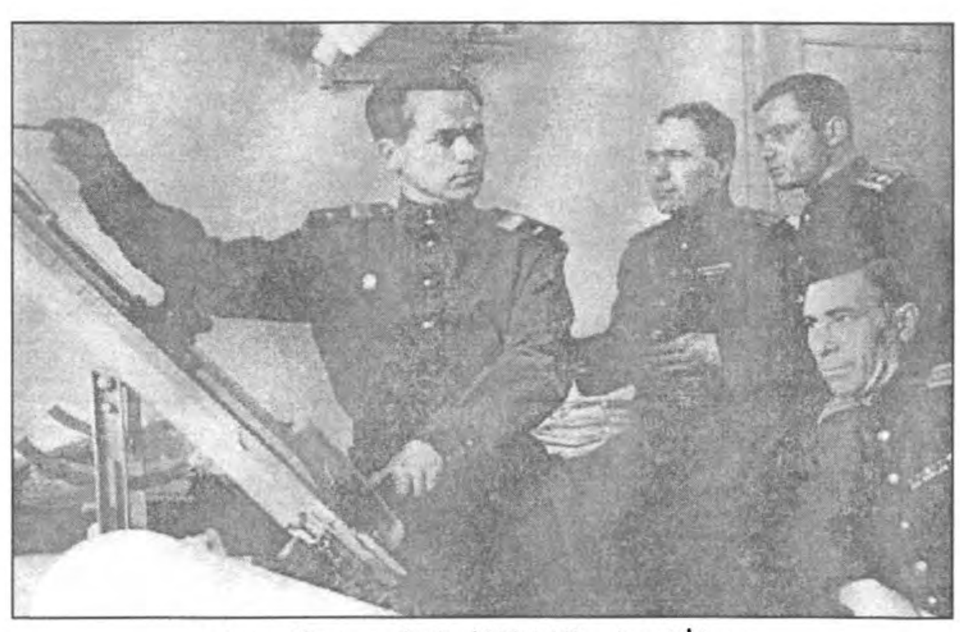
وقال فى مقابلة أخرى معه : " لا يمكننا إلقاء اللوم بالمطلق على السلاح حيث لا غنى عنه .. فبواسطته تقوم الجيوش بحماية الأوطان .. وتنال الشعوب المقهورة والمستعمرة حريتها .. ويحقق الثوار نجاح ثوراتهم فى وجه المستبد .. كما هي حاجة البشر لسكين المطبخ حيث من الممكن أن يستخدمه الأشرار فى ارتكاب الجرائم.. فاللوم إذا يجب أن يتم توجيهه للأشرار من بني البشر وليس للسكين" .



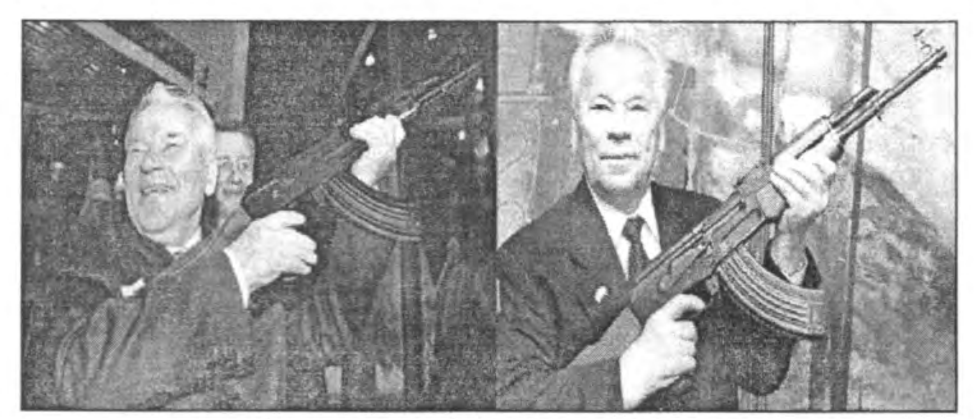
كلاشينكوف مع اختراعه العبقري .



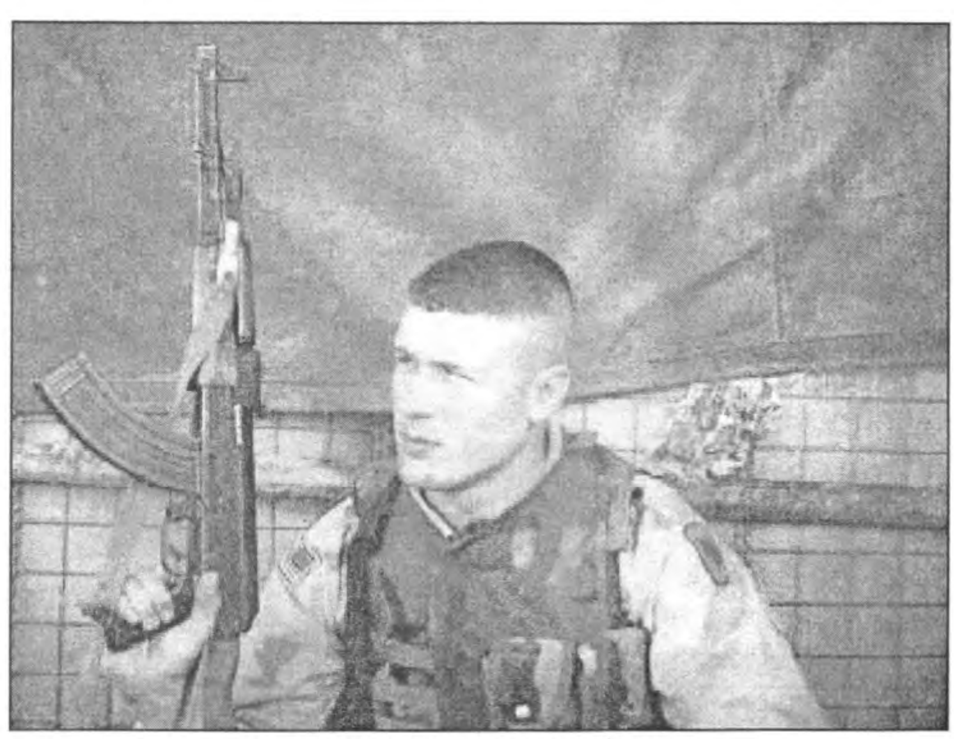
صورة قديمة لميخائيل كلاشينكوف (إلى اليمين)



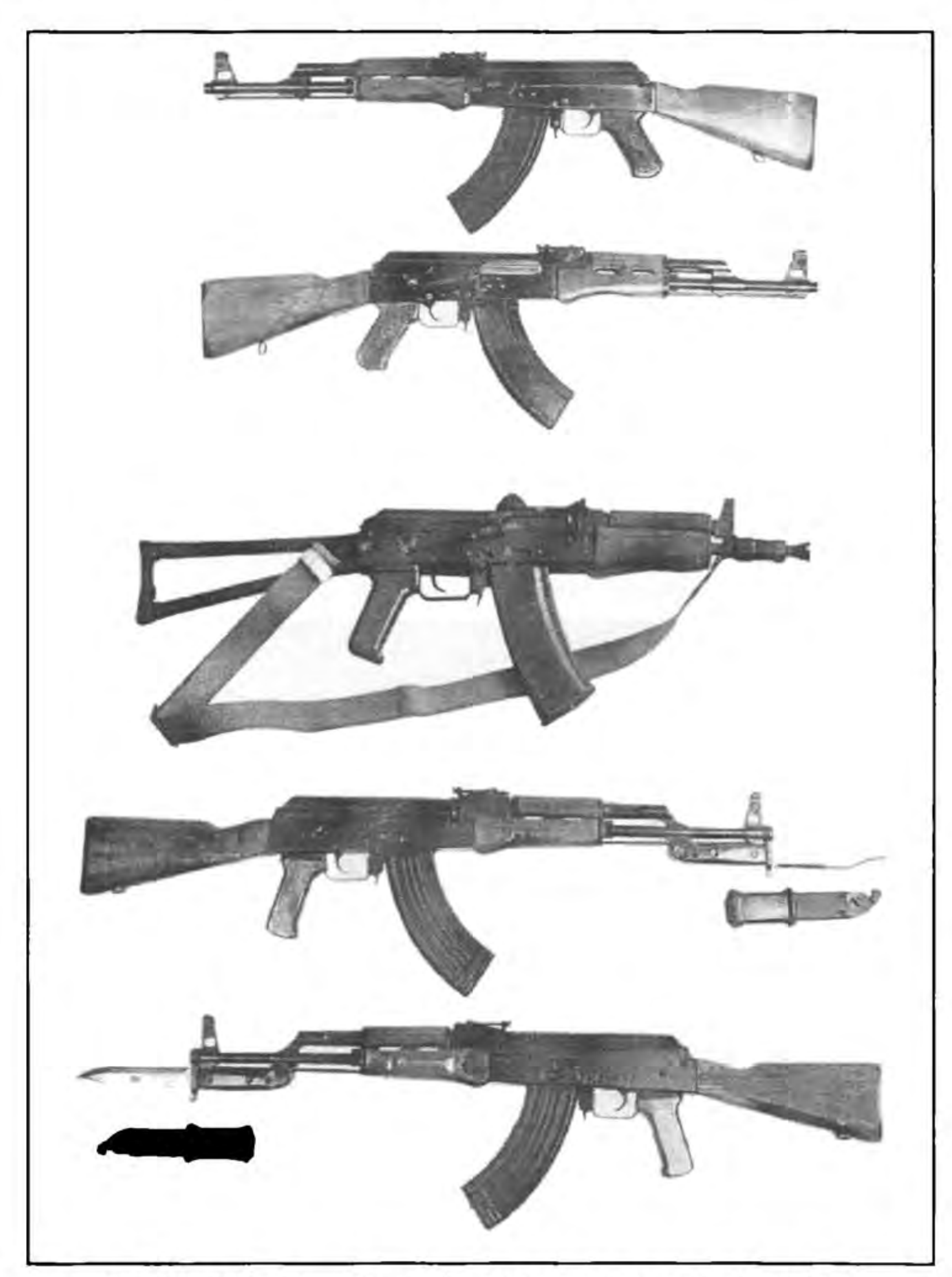
صورة أخرى لميخائيل كلاشينكوف يعرض تصميمه .



صورتان لميخائيل كلاشينكوف وهو يحتضن سلاحه .



جندي أمريكي يرفع الكلاشينكوف بيده .



كلاشينكوف .. تمر السنوات سنة تلو الأخرى وتبقى البندقية التاريخية التي لا تخضع لقانون الزمن !

ليوناردو دافنشي ..

اللقيط الذي صنع المعجزة !!



8

المصائب لا تأتي فرادَى .. هكذا يقول المثل .. وإذا أردنا البحث عن اسم فى سجل من خلدهم التاريخ، تدافعت على صاحبه المحن والمصائب فى طفولته فلن نجد من ينطبق عليه الحال كما هو مع العبقري الخالد الذكر ليوناردو دافنشي .

فقد عاش دافنشي سنواته الأولى بين المطرقة والسندان.. بين أب لا يريد أن يعترف به ابناً، وأم تركته وتزوجت رجلاً آخر، فأرضعته الحياة القسوة بدلا من أن يرضع منها الدفء والحنان .

و يجد دافنشي نفسه وحيداً أمام قسوة الحياة تخلت عنه الأم القادمة من الطبقة الشعبية والأب سليل العائلة المرموقة، ويضطهده إخوته غير الأشقاء ويلفقون التهم ضده لأنه أقوى بنيانا وأحسن صورة، ويطارده العار فى مدينته الصغيرة كابن غير شرعي، فيجد كل شيء، الشوارع والنوافذ والوجوه تأمره أن يرحل، ويحاول أن ينسى طفولته الحزينة.

و إلى ميلانو يرحل ليوناردو بإرادة جديدة، وبعد أن يطور قدراته، ويثبت بعضًا من عبقريته، يرسل إلى حاكمها يعرض خدماته قائلا له : أعتقد بأني قادر على أن أعطيك ما يرضيك وما يبعث فى نفسك البهجة بتصميم أجمل المباني " .

آنذاك كان ليوناردو قد اصبح رساماً معروفا وفنانا متعدد المواهب فهو مهندس ومصور ونحات وباحث وفيلسوف واسع الاطلاع درس تشريح الأجسام والفضاء ورسم أول تصميم لطائرة عمودية هليوكبتر، وتأمل تجاويف الجبال والشعاب

الخشنة، كما زار بعض البلدان الإسلامية عام ١٤٨٧ ليشاهد عن كثب ازدهار الحضارة الإسلامية.

ومع هذا التنوع والثراء والدأب فلا عجب أن يكتب دافنشي أبحاثا فى تشريح الأجسام أو يفكر فى اختراع آلة ما، أو يستمد قواعد الرسم من مشاهدته لحركة الصم والبكم.

وكان دافنشي يخرج للعمل منذ بزوغ الفجر إلى غروب الشمس دون أن يتناول شيئا من الطعام، فى بعض الأحيان يحضر ثلاثة أو أربعة أيام متوالية فيمضى بعض الوقت أمام عمله ثم ينصرف دون أن يضع لمسة واحدة يكتفي بالجلوس أمام اللوحة متأملاً ما أنجزه فى السابق وربما يذهب ثم يعود فجأة حين تعن له فكرة جديدة.

وفي نوبة الحماس يعمل ولا يبالي بحرارة الشمس وحين يفتر الحماس ينتقل من عمل إلى آخر دون أن يتم ما بدأ كأنه يبحث عن اكتمال لا يتحقق أو عن جديد لم يصل إليه غيره .

عاش دافنشى فى ميلانو سبعة عشر عاما وحيداً فى مرسمه بلا أهل وبلا زوجة، ليس حوله سوى بعض التلاميذ، فى سنواته الأولى بميلانو شاهد وباء الطاعون يحصد الأرواح فى المدينة الفقر والمرض والحزن يجلل المدينة، وثمة طابع سوداوي ومزاج كئيب فى كل ما يكتبه دافنشى، وحين تنتابه موجة تفاؤل يتخيل مدينة فاضلة، يرسم مبانيها ويكتب عن شخوصها، ويعيش فى خياله ما لم يعشه على أرض الواقع.

وفي نهاية القرن الخامس عشر تسقط ميلانو فى يد ملوك فرنسا، ويا للمفارقة،، كان دافنشى آنذاك يتم لوحته الشهيرة العشاء الأخير، تلك اللوحة المأساة، فما أن انتهى منها حتى اختارها ملك فرنسا كي تنقل إلى بلاده، ولأنها لوحة جدارية ضخمة

فشل الجنود فى نقلها، فما كان منهم إلا ان جعلوا شخوص اللوحة هدفا لسهامهم وبعد حين من الدهر أتى أحد القساوسة ليفتح فى بطن اللوحة بابا داخلياً!!

وتكتمل مأساة اللوحة حين تصيبها قنابل العدوان فى الحرب العالمية الثانية،أما صاحب اللوحة فاضطر بعد الغزو إلى ترك ميلانو والعودة مرة اخرى إلى فلورنسا فقيراً معدما ليشق طريقه من جديد كمهندس فى البلاط لمدة ست سنوات ١٥٠٠- ١٥٠٦ .. وكانت لوحة " يوحنا المعمدان " أكمل لوحاته قبل أن يعجز الفالج يده اليمنى، ليعيش فى شيخوخته يعاني الوحدة والمرض وانتظار النهاية، بعد أن ترك لنا بسمة لوحته العبقرية " الجيوكندا "، أو " الموناليزا " تطالعنا فى كل وقت.. ووراء هذه اللوحة الخالدة قصة، لا تزال الأجيال تتناقلها حتى يومنا هذا .

لوحة " موناليزا " (مقاس ٧٧×٥٣ سم) للفنان " ليوناردو دافانتشي " من أكثر اللوحات التي أثارت جدلاً على مر تاريخ الفن . ومع هذا الجدل كانت الكثير من الروايات حول هذه اللوحة تتخذ طابع المبالغة وفي أحيان كثيرة طابع الغموض . ولا شك بأن هذه اللوحة تكتنز الكثير من الألغاز والأسرار ، غير أن القصة الحقيقية لولادتها - ليست كما يزعم – لا تزال مجهولة . فماذا تقول القصة الحقيقية ؟

هذه اللوحة تم رسمها بمقاس كبير على لوح خشبي من شجر الحور (من فصيلة الصفصاف ، الذي يتواجد كثيراً فى بلدان شمال وشرق البحر الأبيض المتوسط). وهي تعتبر من أشهر أعمال الفنان " دافانتشي " ولكن ليس من أكثرها أهمية .

في البداية كانت اللوحة أكبر مما هي عليه حالياً ، فقد كان يحيط بالشخصية المرسومة عمودان من الجهة اليمنى ومن الجهة اليسرى وقد تم اقتطاعهما من اللوحة لأسباب غير معروفة حتى الآن . ومن أجل هذا ليس من السهل التحقق من أن " موناليزا " كانت تجلس على " تراس " المنزل ، عند رسمها . كذلك تنبغي الإشارة إلى أن الكثير من التفاصيل فى هذه اللوحة قد اختفت بسبب التلفيات التي أصابها بها الزمن ، وأن جزءاً من شخصية " موناليزا قد أعيد رسمه تماماً . غير

أن الخصائص الأساسية لهذه اللوحة الشهيرة لا تزال موجودة، وهي تتجلى فى تلك الخلفية الضبابية (وهذا التكنيك يسمى بالإيطالية " Fumato " ويعرفه الفنانون الذين درسوا الفن) . أما الشخصية " موناليزا " فهي مرسومة بطريقة رائعة وطبيعية وعلى الأخص ضحكتها التي يطلق عليها النقاد " الضحكة المنوِّمة " (بكسر الواو من التنويم المغناطيسي) .

لكن ما قصة الموناليزا تلك اللوحة التى رسمها العبقرى الإيطالى ليوناردو دافنشى ولا تزال حتى اليوم مصدراً من أهم وأخصب مصادر الإلهام للفنانين على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم

يرجح الباحثون أن ليوناردو بدأ فى هذه اللوحة عام ١٥٠٠ ولافتتانه بها استغرقت منه حوالى أربع سنوات حتى انتهت عام ١٥٠٤، وأصبحت تلك المرأة الغامضة المجهولة التى تحتل ابتسامتها اللوحة رمزاً أنثوياً خالصاً حاز إعجاب العالم، وأشاعت ابتسامتها جدلاً واسعاً حتى أصبحت سراً غامضاً يسعى إلى تفسيره العلماء والباحثون، حتى إن أحد الباحثين الإيطاليين واسمه " جيسيب بالانتى " أنفق ٢٥ عاماً من عمره فى البحث عن هوية تلك المرأة، وخرج ببحث أشارت إليه صحيفة الديلى تلجراف البريطانية يقول إن الصورة كانت لزوجة أحد أصدقاء والد ليوناردو دافنشى وكان يعمل تاجراً للحرير ويدعى سير فرانشيسكو ديل جيوكوندو وكان متزوجاً من ليزا جيرادينى، ولهذا يرجع بعض الباحثين إطلاق اسم الجيوكاندا على اللوحة بسبب انتماء تلك السيدة إلى عائلة جيوكوندو .

وقد أثارت اللوحة الكثير من الجدل منذ ظهورها نظراً للابتسامة الغامضة للمرأة، واتجاه نظرة عينها التى يراها الناظر إليها من أى زاوية تنظر إليه، كما أثارت تلك الأسئلة التى لم تجد حتى الآن وأظنها لن تجد الإجابة الشافية مثل: لماذا جاءت اللوحة مخالفة للعرف السائد فى لوحات ذلك العصر؟ فاللوحة غير موقعة، ولا مؤرخة، ولا تحمل أية معلومات عن موضوعها أو الشخص الذى تصوره كباقى لوحات عصرها؛ كل هذا فتح الباب للظنون تذهب حيث تشاء .

ومن النظريات الغريبة التى تناولت لوحة الموناليزا ما ذهب إليه البعض من أن هذه اللوحة لامرأة شهيرة فى المجتمع الإيطالى آنذاك مثل إيزابيلا ديستى، أو سيليا جاليرانى،

وذهب آخرون إلى أن تكون اللوحة لإحدى فتايات الليل؛ أراد دافنشى إظهار البراءة المختبئة بها .

فى حين ذهب البعض إلى افتراض أن هذه اللوحة لوالدة دافينشى أو لامرأة تشبهها نظراً لتعلق دافنشى بأمه وحرمانه منها صغيراً، وهو كما نعرف الابن غير الشرعى لموظف عام من فلورنسا من ابنة مزارع .

بينما أشارت إحدى النظريات الغريبة إلى أن اللوحة قد تكون صورة ساخرة رسمها دافينشى لنفسه نظرا لاحتمال تقارب ملامح المرأة فى اللوحة وملامح دافينشى نفسه .

وكانت أغرب دراسة جرت حول الموناليزا تلك التى قام بها مجموعة من علماء التشريح وتوصلوا فيها إلى أن الموناليزا كانت تعانى من آلام فى يدها أو شبه شلل بها نظراً لوضع الجسم والذراع وحالة الاتكاء الذى ظهرت به فى اللوحة .

من ناحية أخرى، كشف خبير فنى فرنسى مؤخرًا النقاب عن أن الموناليزا التى رسمها الرسام العالمى ليوناردو دافنشى فى لوحة له قد وضعت طفلها الثانى عندما جلست أمام الرسام ليرسم لها هذه اللوحة الخالدة وذلك باستخدام تكنولوجيا المسح الضوئى ثلاثية الأبعاد والأشعه تحت الحمراء.

وذكر موقع سى نت بشبكة الإنترنت فى تحقيق عن هذا الكشف أن هذا العمل قام به فريق من العلماء الكنديين من خلال الاستعانة بالتكنولوجيا المتقدمة الملحقة بأجهزة كومبيوتر التى كشفت النقاب عن أن المسح الضوئى المتقدم أوضح أن الموناليزا كانت ترتدى زِيًّا مصنوعا من مادة تشبه الشاش الشفاف الذى أظهرته

الآشعة من خلال الماسح الضوئى وأنها وضعت لتوها ابنها الثانى قبل أن تجلس ليرسمها الفنان دافنشى بوقت قليل لم يتم تحديده.

وأوضح الخبير الفرنسى بورنو موتن الذى يعمل بمركز الأبحاث للمتاحف الفرنسية الرداء الذى كانت ترتديه الموناليزا هو نفسه الرداء الذى كانت ترتديه النساء الحوامل أو هؤلاء النساء اللاتى وضعن وليدهن قبل قليل.

وأعلن فى مؤتمر صحفى عقد لهذا الغرض أنه يمكن القول إن الموناليزا وضعت مولودها الثانى قبل جلوسها لرسمها بقليل وذلك فى عام ١٥٠٣ وهو التاريخ الذى أكدته الاشعة والمسح الضوئى الدقيق.

وقد ظلت الموناليزا وستبقى محيرة وملهمة للفنانين فقد كتب عنها وحولها آلاف القصائد الشعرية وألفت أوبرا كاملة باسمها "أوبرا الموناليزا"

يقول عنها الشاعر الأيرلندى إدوارد دودن:

"أيتها العرافة، عرفينى بنفسك

حتى لا أيأس من معرفتك كل اليأس

وأظل أنتظر الساعات، وأبدد روحى

يا سراً متناهى الروعة

لا تحيرى الوجدان أكثر مما تفعلين

حتى لا أكره طغيانك الرقيق"

وعن ابتسامتها يقول الشاعر التشيكى ياروسلاف فرشليكى:

"ابتسامة مفعمة بسحر السر

فيهما الحنان والجمال ..

أتراها تغوى ضحيتها

أم تهلل لانتصارها .."

وعن عينيها ويديها يقول الشاعر الألمانى برونو ستيفان شيرر:

"ينبثق بريق العينين .. من الأعماق الذهبية

نبع الأبدية

ويغطى الشعر قناع .. امرأة وعروس وبتول

واليد ترتاح على اليد

تتنفس فى حر الظهر .. أفراح الورد

والبسمة فوق الشفة .. وفوق الخد"

الحكاية تقول إن " فرانسيسكو دي بارتولوميو دي زانوبي ديل جيوكوندو " وهو واحد من عائلات النبلاء فى " فلورنسا " كان قد طلب من الفنان " دافانتشي " لوحة شخصية (Portrait) لزوجته الثالثة " ليزا دي أنطونيو ماريا دي نولدو جيرارديني " .

" دافانتشي " بدأ العمل على هذه اللوحة عام ١٥٠٣ ، حيث كانت "موناليزا" فى سن الرابعة والعشرين .واستمر العمل على هذه اللوحة طيلة أربع سنوات. وعندما غادر " دافانتشي " مدينة " فلورنسا " عام ١٥٠٧ ، لم يبع اللوحة لطالبها ولكنه احتفظ بها لنفسه . البعض يفكر أن الفنان لم يسلم اللوحة لأنها لم تكن منتهية ، والبعض الآخر يعتقد أن الفنان أحب هذه اللوحة كثيراً وفضل الاحتفاظ بها .في عام ١٥١٦ ، عندما وصل " دافانتشي " إلى فرنسا كانت هذه اللوحة من

بين حقائبه التي حملها معه . وفي فرنسا باعها إلى الملك " فرنسيس الأول " الذي اشتراها لقصره فى منطقة " أمبواز " .

ثم إنتقلت اللوحة إلى منطقة " فونتينبلو " ثم إلى " باريس " ومن بعدها استقرت فى قصر " فرساي " بين مجموعة الملك " لويس الرابع عشر " . بعد الثورة الفرنسية ، وجدت اللوحة طريقها إلى متحف " اللوفر " . غير أن " نابليون بونابارت " استعادها وطلب تعليقها فى غرفة نومه .

وعندما حوكم " نابليون " تم إعادة اللوحة إلى " اللوفر " فى باريس . فى ٢١ أغسطس ١٩١١ سرق رجل إيطالي اللوحة من متحف " اللوفر " وأعادها إلى إيطاليا. حيث بقيت هناك مخفية قرابة السنتين ، حيث ظهرت فيما بعد فى " فلورنسا " .

وبعد انتقالها بين عدة معارض ، أعيدت إلى باريس . فى عام ١٩٥٦ جرت محاولة إتلاف اللوحة بواسطة الأسيد من قبل شخص وصف بالهوس ، وقد أتلف الأسيد النصف الأسفل من اللوحة ، غير أنها عادت إلى طبيعتها بعد عمليات ترميم إستغرقت بضع سنوات . بين عامي ١٩٦٠-١٩٧٠ " موناليزا " عرضت فى "نيويورك" و"طوكيو" و"موسكو" . اليوم لوحة " الموناليزا " موجودة فى متحف "اللوفر" خلف حاجز زجاجي مضاد للكسر والرصاص ، وقد اتخذ قرارا بمنعها من السفر لأسباب عديدة فى مقدمتها الخوف من التلف أو الفقدان لأي ظرف كان .

و الموناليزا أشهر أعمال ليوناردو على الإطلاق. وتأتي شهرتها من سر ابتسامتها الأسطورية فتعتقد تارة أنها تبتسم وتارة أخرى أنها تسخر منك . وعندما انتهى "ليوناردو دافنشي" من وضع اللمسات الأخيرة فى لوحة "الجيوكندة" ، تناول القلم بيده اليسرى، وكتب فى كراسة مذكراته هذه الأسطر:

"إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هذه اللوحة التهاماً.. واستطرد الفنان فى مدح لوحته كما لم يمتدحها أحد من مقرظيه من قبل ولا من بعد!

ولا غرابة فى أن يفتتن الفنان بروعة لوحته، التي استغرق فى صنعها أربع سنوات كاملة، والتي كان يدعو الموسيقيين والمهرجين إلى مرسمه ليبعثوا البهجة فى نفس "موناليزا" أثناء جلوسها أمامه، حتى تظل عالقة بشفتيها أشهر وأجمل ابتسامة عرفها التاريخ.. !!

وبالرغم من ظهور العباقرة من وقت لآخر، فما من عبقري استطاع أن يجمع من المواهب والملكات ما كان يتمتع به مصور "الجيوكنده" العظيم، الذي عرفه الناس كأشهر مصوري عصر النهضة. فقد كان إلى جانب عبقريته الفذة فى التصوير والنحت، عالما فى الهندسة العسكرية، والعمارة الكنائسية، والميكانيكا، والتشريح، وعلم المنظور، والإستاتيكا والديناميكا، والموسيقى والغناء، وعلم استصلاح الأراضي، والجيولوجيا، والهيدروليكا، وعلم الحرارة، والسمعيات.. كما كان حجة فى علم الأخلاقيات والفلسفة واللغة اللاتينية.. وبالجملة، كان موسوعة من العلوم والفنون، تقمصت شخصاً واحداً، لم ولن يجود الزمان بمثله!

وكأنما أراد القدر أن يعوض الفنان الكبير عن وصمة ظلت تلاحقه طوال حياته وتحط من قدره أمام نفسه وأمام الناس.. إذ ولدته أمه نتيجة لزواج غير شرعي بأحد الموثقين، واسمه "بييرو"، يذكر عنه أنه تزوج أربع مرات، وأنجب من الذكور عشرة، ومن الإناث اثنتين.. وعبثاً كافح "ليوناردو"، لا ليتقاسم مع إخوته ثروة أبيه بعد موته، بل ليعترف به كابن شرعي، وأن يكون له نسب كبقية الناس..

على كُلٍّ فقد استخدم ليوناردو تقنيتين هامتين فى هذه اللوحة كان ليوناردو رائد هذه التقنيات ومعلمها.

الأولى: سفوماتو وتعني تقنية تمازج الألوان.

وهي وصف الشخصية أو رسمها ببراعة وذلك باستخدام تحولات الألوان بين منطقة وأخرى بحيث لاتشعر بتغيير اللون مشكل بذلك بعدا شفاف أو تأثير مبهم، وتجلت هذه التقنية بوضوح فى ثوب السيدة وفي ابتسامتها.

الثانية : كياروسكورو وهي تقنية تعتمد على الاستخدام الأمثل للضوء والظلال لتكوين الشخصية المطلوبة بدقة عالية جدا.

وتظهر هذه التقنية فى يدي السيدة الناعمتين حيث قام ليوناردو بإضافة تعديلات عبر الإضاءة والظل مستخدما تباين الألوان لإظهار التفاصيل.

وقد عاد ليوناردو دا فينشي وبقوة سنة ٢٠٠٣ عبر رواية " شفرة دا فينشي " لكاتبها " دان براون "، الذي أشغل الناس والإعلام بتفجيره قنبلة روائية تقول إن سلالة السيد المسيح مازالت على قيد الحياة وذلك لأن السيد المسيح كان قد تزوج مريم المجدلية (بحسب ادعاء الرواية) وأن الفاتيكان يسعى إلى قتل هذه السلالة بكل ماأتيح له من قوة لأن وجودها يعني انهيار المسيحية التقليدية (طبعاً هذا ماجاءت به الرواية) مما أدى إلى معارضة الفاتيكان لهذه الرواية ولكاتبها دان براون فزادت من شهرة الرواية وكاتبها وسرعان ماتم تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي شيفرة دا فينشي (فيلم) سنة ٢٠٠٦ بطولة توم هانكس وإخراج رون هاورد. يذكر أن الفيلم لقي معارضة شديدة من الفاتيكان، ومنع من العرض لدى بعض الدول العربية.

لقد وهبت السماء دافنشي من المواهب ما يغنيه عن الأنساب والألقاب.. فقد كان وسيم الطلعة، قوي البنية، عذب الحديث، حلو المعشر، يأسر محدثيه بقوة الحجة وسحر اللهجة... فكثر حساده، واتهمه البعض بالشذوذ الجنسي وفساد الخلق.

وذات يوم، وضع شخص مجهول رسالة بدون توقيع، فى صندوق الشكاوى المعلق بجوار القصر العتيق، يتهم فيها "ليوناردو" بالشذوذ ومصاحبة الفاسقين.. ولكن التحقيق معه برأه من هذه التهمة لتلاحقه تهمة أخرى أشد خطورة .. تهمة الإلحاد والكفر. فقد كان "ليوناردو" لا يخفى كراهيته للطقوس الكهنوتية المعقدة وسيطرة رجال الكنيسة، وعداءه لدعاة السحر والتنجيم وتحضير الأرواح .. وإذا أضفنا إعجابه بالمبادئ التحررية – أدركنا السبب فى إلصاق هذه التهمة به،

ولكنه استطاع أن ينفيها عنه بالعديد من اللوحات الدينية التي أبدعتها ريشته، والتي تعبر عن إيمانه وتدينه العميق.

لقد انكب الفنان العالم على العلم يكشف غوامضه، وعلى المشروعات يخطط لها، فكان أول من فكر فى توصيل نهر "الأرنو" بقناة تخرج من مدينة "بيزا"، وإقامة السدود وتحويل مجرى النهر لاستغلاله فى استصلاح الأراضي .. وكانت غرفته مليئة بالسحالي، والحشرات، والصراصير، والأفاعي، والفراشات، والكثير من الأدوات والأجهزة، يجري عليها بحوثه .. وكان من أوائل من وضعوا أسس علم التشريح الفني، فكان يتردد على مستشفى "فيلاريني" القديم بميلانو، يشرح جثث الموتى، غير مبال ببشاعة منظرها ولا عفونة رائحتها، وكان محباً للعزلة، يقضي ساعات فى التفكير والتأمل، ويقول:

"إن الخلوة أم الحرية، فإذا ما كنت وحيداً فأنت ملك لنفسك، وإذا كنت مع رفيق واحداً فلن تملك إلا نصفك"!.. وكان ينصح بالاستماع إلى النقد حتى من الخصوم، ويقول: "ليكن اهتمامك بما يقوله خصومك أكثر من اهتمامك بما يقوله أصدقاؤك.. لأن الحقد أعظم أثراً من الحب"!!

وكان يقضي أياماً كاملة فى الخلاء، يفحص الطبيعة وظواهرها، ويتسلق الجبال الشاهقة معرضاً حياته للخطر، ويرقب الطيور أثناء تحليقها، ويدرس حركاتها.. كما وضع تصميماً لجناحين يثبتان حول الوسط، ليستطيع الإنسان بواسطتهما التحليق فى الفضاء كالطائر!

إن شخصاً على هذه الدرجة من العلم والفن، كان خليقاً أن يتدفق المال تحت قدميه أنهاراً .. ولكنه كان متقشفاً بطبعه، يزهد فى المال ويحتقره، بل كان كثيراً ما يفتقر إليه فيلجأ إلى أقاربه أو تلامذته ليقرضوه بضعة دراهم لينفق منها على نفسه وأبحاثه .. ولقد بلغ من زهده فى المال أن قبل كمية من الأخشاب كأجر له نظير قيامه بنقش ساعة كبيرة فى دير القديس "دوناتو" وكان يقول عن المال: "كل

ما تنفقه على نفسك ملك لك، وكل ما تجمعه ولا ينفعك فى حياتك ملك لغيرك، على الرغم منك"!

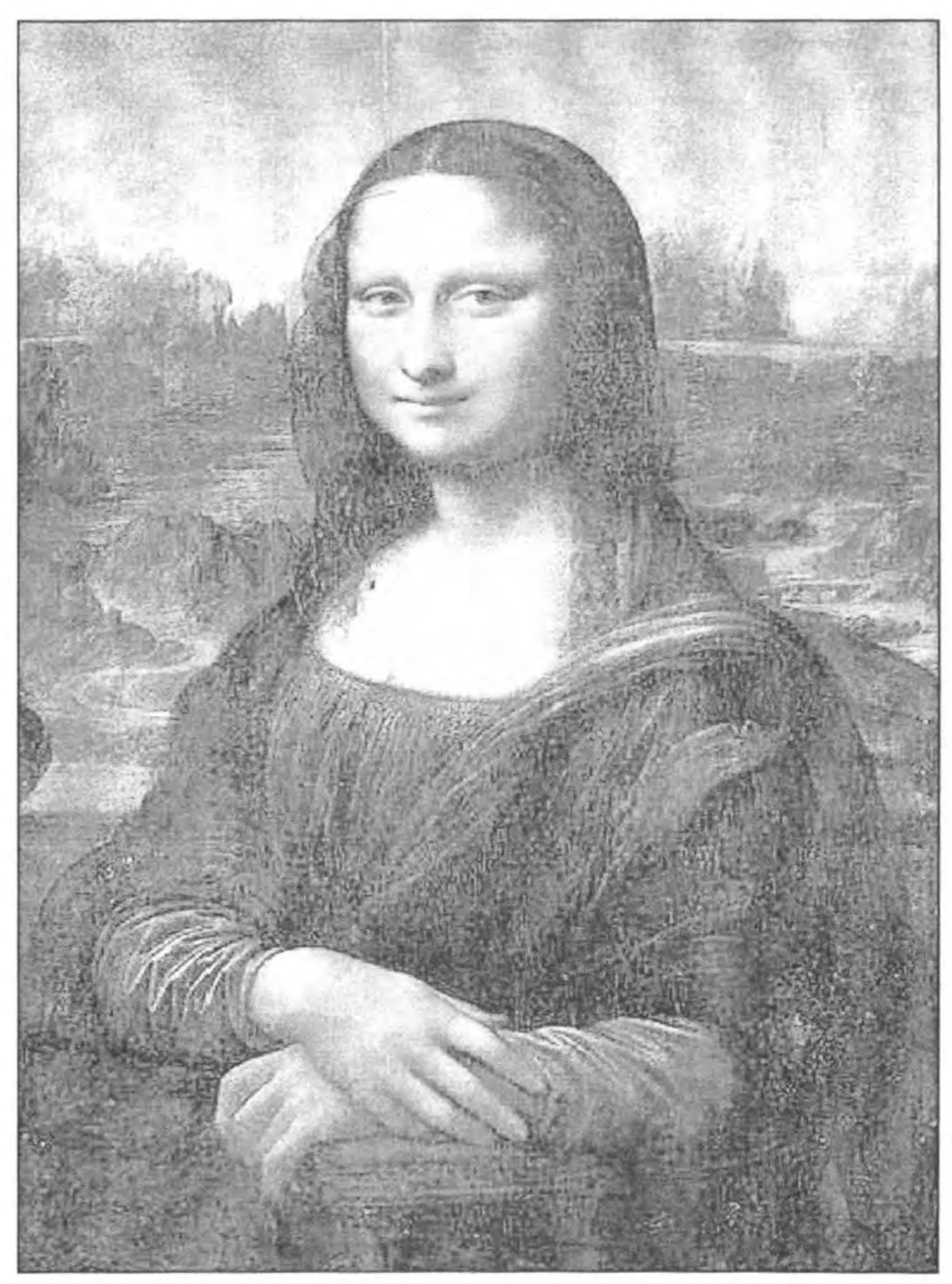
وعندما وجد الفنان أن الفن لا يفي باحتياجاته المادية، كان يضطر إلى عرض خبرته العسكرية على الأمراء، ويبتكر لهم طرقاً جديدة فى التكتيك الحربي للتغلب على خصومهم، مثل إقامة الحصون والقناطر المتحركة، واستعمال الدخان الكثيف للتمويه، وإثارة الرعب فى قلوب الأعداء.. وغير ذلك من فنون الحرب.

وكان "ليوناردو" برغم ذلك رقيق القلب يعاف أكل اللحوم، ويتعذب عندما يرى الطيور حبيسة أقفاصها، فيعمد إلى إطلاقها بعد أن يدفع ثمنها لأصحابها!.. ولا ريب فى أن فكر الفنان المشتت بين فنه وأبحاثه ومخترعاته، وسعيه الدائم لتحقيق الكمال، كان سبباً فى أنه لم يكن يتم عملاً يبدؤه .. وكان ذلك يسبب له كثيرا من الحرج والأزمات، وخاصة مع حكام فلورنسا وميلانو الذين كانوا يتنافسون للحصول على شىء من إبداعه .. ولقد كانت عبقريته سبباً فى أنه لم يذق طعم الراحة والاستقرار فى حياته، فظل هائماً على وجهه بين ميلانو، والبندقية، وفلورنسا، ولومبارديا، وروما .. وأخيراً رحل إلى فرنسا، بعد أن عرض عليه ملكها فرانسوا الأول أن يرافقه، وخصص له قصراً لإقامته هو وتلاميذه، ومعاشاً سنوياً قدره ٣٥٠٠٠ فرنك.

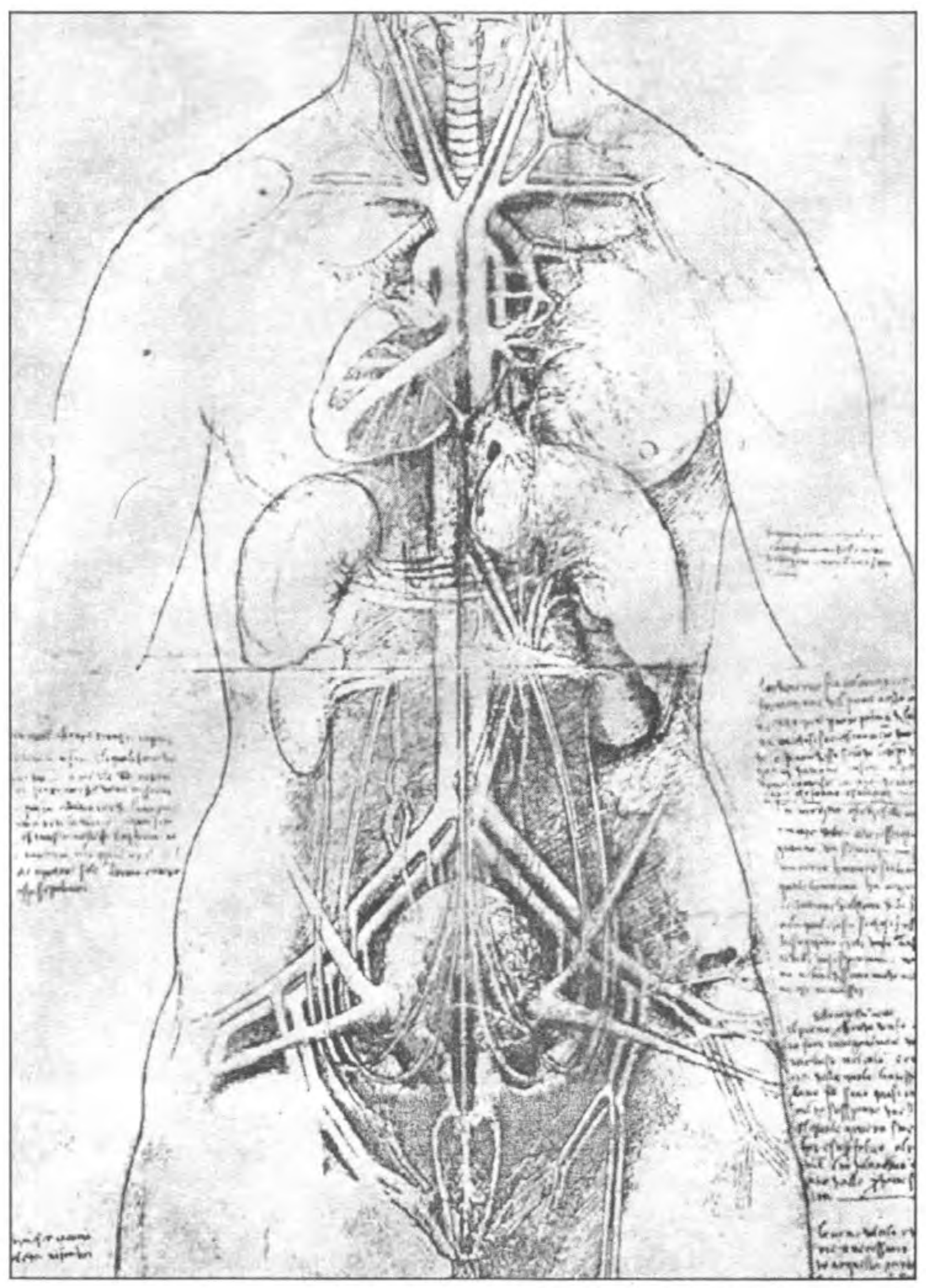
وظل "ليوناردو" يعمل إلى أن أصيبت يده اليمنى بالشلل .. ثم مات، ودفن فى مقبرة مؤقتة فى ٣ مايو سنة ١٥١٩ .. حتى نقل جثمانه إلى دير "سان فيونتيو" فى ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩ .

هذه هى قصة دافنشي أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق وهو مشهور كرسام، نحات، معماري، وعالم. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العلمى، له آثار عديدة على مدارس الفن بإيطاليا امتد

لأكثر من قرن بعد وفاته وإن أبحاثه العلمية خاصة فى مجال التشريح والبصريات وعلم الحركة والماء حاضرة ضمن العديد من اختراعات عصرنا الحالي. وقيل عنه إن ريشته لم تكن لتعبر عما يدور بذهنه من أفكار وثابة حتى قال عنه ب. كاستيلون: "من الطريف جدا أن الرسام الأول فى العالم كان يكره الفن، وقد انصرف إلى دراسة الفلسفة، ومن هذه الفلسفة تكونت لديه أغرب المفاهيم، وأحدث التصورات، ولكنه لم يعرف أن يعبر عنها فى صِوَره ورسومه" .



" الموناليزا " رائعة دافنشي الخالدة وسر عبقريته التي لا تزال تمثل لغزًا يتم كل يوم الكشف عن بعضٍ من أسراره !



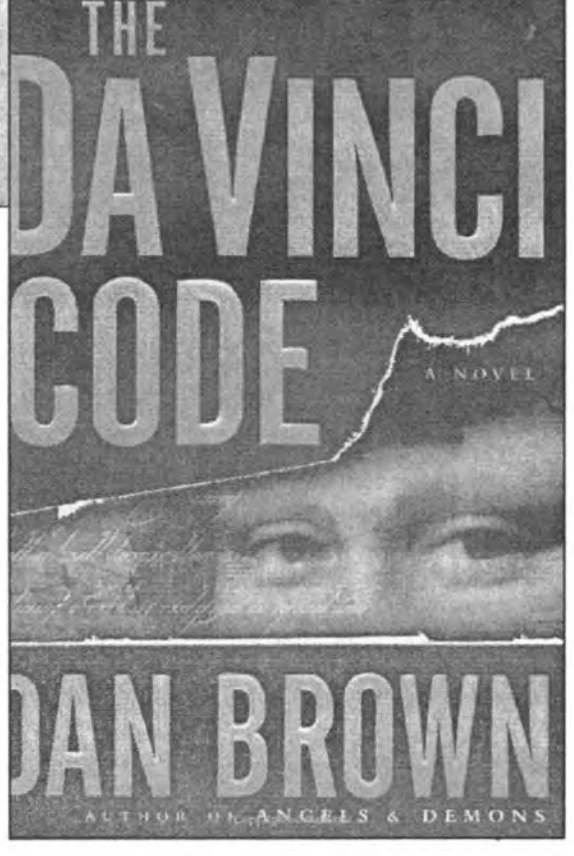
أول رسوم تصور تشريح جسم الإنسان كما خطها دافنشي بيده .



لوحة " العذراء " واحدة من أشهر أعمال دافنشي .



دافنشي في أيامه الأخيرة .



رواية "شيفرة دافنشي" التي أثارت الأزمة !

أبو بكر الرازي ..

أبو الطب رغم أوجاعه !!



ليست المعاناة فقط أن تنشأ فى وسط فقير .. أو تتكالب عليك الخطوب والمصائب أثناء رحلتك لتحقيق ذاتك، أو إثبات جدارتك بأن تكون من أعلام التاريخ، ولكن هناك مأساة كبرى كثيرًا ما يمر بها العباقرة والعظماء، يمكن أن نسميها " مرحلة الهدم "، التي تستهدف الحط من مكانة العالم العلمية، أو الطعن بقسوة فى أخلاقه، وإن فشلوا فى ذلك يتحولون إلى ما هو أخطر من ذلك " التشكيك فى دينه " حتى ولو اتهموه زورًا وبهتانًا بالكفر والإلحاد .. وهذه كانت مأساة العالم العبقري العربي المسلم العظيم " أبو بكر الرازي " !

كانت عبقرية وشهرة الرازي فى الشرق والغرب نقمة عليه، فقد أثارت عليه غيرة حساده، وسخط أعدائه، فاتهمه فى دينه كل من خالفهم، ورموه بالكفر، ووصفوه بالزندقة، ونسبوا إليه آراء خبيثة وأقوالا سخيفة، وكلها دعاوَى باطلة، وافتراءات ظالمة، وللرازي نفسه من الأعمال ما يفند هذه الدعاوى، ويبطل تلك الأباطيل !

والرازي علم من أعلام الحضارة العربية والإسلامية وعبقري من عباقرة التاريخ الذين خُلِّدوا فى سجل الحضارة الإنسانية حتى إن اسمه يُزيِّن الآن الكثير من كتب الغرب .. ويُعرف فى اللغات الأجنبية باسم Rhazes " رازيس "، حيث تعد مؤلفاته مرجعًا للعلماء والدارسين خاصة فى الطب، وظلت تدرَّس فى جامعات أوروبا على مدى قرون طويلة.

ومنذ ظهور هذا العبقري، وحتى يومنا هذا، وشهرته تجوب الآفاق، واسمه يلمع فى سجل الخالدين، فنرى أنَّ الملك الفرنسي الشهير " لويس الحادي عشر " قد

دفع الذهب الوفير وبطيب خاطر لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب " الحاوي" كي يكون لهم مرجعاً إذا أصابه مرض ما، والشاعر الإنكليزي القديم "جوفري تشوسر" يأتي على ذكر الرازي فى إحدى قصائده المشهورة فى كتابه "أقاصيص كونتربري"، وأطلقت جامعة بريستون الأميركيةاسمه على أكبر أجنحتها تقديراً له، وفي كلية الطب بجامعة باريس نجد نصباً تذكارياًللرازي مع صورة له فى شارع سان جرمان، كما ويطلق اسمه على الكثير من مستشفيات وقاعات التدريس والساحات فى الدول العربية والإسلامية.

كان "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي" عالما موسوعيا من طراز فريد، وقد برز فى جميع فروع العلوم؛ فكتب فى الطب والفلسفة والكيمياء والرياضيات وعلم الأخلاق والميتافيزيقا والموسيقى وغيرها.

فهو فى الحقيقة علامة عصره؛ حيث كانت مؤلفاته العديدة مرجعًا للعلماء والدارسين خاصة فى الطب، وظلت تلك المؤلفات تدرَّس فى جامعات أوروبا على مدى قرون طويلة.

ولد أبو بكر الرازي بالري نحو سنة ٢٥٠هـ = ٨٦٤م، وعُرِفَ منذ نعومة أظفاره بحب العلم؛ فاتجه منذ وقت مبكر إلى تعلم الموسيقى والرياضيات والفلسفة، ولما بلغ الثلاثين من عمره اتجه إلى دراسة الطب والكيمياء، فبلغ فيهما شأوًا عظيما، ولم يكن يفارق القراءة والبحث والنسخ، وإن جل وقته موزع بين القراءة والبحث فى إجراء التجارب أو الكتابة والتصنيف.

وكان حريصًا على القراءة مواظبًا عليها خاصة فى المساء، فكان يضع سراجه فى مشكاة على حائط يواجهه، وينام فى فراشه على ظهره ممسكًا بالكتاب حتى إذا ما غلبه النعاس وهو يقرأ سقط الكتاب على وجهه فأيقظه ليواصل القراءة من جديد.

وعرف الرازي بذكائه الشديد وذاكرته العجيبة، فكان يحفظ كل ما يقرأ أو يسمع حتى اشتهر بذلك بين أقرانه وتلاميذه.

ولم يكن الرازي منصرفًا إلى العلم كلية زاهدًا فى الدنيا، كما لم تجعله شهرته متهافتًا عليها مقبلا على لذاتها، وإنما كان يتسم بقدر كبير من الاعتدال، ويروي أنه قد اشتغل بالصيرفة زمنا قصيرا.

وقد اشتهر الرازي بالكرم والسخاء، وكان بارا بأصدقائه ومعارفه عطوفا على الفقراء والمحتاجين، وبخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله، ويجري لهم الرواتب والجرايات حيث كان غنيا واسع الثراء، وقد امتلك بعض الجواري وأمهر الطاهيات.

وقد بلغت مؤلفات الرازي ١٤٦ مصنفا: منها ١١٦ كتابا، و٣٠ رسالة، وظل طوال حياته بين القراءة والتصنيف، حتى قيل إنه إنما فقد بصره من كثرة القراءة، ومن إجراء التجارب الكيميائية فى المعمل.

يعد أبو بكر الرازي أعظم علماء المسلمين فى الطب من ناحية الأصالة فى البحث، والخصوبة فى التأليف، فقد ألف كتبًا قيمة فى الطب، وقد أحدث بعضها أثرًا كبيرا فى تقدمه، وفي طرق المداواة والعلاج وتشخيص الأمراض.

وقد امتازت مؤلفات الرازي بالموسوعية والشمول، بما تجمعه من علوم اليونان والهنود بالإضافة إلى أبحاثه المبتكرة وآرائه وملاحظاته التي تدل على النضج والنبوغ، كما تمتاز بالأمانة العلمية الشديدة؛ إذ إنه ينسب كل شيء نقله إلى قائله، ويرجعه إلى مصدره.

وقد صرف جل وقته على دراسة الطب، وممارسته بعد أن ضعف بصره نتيجة عكوفه على إجراء التجارب الكيميائية العديدة فى معمله.

وكان الرازي ذكيا فطنا رءوفا بالمرضى مجتهدا فى علاجهم وفي إبرئهم بكل وجه يقدر عليه، مواظِبا على النظر فى غوامض صناعة الطب، والكشف عن حقائقها وأسرارها، حتى أُطلق عليه "أبو الطب العربي".

ويعد الرازي من الرواد الأوائل للطب ليس بين العلماء المسلمين فحسب، وإنما فى التراث العالمي والإنساني بصفة عامة، ومن أبرز جوانب ريادة الرازي وأستاذيته وتفرده فى الكثير من الجوانب:

* أنه يعد مبتكر خيوط الجراحة المعروفة بالقصاب

* أول من صنع مراهم الزئبق

* قدم شرحا مفصلا لأمراض الأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية وجراحة العيون وأمراضها.

* كان من رواد البحث التجريبي فى العلوم الطبية، وقد قام بنفسه ببعض التجارب على الحيوانات كالقرود، فكان يعطيها الدواء، ويلاحظ تأثيره فيها، فإذا نجح طبقه على الإنسان.

* عني بتاريخ المريض وتسجيل تطورات المرض؛ حتى يتمكن من ملاحظة الحالة، وتقديم العلاج الصحيح له.

* كان من دعاة العلاج بالدواء المفرد (طب الأعشاب والغذاء)، وعدم اللجوء إلى الدواء المركب إلا فى الضرورة، وفي ذلك يقول: "مهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد، فلا تعالج بدواء مركب".

* كان يستفيد من دلالات تحليل الدم والبول والنبض لتشخيص المرض.

* استخدم طرقًا مختلفة فى علاج أنواع الأمراض.

* اهتم بالنواحي النفسية للمريض، ورفع معنوياته ومحاولة إزالة مخاوفه من خلال استخدام الأساليب النفسية المعروفة حتى يشفى، فيقول فى ذلك: "ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس".

كما اشتهر الرازي فى مجال الطب الإكلينيكي، وكان واسع الأفق فى هذا المجال، فقد فرق بشكل واضح بين الجدري والحصبة، وكان أول من وصف هذين المرضين وصفا دقيقا مميزا بالعلاجات الصحيحة.

وقد ذاعت شهرته فى عصره حتى وصف بأنه جالينوس العرب، وقيل عنه: "كان الطب متفرقا فجمعه الرازي؟".

ولقيت بعض كتبه الطبية رواجا كبيرا وشهرة عظيمة، وانتقلت نظرياته العلمية إلى أوروبا، وقد ترجم العديد من كتبه إلى اللغات الأوروبية، واعتمدت عليها جامعات أوروبا، وظلت مرجعها الأول فى الطب حتى القرن السابع عشر مثل كتابه الحاوي فى علم التداوي والذي ترجم إلى اللاتينية وطبع لأول مرة فى بريشيا فى شمال إيطاليا عام ٨٩١هـ = ١٤٨٦م، وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، ثم أعيد طبعه مرارًا فى البندقية فى القرن ١٠هـ = ١٦م، وقسم كتاب الحاوي فى الطبعة اللاتينية إلى خمسة وعشرين مجلدا.

وتتضح فى هذا المؤلف الضخم مهارة الرازي فى الطب، وتتجلى دقة ملاحظاته وغزارة علمه وقوة استنتاجه.

وكتابه "الجدري والحصبة" أعيدت طباعته أربع مرات بين عامي ٩٠٣هـ = ١٤٩٨م، و١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م.

أما كتابه "المنصوري" فقد طبع لأول مرة فى "ميلانو" عام (٨٨٦هـ = ١٤٨١م)، وأعيد طبعه مرات عديدة، وترجمت أجزاء منه إلى الفرنسية والألمانية.

وظلت تلك المؤلفات من المراجع الأساسية لدراسة الطب فى أوربا حتى القرن (١١هـ = ١٧م)، ولا تزال جامعة "برنستون" الأمريكية تحتفظ بكتب الرازي فى قاعة من أفخم قاعاتها، أطلق عليها اسمه اعترافًا بفضله ومآثره على علم الطب فى العالم أجمع.

للرازي العديد من المؤلفات الطبية التي كان لها أكبر الأثر فى الارتقاء بهذا العلم وتطويره، وكانت له إنجازات عديدة فيه، **ومن أبرز تلك المصنفات:**

*الحاوي فى علم التداوي.

*الجدري والحصبة.

*المنصوري فى التشريح.

*الكافي فى الطب.

*من لا يحضره الطبيب.

*الحصى فى الكلى والمثانة.

*علل المفاصل والنقرس وعرق النَّسا.

*منافع الأغذية.

*دفع مضار الأغذية.

*سر الطب.

*المدخل إلى الطب.

*القولنج (الشلل).

*جهوده فى الطبيعيات

كان الرازي عالمًا طبيعيًا مجدًّا، يَعتمد على البحث والاستقراء والتجربة والمشاهدة العلمية، بالإضافة إلى الرؤية العقلية والبصيرة الواعية وسعة الأفق.

فقد كتب الرازي عدة مؤلفات فى "الهيولي" – المادة – وتوصل منذ وقت مبكر إلى أن المادة تتركب من أجزاء صغيرة، تنقسم بدورها إلى أجزاء دقيقة، تنتهي إلى أجزاء غاية فى الدقة لا تقبل التجزئة، وهو ما يطلق عليه اليوم "الذرات".

ويقول الرازي: "إن تركيب الأجسام من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ، وسينتهي تفريق تركيب أجسام العالم – فى آخر العالم – إلى تلك الأجزاء بعينها، وهذه هي الهَيُولَى المطلقة".

ويقول الرازي: "إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة، والزمان هو عدد الأشياء الأمانية، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط، أعني الحياة والحركة. فإن كل عادّ إما أن يعد جزءًا بعد جزء، وإما أن يعد الكل معًا".

فالعدد – عنده – اثنان فقط:

أحدهما: يعد الأشياء الدائمة الروحانية، وهو الدهر.

والآخر: يعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان، وهو عدد حركات الفلك.

كذلك يميز "الرازي" بين نوعين من المكان:

- مكان مطلق: كالوعاء الذي يجمع أجسامًا.

- مكان مضاف: وهو مضاف إلى المتمكن (الجسم الذي يشغل مكانًا)، فإن لم يكن المتمكن لم يكن مكان.

وكان "الرازي" من أوائل الذين نادوا بكروية الأرض، وقال: إنها تفوق حجم القمر، وتقل كثيرًا عن حجم الشمس.

كما توصل إلى طريقة جديدة للتمييز بين المعادن عن طريق تعيين الثقل النوعي، وذلك من خلال تعيين ثقل حجم معين من المادة منسوبًا إلى نفس الحجم من الماء.

واستطاع بذلك التميز بين معدني الذهب والفضة بهذه الخاصية الطبيعية.

ولعل أهم إنجازات "الرازي" فى مجال الطبيعيات، هو نقضه لنظرية الإبصار التي ظلت سائدة طوال القرون التي سبقته، والتي انتقلت إلى المسلمين عن الإغريق، وهي نظرية "إقليدس" القائلة بأن الإبصار يحدث نتيجة خروج شعاع من العين إلى الجسم المرئي، وقرر أن الإبصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم المرئي إلى العين، وهو ما أكده العلم الحديث بعد ذلك، وهو فى ذلك أسبق من "ابن الهيثم" بعدة قرون.

**** مصنفات "الرازي" فى الطبيعيات:**

وقد ترك "الرازي" العديد من المؤلفات الرائدة فى الطبيعيات، من أبرزها:

* كيفيات الإبصار.
* شروط النظر.
* علة جذب حجر المغناطيس للحديد.
* الهيولى الكبير (المادة)
* الهيولى المطلقة والجزئية.
* الخلاء والملاء (الزمان والمكان).
* هيئة العالم.
* سبب وقوف الأرض وسط الفلك.
* سبب تحرك الفلك على استدارة.

و يعد "الرازي" من رواد علم الكيمياء، وقد أمضى شطرًا طويلاً من حياته فى دراسة العلم، من خلال الممارسة العملية والتجريبية، وله فيه مؤلفات قيمة، حتى عده كثيرٌ من العلماء مؤسسَ الكيمياء الحديثة.

وقد اهتم "الرازي" بعلم الكيمياء؛ لأنه العلم الوحيد الذي يمكن الحصول على حقائق من خلال التجارب التي يجريها، وتقوده إلى استنتاج القوانين، ولكنه ما لبث أن ترك هذا المجال، بعد أن ضعف بصره، وتحول إلى دراسة الطب وممارسته وهو فى نحو الأربعين من عمره.

وكان "الرازي" متبحرًا فى ذلك العلم، واسع الاطلاع فيه، فلم يقف عند حد الاطلاع على إنتاج علماء اليونان والفرس والهنود فحسب، وإنما أضاف إلى ذلك ما وصل إليه بخبرته وممارسته وتجاربه ومشاهداته.

وقد حضَّر زيت الزاج أو الزاج الأخضر (حامض الكبريتيك) والكحول بتقطير المواد النشوية والسكرية المتخمرة.

كما عني "الرازي" بوصف المواد التي يجري عليها التجارب، والأدوات والآلات التي يستعملها، ثم طريقة العمل، كما وصف كثيرًا من الأجهزة العلمية التي كانت معروفة فى عصره.

ومن الطريف أنه ربط الطب بالكيمياء، فكان ينسب الشفاء بفعل الأدوية التي يصفها الطبيب، إلى التفاعلات الكيميائية التي تتم فى الجسم.

ويعد "الرازي" من تلاميذ "جابر بن حيان" العالم الكيميائي المعروف، وقد استطاع "الرازي" أن يطور كيمياء "جابر" وينظمها ويزيد عليها بما ابتكره من نظريات كثيرة ومشاهدات عديدة.

مؤلفات "الرازي" فى الكيمياء

تعد مصنفات "الرازي" فى الكيمياء علامة بارزة على طريق هذا العلم العريق؛ إذ تحوي الكثير من مشاهداته وملاحظاته وتجاربه واستنتاجاته، ومن تلك المؤلفات:

* سر الأسرار.
* التدبير.
* الإكسير.
* شرق الصناعة.
* نكت الرموز.
* الترتيب.
* رسالة الخاصة.
* الحجر الأصفر.
* الرد على الكندي فى رده على الصناعة.
* الرازي الفيلسوف المغبون

كما كان "الرازي" فيلسوفًا معروفًا. وله اهتمام بالعلوم العقلية، وكان يدعو العلماء وخاصة الأطباء إلى الأخذ من العلوم الطبيعية ودراسة العلوم الفلسفية والقوانين المنطقية، ويرى أن إغفال تلك العلوم يزري بالعلماء.

واختلف "الرازي" مع المشائيْن المسلمين فى إمكان التوفيق بين الفلسفة والدين، وتأثر بآراء "سقراط"، واتبع "أرسطو" فى الكثير من أفكاره وآرائه.

كما رد فى كتاباته على بعض متكلمي المعتزلة مثل "الجاحظ" و"أبي قاسم البلخي"، وكثير ممن حاولوا إدخال البراهين العلمية فى الدين.

وبالرغم من الاتجاه العلمي للرازي والنزعة الفلسفية له والتي تحكم أسلوب تفكيره ونظره إلى حقائق الأمور ومشاهدات العلوم، فإنه رفض إقحام تلك النزعة على أمور الدين؛ لأن العقل البشري يقصر عن أمور كثيرة فى الكون، ومن الخطأ تحكيمه مطلقًا فى أمور الدين، وقد أثار ذلك حفيظة الكثير من العلماء ضده حتى رموه بالكفر واتهموه فى دينه، حسدًا منهم وغيرة بعدما بلغ مكانة لدى العامة والخاصة.

****ومن أبرز مؤلفاته فى المجال الفلسفى:**

* المدخل إلى المنطق.
* المدخل التعليمي.
* المدخل البرهاني.
* الانتقام والتحرير على المعتزلة.

وتوفي "الرازي" عن عمر بلغ نحو ستين عامًا فى (٥ من شعبان ٣١١هـ= ١٩ من نوفمبر ٩٢٣م).

وبعد كل هذا العرض لإسهامات هذا العبقري الفذ، يجدر بنا أن نتوقف قليلا عند إسهاماته فى الطب بصفة خاصة . حيث يعد الرازي من أشهر العلماء الذين برزوا فى مجال الطب فى تاريخ العالم وخاصة فى الطب بما قدمه من الكتب العلمية والطبية . ولم تقتصر إنتاجات الرازي فقط بالكتب بل شملت العديد من المجالات والمضامين التي خاضها أبو بكر الرازي فقد برع فى تشخيص الأمراض بأسلوبه المتقن والخاص "كان أبو بكر الرازي له طريقته الخاصة والفلسفية فى تشخيص

الأمراض كان يعرف بها دلالات المرض،وكانت له معرفة حسابية لمعرفة جانب الشفاء فى هذا المرض وجانب الهلاك ، وكانت نتيجة هذه المعرفة الحسابية تكشف ما سيؤول إليه المرض" .

كان الرازي أيام عصره متقناً لصناعةالطب، عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تشدّ إليه الرحال لأخذها عنه، صنَّف الكثير من الكتب القيِّمة، وترك بصمات هامة فى تاريخ الأدب الطبي، والألقاب التي أُطلقت عليه تعبِّر بشكل صريح عن عبقرية هذا العالِم وتميّزه، ومن هذه الألقاب: أمير الأطباء،أبقراط العرب، جالينوس العرب، منقذ المؤمنين.

وعندما أسس عضد الدولة المستشفىالعضدي جمع أشهر الأطباء على امتداد الإمبراطورية ففاق عددهم المائة طبيب، فاختارخمسين منهم ليكونوا طاقم المستشفى فكان الرازي منهم، ثمّ انتقى عشرة أطباء كرؤساء للأقسام فكان الرازي أبرزهم، وبالنظر لمؤهلاته جعله رئيساً لأطباء المستشفى، ولم يمضِ وقت طويل حتى ذاعت شهرته فى طول البلاد وعرضها، وزحف طلاب العلمِ قاصدين بغدادلتلقي المعرفة على يديه، فأصبح حجَّة فى علم الطب ومرجعاً للحالات المستعصية حتىلقب "بجالينوس العرب" .

أبو بكر الرازي لم يقف فقط عند تشخيص المرض بل تابع بمسائله الحسابية الخاصة، فيتوقع نسبة الشفاء ونسبة خطورة المرض على مريضه من خلال هذه المسائل الحسابية التي يقوم بها كما أنه كان يستخدم هذه المسائل لمعرفة ما لذي سيحل بمريضه فى نهاية المطاف.

وبالرغم من هذه النتائج التي توصل لها أبو بكر الرازي فى تشخيص الأمراض ونسبة خطورته وعلاجة فهو لم يكتف بهذا القدر ، بل سعى إلى معرفة ما قبل هذا المرض من أمراض وسلوكيات"اهتم الرازي اهتماما بالغا بتدوين الملاحظات السريرية الخاصة بمرضاه، فاهتم بمعرفة سير المرض ودراسة أحوال مريضه

فى نومه وحياته وصحيانه ومزاجه وعمره وصناعته والأمراض الوراثية فى عائلته وأحوال أسرته الاجتماعية والاقتصادية وعادات المريض فى التغذية".

فكما نرى فى وقتنا الحالي إن أغلب الأمراض هي نتيجة لعاداتنا الغذائية الخاطئة أو بعض سلوكياتنا فى الحياة،وقد أدرك أبو بكر الرازي هذا الشيء من خلال عمله فقد كان يهتم بمتابعة تطور المرض فى الوقت نفسه الذي يبحث فى سجلات مريضه الوراثية والاجتماعية والاقتصادية وعاداته الغذائية وأنماط سلوكياته فى مختلف حياته اليومية كـ نومه ، مزاجه، وحياته بشكل عام.

وهذه بعض النتائج التي توصل لها أو بعض الأسس التي كان يستخدمها الرازي فى معالجة مرضاه ، وقد جمع الرازي هذه الأسس فى عدة مؤلفات"يمكن تلخيص مؤلفات الراوي بأنه وضع ٥٦ كتابا فى الطب،و ٢٣ كتابا فى علوم الطبيعة ، ٨ كتب فى النطق، و١٠ كتب فى الرياضيات ، و١٧ كتابا فى الفلسفة ، و٦ كتب فيما وراء الطبيعة ، و١٢ كتابا فى الكيمياء ، و١٠كتب فى موضوعات مختلفة .

ومن خلال عدد الكنب التي ألفها الرازي يمكننا تصور أو تخيل نبوغ هذا العالم فى مجالات مختلفة فلم تقتصر مؤلفاته فى مجال عمله "الطب" بل اختلفت مجالات مؤلفاته وان كان ذلك يدل على شىء فإنما يدل على علمه وتثقافته الواسعة .

ومن أشهر مؤلفاته وهي للعلم لا للحصر "كتاب الكافي، والمدخل، والملكي، ومن أشهر الكتب والتي تعود إلى سبب شهرة الرازي كتاب الحاوي الذي نقل إلى اللاتينية برعاية ملك صقلية.وكتاب المنصوري الذي أهداه إلى المنصور بن إسحاق أمير سجستان".

و ربما يكون سبب شهرة هذه الكتب بسبب ترجمتها إلى العديد من اللغات أو ربما بسبب طلب ملوك البلدان لهذه الكتب أو ربما قد تكون اشتهرت بسبب المعلومات القيمة التي كانت تحويها وكانت محط اهتمام سائر البشر وخاصة الملوك.

أشهر مؤلفات الرازي الطبية "و أهم جميع مؤلفاته كتابه "الحاوي" الذي يتكون من قسمين منفصلين ، الفصل الأول ويتحدث فيه عن الأقراباذين، والقسم الثاني عن ملاحظاته السريرية التي تهتم بالبحث فى حالة المريض والمرض وسير علاجة ونتيجة العلاج" .

وقد قسم أبو بكر الرازي هذا الكتاب إلى قسمين ، القسم الأول: ويتحدث فيه أبو بكر عن خبرات من سبقوه فى هذا المجال مع تفصيل وشرح بعض الذي توصلوا إليه .

القسم الثاني تحدث فيه عن الملاحظات السريرية لمرضاه كما كتب فيه الأمراض التي أصيب بها وطرق علاجه لهذه الأمراض. وفي أغلب الروايات أن أبا بكر الرازي عندما توفى لم يكن قد أكمل هذا الكتاب فقام تلامذته بإكماله وإخراجه للعالم .

وبالرغم من كثرة الكتب التي ألفها الرازي فى شتى المجالات فلم تقتصر جهوده فى الكتابة فقط بل كان من أوائل الأطباء الذين استحدثوا العديد من الوسائل التي خدمت البشرية فى هذا المجال إلى يومنا الحالي بعد أن طورها الغرب، ولكنه يبقى أول من سنها فى تاريخ الطب "يعتبر أبو بكر الرازي أول طبيب ابتكر خيوط الجراحة المساة" بالقصاب" وهو كذلك أول من عمل مراهم الزئبق، وأول من كتب مقالات خاصة عن إمراض الأطفال ، وأول من عرف الإصابة بالعرق المدني" .

فأبو بكر الرازي هو أول من استخدم أمعاء الحيوان فى الجراحة"القصاب" وهذا يدل على أنه كان متيقظا لما يدور حوله فاستطاع الربط بين الإنسان والحيوان باستخدام أمعاء الحيوانات فى علاج الإنسان، وكذلك يدل على نبوغه وحرصه وشغفه بالطب.

وقد شرح الرازي بعض العمليات التي أجراها فى كتاب الحاوي "ومن أبرز مجهودات الرازي الطبية اهتمامه بالجراحة ولعله من أوائل الأطباء فى الإسلام

ممن أجروا العمليات الجراحية ونجد فى كتابه الحاوي فى السفر الحادي عشر يختص هذا السفر بالجراحة فيتحدث فى علاج المرضى والفسخ الذي ينشق منه داخلا "فسخ المفصل": أي إزالته عن موضعه من غير كسر، وعلاج القروح، وفي الأعضاء التناسلية والمقعدة وجراحات العصب والوتر والأربطة".

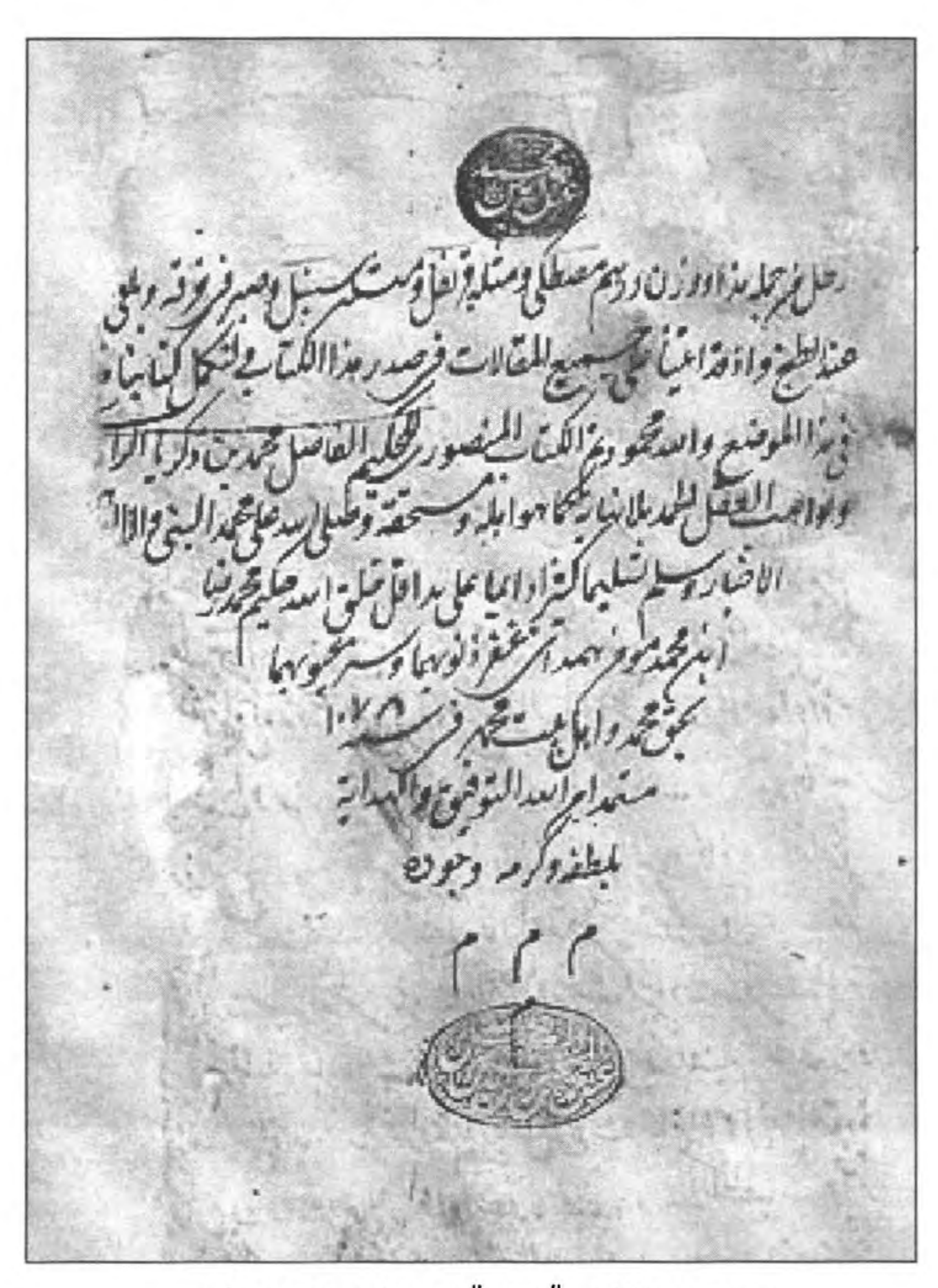
وهكذا لم يحتفظ أبى بكر الرازي بعمله وعملياته الجراحية التي أجراها لنفسه بل نشرها فى العديد من الكتب التي ألفها.

وكانت الأمراض فى الماضي بالنسبة للناس متشابهة فلم يجدوا هناك أي اختلاف بين الجدري والحصبة حتى أوجد أبو بكر ذلك الاختلاف فى رسالة الحصبة .

وقد ظهر إبداع أبو بكر الرازي المنقطع النظير، في رسالته التي ألفها فى الحصبة والجدري، في التشخيص والوصف، وتقرير وجوه الاختلاف بينهما، وطرق العلاج وإبداء الملاحظات الدقيقة.

فقد أوضح أبو بكر الرازي للناس الاختلاف بين الحصبة والجدري وأوجد طرق العلاج وأوجه الاختلاف من حيث التشخيص نفسه ومن حيث ماهية المرض.

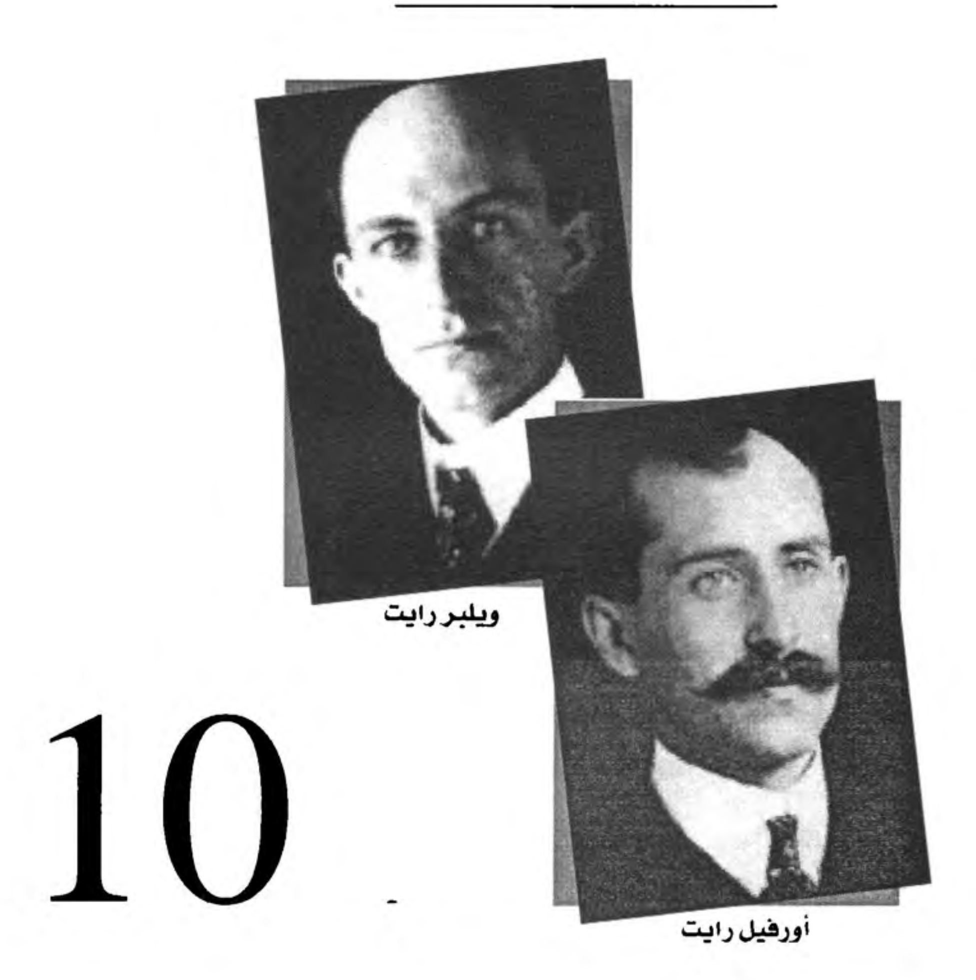
كما كان لأبي بكر الرازي باعٌ طويل فى مجال الكيمياء والأحماض والمختبرات. وداخل المعمل كان للرازي تجارب معملية وكيميائية هامة. واستحضر الرازي بعض الحوامض، مثل حامض الكبريتيك وقد سماه "زيت الزاج أو الزاج الأخضر" ونقله عن كتبه البير الكبير وسماه "كبريت الفلاسفة".



إحدى صفحات كتاب " الطب " للرازي في مخطوطه الأصلي .

الأخوان رايت ..

بجناحَيهما حَلَّقَ العالم !!



ويلبر رايت

أورفيل رايت

10

رغم مرور أكثر من مائة عام على أول رحلة طيران يقوم الإنسان بآلة أثقل من الهواء ويقوم بالتحكم الكامل بها، وهي الرحلة القصيرة التي قام بها الأخوان رايت فى السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٠٣، تلك المحاولة التي غيرت تاريخ العالم، وفتحت أمامه الآفاق لاستكشاف الأرض وارتياد الفضاء بالصورة التي نراها اليوم.. رغم مرور كل هذه الأعوام إلا أن العالم لا يزال يحتفل بهذه الذكرى التي لم تغب عن ناظريْه حتى يومنا هذا .

على الرغم من الخلاف الكبير السائد حول هوية مخترع الطيران، فإن محاولة الأخوين رايت، أصبحت تاريخاً هاما فى عالم الطيران، باعتبارها من التجارب الموثقة والتي أشار لها خبراء الطيران فى ذلك الوقت، كما أن مشاركة الأخوين رايت فى عرض تجاربهما فى عدد من دول العالم، لا سيما فرنسا والتي تعارض معارضة شديدة لفكرة أن الأخوين رايت هما مخترعا الطيران الحديث، حيث الزعم بأن فرنسي هو أول من طار مستخدما أصول الطيران المتبعة حالياً، بالإضافة إلى الثري البرازيلي "سانتوس دومون" الذي شهده الجمهور يطير فى ١٩٠٦ أي بعد ثلاث سنوات من محاولة الأخوين رايت وكانا قد حققا فى نفس العام مسافة ٣٩ كليومتراً استغرقت ٤٠ دقيقة طيران، ويقين البرازيليين بأنه مخترع الطيران وأن حصول الأخوين رايت على لقب مخترعي الطيران ما هو إلا ظلم تاريخي!

مغامرة الأخَوان رايت أكدت مقدوز الإنسان الطيران وفق معطيات محددة للوصول من نقطة لأخرى بسلام، بعد إجرائهما لتعديلات جوهرية على هيكل

الطائرة التي استخدماها ضمنت لهما التحكم الكامل بالطائرة ولو لفترة وجيزة لم تتجاوز الإثنتي عشرة ثانية، ولكنها كانت كافية لشحذ هممهما والمضي قدما فى تطوير طائرات قادرة على الطيران بسلاسة فى الأجواء، وهنا نلقي الضوء على حياة الأخوان رايت ورحلتهما المثيرة نحو اختراع الطيران بشكل أقرب لما هو عليه الحال اليوم.

الأخوان رايت هما " ويلبور " وأورفيل" وهما ابنان للقسيس "ميلتون" و"سوزان" ابنة الميكانيكي، وهما جزء من عائلة تضم عدة إخوة غيرهم، ويكبر " ويلبور" المولود فى أبريل عام ١٨٦٧ أخاه " أورفيل " بأربعة أعوام وكانت العائلة قد انتقلت إلى " أوهايو" من "ميلفيل " بولاية إنديانا ليتابع والدهم أعمال الكنيسة، ويذكر أنه فى العام ١٨٨٤ أن والدتهم قد مرضت بالسل وأخذ "ويلبور" فى الاعتناء بها وكان وقتها فى المدرسة الثانوية وكان مميزاً فى الدراسة إلا إنه اضطر لترك المدرسة والاعتناء بوالدته، وفي هذه الأثناء بدأ اهتمام شقيقه " أورفيل" بالمدرسة فى الانحسار شيئاً فشيئاً، وعرف عنه أعماله الشقية وعدم تحمسه لفكرة المدرسة، وقرر الاتجاه لتعلم تقنيات الطباعة والنشر.

توفيت والدتهم فى صيف ١٨٨٩ وشهد نفس العام اتجاه الأخوان رايت للعمل فى محلهم الخاص بالطباعة والنشر، وفي العام ١٨٩٠ أصدر الإخوة رايت صحيفة أسبوعية أسموها " أخبار الغرب" قاما فيها بعمل تغطيات وعرض أخبار الغرب الأمريكي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي بدأ الإشارة لهما ب(الأخوان رايت)، وكانا حينئذ فى سن الثانية والعشرين والثامنة عشرة على التوالي، ثم تلتها عدة صحف إلى أو نوصل الأمر بهما بإصدار صحيفة يومية، وقد عانا من صعوبة العمل الصحافي، إذ كانا يقومان بالتغطيات والطباعة أيضا!، فقررا العودة لعملهم الأساسي كمشغلين لمطبعة تقليدية.

وفي العام ١٨٩٤ من انتشار ظاهرة استخدام الدراجات الهوائية، استهوت الفكرة الأخوين رايت، فقاما باقتناء دراجات هوائية وسرعان ما تركا مهنة الطباعة

واتجهوا لبيع وتصليح الدراجات وبحلول العام ١٨٩٦ قاما بتصنيع نماذج دراجات من تصاميمهما الخاصة منها " فان كليفس" وسانت كيرز، وأدرت عليهم التجارة الجديدة مالاً جيداً.

في نفس العام ظهر اهتمام الإخوة رايت بمجال الطيران، عند ملاحظتهم مقالاً فى إحدى الصحف عن الطائرات فبدؤوا حواراً عن كيفية طيران هذه الأجسام وعن كيفية تحكم الطيارين بتوازن هذه الوحدات فى الجو وقارنوا بتحكم راكبي الدراجات على الدراجة الهوائية على الأرض!.

أصيب أورفيل بالتيفوئيد عام ١٨٩٦ وبينما كان ويلبور يعتني بأخيه، قرأ خبرا عن موت طيار ألماني شهير كان يقود طائرة شراعية. استرعى الخبر انتباهه، وحثه على الاهتمام بالطيران. وفي ٣٠ مايو من عام ١٨٩٩، كتب رسالة إلى معهد سميثسونيان Smithsonian يطلب معلومات حول الأبحاث الجوية. وفي خلال بضعة شهور قام ويلبور بقراءة كل ما كتب حول الطيران.

في العام ١٨٩٩ اخترع " ويلبور" نظاما بسيطا بإمكانه لف أجنحة الطائرة جهة اليمين واليسار، وقاموا بتجربة النظام الجديد بمجسم طائرة ورقية بسيط، ثم على عدد من الطائرات الشراعية الانزلاقية.

كانت تلك أولى تجارب الأخوان رايت حول الطيران وكانت بمنطقة "كيتي هوك" فى شمال كازولاينا على ساحل المحيط الأطلنطي، حيث الرياح القوية والتي بإمكانها مساعدة الطائرات الشراعية على الدفع ورمال الساحل على حماية الطيارين الشراعيين فى حال حدوث حوادث.

فشلت المحاولات فى عامي ١٩٠٠ و١٩٠١ فى تحقيق النتائج التي كان يتمناها الأخوان رايت، فالطائرات الشراعية لم تحقق لهما الأمال المرجوة، كما أن الطائرة الشراعية لم يكن بمقدورها توفير الحمل اللازم بالإضافة إلى كونها ليست تحت

التحكم الكامل، وكانت دون ذيل ومثبته فى الأرض، لذا فى شتاء ١٩٠١-١٩٠٢ صمم الإخوة رايت أنبوباً للرياح للوصول إلى أفضل شكل للجناح.

وهذا مكنهم من بناء طائرة شراعية بحمل جيد قادر على حمل الطائرة فى الهواء، وأخذا فى التركيز أكثر فى مشاكل التحكم الأخرى بالطائرة، وبنهاية ١٩٠٢ أصبحت طائرتهم الشراعية الثالثة أول طائرة كاملة التحكم فى عمليات التوجية والالتفاف.

في شتاء ١٩٠٢-١٩٠٣ تمكن الإخوة رايت فى صناعة محرك يعمل بالجازولين قادر على توفير القدرة الكافية لتسيير طائرتهما ومدها بالطاقة الكافية للطيران، كما قاما ببناء أول جهاز دفع حقيقي لطائرة وكذلك طائرة جديدة تعمل بالمحرك . ووجد الأخوان رايت نفسيهما فى خضم سباق مع الزمن ضد عدة مخترعين حاولوا جاهدين الوصول إلى هذه النقطة وهي تسيير طائرة تعمل بالمحركات يتحكم فيها الإنسان كلياً، وبالأخص " صامويل لانجلي" سكرتير معهد سميثسونيان الذي توصل هو الأخر لنموذج تقريبي إلا أن محاولاته باءت بفشل ذريع مطلع عام ١٩٠٣ مما جعله ترك المجال أمام الإخوة رايت.

عمل الأخوان داخل الغرفة الخلفية لورشة الدراجات التي يملكونها. وبعد تصميم مروحة على نفس المبادئ المستخدمة فى تصميم الأجنحة، صنع ويلبور وأورفيل محركاً بأربع أسطوانات وبقوة ١٢ حصانا ميكانيكيا. وبعد استكمال أجزاء الطائرة، تم شحنها إلى كيتي هوك وجمعت أجزاؤها هناك.

بعد وصول معسكر الأخوان رايت إلى كيتي هوك تم تجهيز الخيام، وتجهيز قطع الطائرة، وقام الأخوين رايت بعمل الحسابات، آملين أن يحظوا بحالة طقس جيدة تمكنهم من إتمام تجاربهم بيسر.

في ١٤ ديسمبر قام الأخوان رايت بعمل قرعة حول من سوف يجرب أول طائرة تعمل بمحرك وأثقل من الهواء، وابتسمت القرعة ل"ويلبور" إلا أن المحاولة الأولى لم تنجح بسبب تلف بسيط بالطائرة، سرعان ما استدركه الأخوان رايت وتكللت المحاولة الثانية بالنجاح، واستطاعت الطائرة الطيران لثوان معدودات.

وفي ١٧ ديسمبر من عام ١٩٠٣ قام الإخوة رايت بتسجيل أول تجربة مقبولة نظرياً لطائرة كاملة تعمل بالمحركات يتم التحكم بها من قبل الإنسان، وفي ذلك اليوم قام الاخوة رايت بعمل أربع محاولات للطيران، بدأها " أورفيل" وقام بعمل الفحص الأخير قبل الإقلاع فيما اهتم شقيقه بتوجيه أحد الحاضرين لالتقاط الصور التاريخية، وأشار على الطاقم المساعد لهما بعدم النظر بحزن بل الفرح والابتهاج، عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً ودار المحرك واستطاع " أورفيل" الطيران وقام بدفع المصاعد للأسفل واندفعت الطائرة إلى الأعلى وسط بهجة الجميع ثم إلى الأسفل لتحط الطائرة بعد تسجيل ١٢ ثانية من الطيران وارتفاع ١٢٠ قدماً!، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقلع فيها طائرة وتطير فى الهواء ثم تهبط بتحكم كامل من الإنسان، وبعدها قام " ويلبور" بالعمل نفسه وسجل ارتفاعاً بلغ ١٧٥ قدما، ثم "أورفيل "مرة أخرى وسجل ٢٠٠ قدم، ثم أخذ التجربة الأخيرة " أورفيل" واستطاع كما التجارب الأخرى الإقلاع بسهولة، وعند ارتفاع ١٠٠ قدم أصبح يصارع فى التحكم بالمصاعد elevators وأصبح منظر الطائرة كالأحصنة المستخدمة فى سباقات " الروديو"، وواجهت الطائرة موجة من الرياح دفعتها باتجاه الأرض ولم يستطع معها " ويلبور" التحكم فى المصاعد وهبطت الطائرة على بعد ٨٥٢ قدمًا من نقطة البداية، وتأكدوا دون شك أن " الفلاير" وهي اسم الطائرة قادرة على الطيران، وراح الطاقم فى التفكير والهمهمة وهم يتفحصون الطائرة هل بإمكانها الطيران فى خط العودة لأوهايوا..

قام بعدها الأخوان رايت بإرسال برقية إلى والدهم القس ميلتون يخبراه النجاح الباهر الذي تحقق، وطلبوا منه ضرورة إخبار الجميع والصحافيين بأوهايوا.

العالم يشهد ثورة عالم الطيران

ومنذ تلك اللحظة عم الخبر جميع أرجاء المعمورة وراح الإخوة رايت فى تعميم فكرة الطيران، على الرغم من الصعوبات التي واجهتهما فى البداية لتسويق الطائرات إلى الجيش الأمريكي، كما سافر الأخوان رايت إلى أوروبا وخاصة فرنسا لعمل عدة طائرات أخرى. وازدهرت فيما بعد أعمال الأخوان رايت فى مجال الطيران، حيث طلبت منهما عدة جهات منها شركات بريد ودول أوروبية تصنيع طائرات خاصة لهم.

كما قام الأخوان " رايت" بتأسيس شركتهم الخاصة بصناعة الطائرات، وقاموا بإنتاج طرازات جديدة من "الفلاير" منها ثلاث مدنية وأخرى عسكرية تم تصميمها فى العام ١٩٠٩ واستمرت الإنجازات المتتالية حتى العام ١٩١٦.

توفي ويلبور فى ٣٠ من مايو عام ١٩١٢ عن عمر ناهز الخامسة والأربعين، بعد صراع مع حمى التيفوئيد، وهو بالتأكيد عمر قصير مليء بالأحداث والابتكارات لشخص شارك فى تقديم أحد أهم الاختراعات حيويةً وأهمية إلى البشرية.

أما شقيقه أورفيل فقد حمل اللواء بمفرده، وقام ببيع شركتهم الخاصة بعد وفاة شقيقه، وشارك فى عدة هيئات أمريكية تعنى بالطيران، منها الهيئة الأمريكية الاستشارية للطيران والتي انبثقت عنها فيما بعد وكالة الطيران والفضاء الأمريكية "ناسا"، وتوفي فى الثلاثين من يناير عام ١٩٤٨ بأوهايو عن ٧٦ عاماً، نال خلالها عدة أوسمة وأنواط واختير وشقيقه من قبل عدة جهات ضمن أعظم الشخصيات الأمريكية، ويكفي أن " أورفيل" ساهم فى رفع سرعة الطائرة من صفر ميل فى الساعة إلى ١٠٠٠ ميل حتى وفاته.

عرف عن الأخوان "رايت" طيلة حياتهما بأنهما كانا يفضلان العزلة، ولا يهتمان بالحياة العامة كثيراً، وخاصة بعد دخولهما لمجال الطيران كان العمل المتواصل والتنقل من مكان لأخر لإجراء الاختبارات سبباً أخراً فى بعدهم عن الحياة العامة.

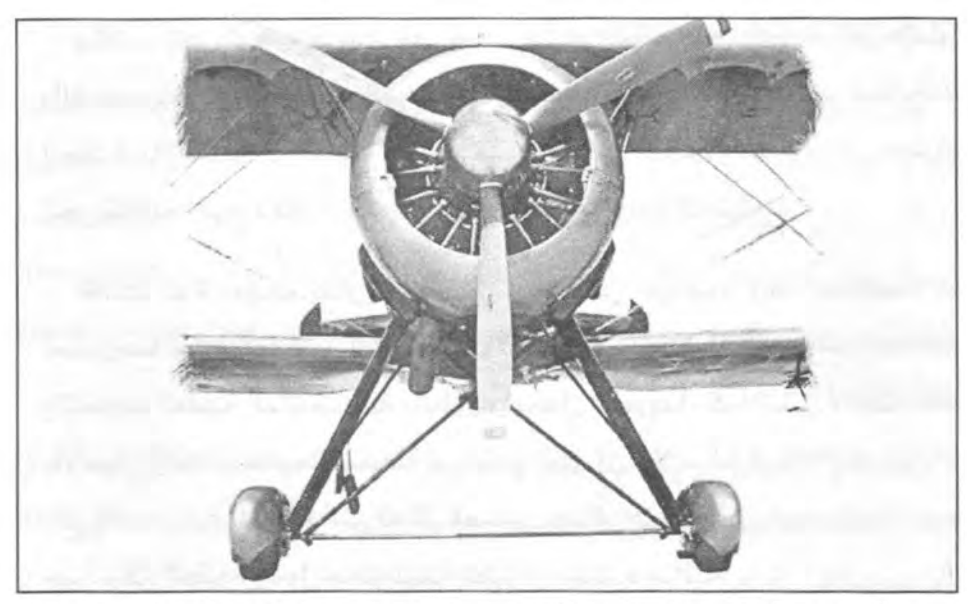
وكانت تجربتهم الفريدة قد لفتت انتباه العالم من العامة إلى الملوك والشخصيات الهامة ومنهم ألفونسو الثالث عشر ملك أسبانيا وإدوارد السابع ملك إنجلترا، بالإضافة إلى أندية الطيران الشراعي حول العالم، والتي رأت فى خطوتهم الجريئة فتحاً لهم لآفاق أرحب فى عالم الطيران وربما الفضاء.

قامت عدة جهات بتكريم الأخوان رايت فى حياتهما وبعد مماتهما، فتم اختيارهما من ضمن أبرز الشخصيات الأمريكية على الإطلاق، وقامت الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة بالطيران بحمل اسميهما، كما أنشئ متحف خاص بالأخوان رايت ورحلتهما المذهلة فى عالم الطيران، ولا سيما شبكة الإنترنت والتي تعج بالعديد من المواقع التي تحكي قصص ومذكرات الأخوان رايت، وشهادات من خبراء فى الطيران حول محاولتهما الطيران بطائرة بدائية.

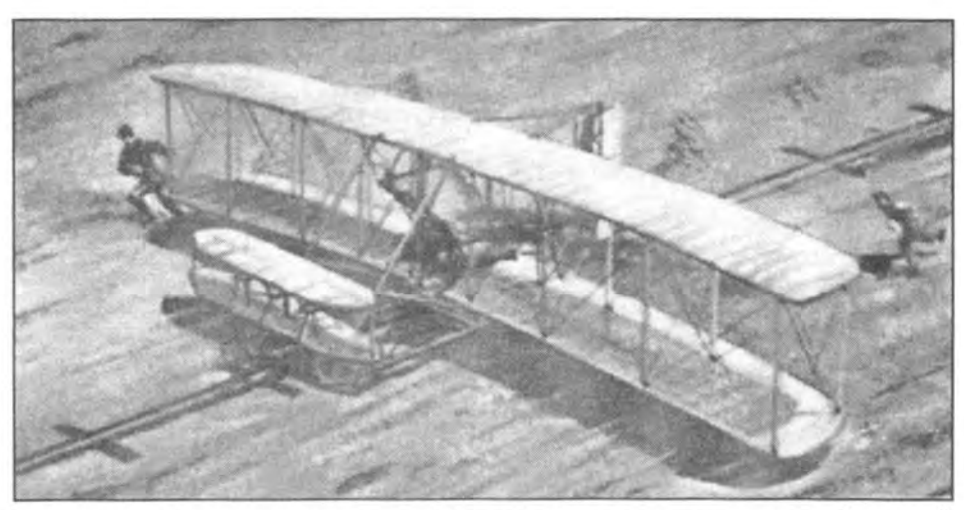
لقد ترك الاخوان رايت بمعجزتهما للعالم إرثاً عظيمًا من العبقرية التي حققت حلمًا للبشرية راود الإنسان منذ أن فتح عينيه على الطيور والنسور والكواسر وهي تجوب السماوات دونما تحقيق غايته.

واليوم يمثل الأخوان رايت إرثاً عالميًّا يحتفل بإنجازهما بشكل رسمي ويحتلان صفحات مشرّفة فى التريخ، وطائرتهم التي لا تزال صورتها تملأ الطوابع والتذكارات والساحات العامة فى الولايات المتحدة وعبر العالم .

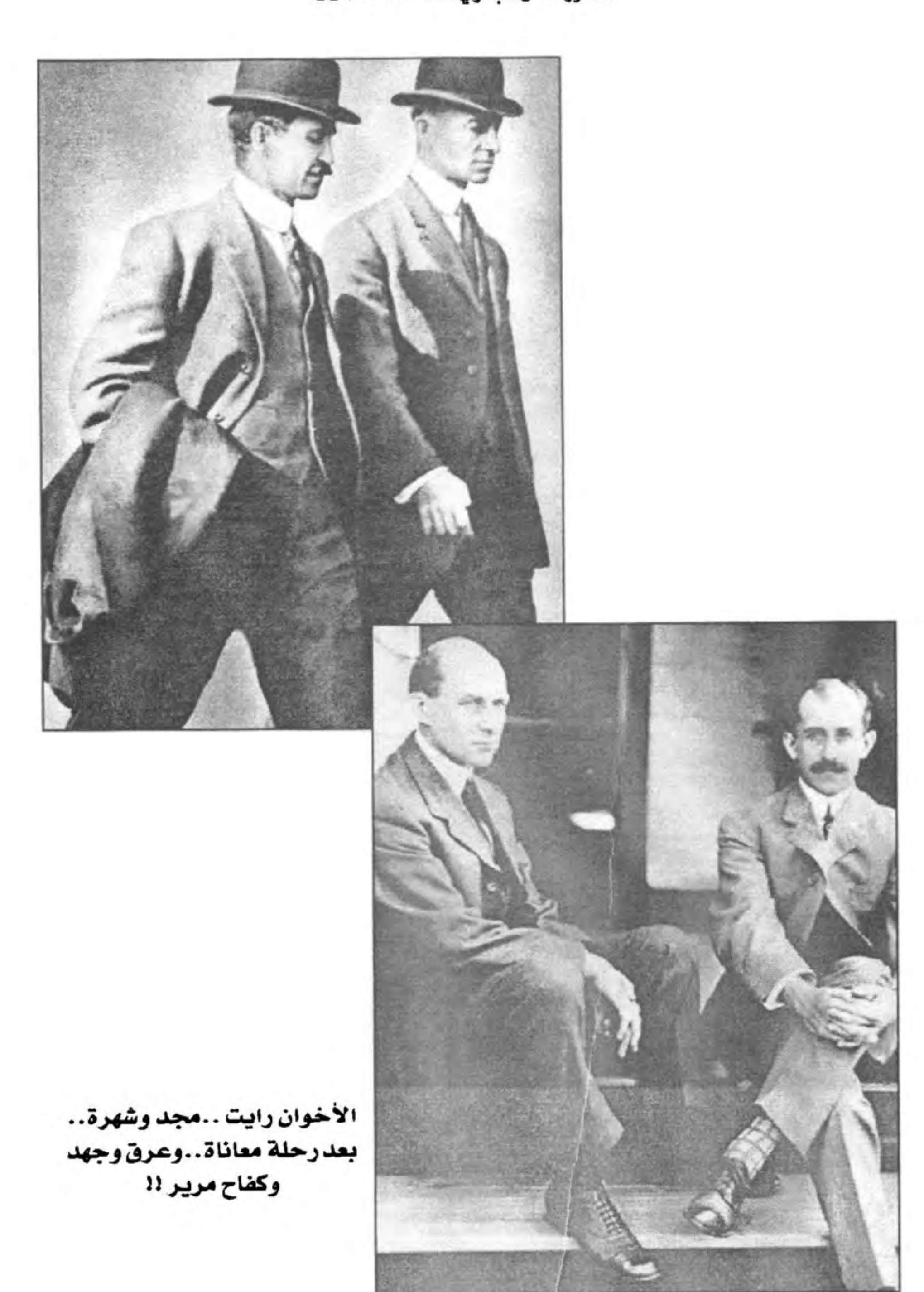
ويمكن للناظر أن يعاين طائرتهما التي تكاد تكون أشهر طائرة فى العالم عن كثب فى متحف العلوم والتكنولوجيا فى مدينة " كيتي هوك " فى ولاية " نورث كارولاينا " مسقط رأس الأخوين رايت حيث يحضرها العديدون حول العالم لمشاهدة أول طائرة حلقت فى بداية القرن العشرين !



نموذج " الفلاير " المعجزة اختراع الأخوين رايت المذهل. أول طائرة يتحكم بها الإنسان وكانت خليطاً من المعدن والخشب!



" الفلاير " أول طائرة حقيقية صممها وصنعها الأخوان رايت لحظة انطلاقها فى أول طلعة جوية ناجحة فى التاريخ .



الأخوان رايت ..مجد وشهرة..
بعد رحلة معاناة..وعرق وجهد
وكفاح مرير !!

11

بيتهوفن ..

الأيادي المرتعشة لا تصنع مجدًا !!



نشأ بيتهوفن فقيراً وعاش فقيراً حتى آخر لحظة من حياته دون أن يحيد عن مبادئه العليا التي اعتنقها. . ولندع هذا العبقري يروي مأساته بنفسه : يقول : آه منكم أيها الناس الذين ترونني كئيباً، حقوداً، فظ الخلق، إنكم تظلمونني هكذا. أنتم لا تعرفون السبب الغامض لسلوكي هذا، فمنذ سني الطفولة تفتح قلبي وروحي على الرقة والطيبة، وكان هدفي دوماً الوصول إلى الكمال، وتحقيق الأمور العظيمة، ولكن فكروا فى أنني أعاني منذ ست سنوات من ألم لا شفاء له، زاده أطباء عاجزون" .

لقد ولدت حاد المزاج مرهف الإحساس لمسرات الحياة والمجتمع، ولكنني سرعان ما اضطررت إلى الانسحاب من الحياة العامة واللجوء إلى الوحدة، وعندما كنت أحاول أحياناً التغلب على ذلك كنت أصد بقسوة ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أقول للناس: (ارفعوا أصواتكم صيحوا فأنا أصم).

(يا لشدة ألمي عندما يسمع أحد بجانبي صوت ناي لا أستطيع أنا سماعه، أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً، كل هذا كاد يدفعني إلى اليأس، وكدت أضع حدًّا لحياتي البائسة، إلا أن الفن، الفن وحده هو الذي منعني من ذلك).

وعندما أصبح بيتهوفن يتجنب الناس لجأ إلى الطبيعة، يدون فيها أنغامه وألحانه، فأبدع موسيقى تعبر تعبيراً صادقاً عن إحساس الإنسان.

ولا تزال سيمفونياته التسع ومؤلفاته العديدة نبعاً ينهل منه كل محب للموسيقى، وكانت أعظم موسيقاه على الإطلاق تلك التي أنتجها فى مرحلته الأخيرة الصماء،

فمن وسط أشد أنواع العزلة عمقاً، وهب بيتهوفن فهما أعمق. لقد كان مريضاً فقيراً أصم مهجوراً من أعز الناس وأحبهم لديه، ومن خلال هذه الأعماق الرهيبة التي كان يقبع فيها أصدر أعظم ألحانه وأكثرها خلوداً.

لقد أصيب بيتهوفن فى العضو الرئيسي والنبيل بالنسبة لممارسته الموسيقا، ومع ذلك لم يثنه ذلك عن الإبداع والإنتاج على أعلى المستويات، إن لم نقل بأن عاهته السمعية أثرت فى إنتاجه الموسيقي إلى درجة التميز والحساسية المرهفة.

شهدت مدينة بون الألمانية ميلاد الفنان العبقري لودفج فان بيتهوفن فى ١٦ديسمبر عام ١٧٧٠، وتم تعميده فى ١٧ ديسمبر ١٧٧٠. ظهر تميزه الموسيقي منذ صغره، فنشرت أولى أعماله وهو فى الثانية عشرة من عمره عام ١٧٨٣ م. اتسعت شهرته كعازف بيانو فى سن مبكرة، ثم زاد إنتاجه وذاع صيته كمؤلف موسيقى. عانى بيتهوفن كثيراً فى حياته، عائلياً وصحياً، فبالرغم من أن أباه هو معلمه الأول الذي وجه اهتمامه للموسيقى ولقنه العزف على البيانو والكمان، إلا أنه لم يكن الأب المثالي، فقد كان مدمناً للكحول، كما أن والدته توفيت وهو فى السابعة عشرة من عمره بعد صراع طويل مع المرض، تاركة له مسؤولية العائلة. مما منعه من إتمام خطته والسفر إلى فيينا، عاصمة الموسيقى فى ذلك العصر. فهل كان التأليف الموسيقي هو نوع من أنواع العلاج والتغلب على المشاكل بالنسبة لبيتهوفن.

و فى عام ١٧٩٨ بدأ بتهوفن يشعر بالصمم - وهو التاريخ الذي حدده بنفسه لبداية الكارثة - ولم يأخذ هذه الأعراض مأخذ الجد فى بادئ الأمر لأنه ربط بين هذا المرض وما كان يعاني منه من ضعف المعدة والدوزنتاريا. وبعد ذلك بعامين بدأت الحقيقة تتأكد له.. فأخفى المرض عن جميع الناس، لأنه شعر بالمهانة والعذاب مع ما كان يشوّه وجهه من مرض لازمه منذ طفولته.. وهو آثار لمرض الجدري .. كتب لصديقه الدكتور فيجلريبون : "إن أذني تصفر وتؤلمني بشكل دائم ليل نهار، وإن الله وحده ليعلم ماذا سيصير إليه أمري".

بدأ ينسحب من المجتمعات حتى لا يفتضح أمره . لم يكن قادراً على الإفصاح للناس "إنني أصم" . وأضاف: "بالنسبة لي، لا يوجد ترفيه ولا تسلية فى المجتمعات الإنسانية، ولا أستطيع أن أستمتع بحوار شيق أو أن أتبادل أفكاري وأحاسيسي مع الآخرين.. لا مفر من أن أعيش فى منفى.. وبعد قليل، يتعين على أن أضع نهاية لحياتي".. إنه فى هذه المرحلة من حياته كتب وصيته الشهيرة التي تفصح عن أقصى درجات المرارة التي أحس بها والعذاب النفسي الذي عاناه.

إن صراع بتهوفن مع القدر قد بدأ لحظات اليأس هذه .. وبدلاً من الانتحار.. صارع القدر وأبدع أعظم إنتاجه.. وكان كلما اشتد عليه الصمم.. زاد إمكانية على سماع الأصوات الإلهية التي دونها فى موسيقاه. ولذلك عندما وصل صممه إلى منتهاه.. أبدع أعظم أعمال البشرية على الإطلاق.. إن صراعه مع القدر هذا مر بمراحل متعددة.. حتى وصل إلى مرحلة السكينة والهدوء.. لا إذعانا واستسلاما، ولكن انتصارا على قوى الضعف البشري والمرض والمهانة.. لقد وصل فى انتصاره على القدر إلى حد كتابة نشيد السلام.. الذي دعا فيه إلى قمة الوحدة والحب والإخاء بين البشر.

في سيمفونيته الأولى، كان كلاسيكيا رشيقا ولم يسمح لآلام أذنيه ولا أوجاعه العاطفية أن تتدخل فى تشكيل وجدان اللحن أو مضمونه. ولكن سمفونية "البطولة" الثالثة أصبحت مجالاً رومنتيكيا خصبا للتعبير الشخصي.. ولتدخل أحاسيسه بغير موضوعية مجردة- لقد وجد فيها متنفساً للإفصاح عن إعجابه ببطل كان يراه يعمل لخلاص البشرية ومعاداة الملكية المستبدة.. فأهداها لنابليون، وعندما كان يهم بإرسالها إليه بباريس، جاءته الأنباء التي أعلنت خيانة نابليون لمبادئه وتنصيب نفسه إمبراطورا.. ثار بتهوفن ومزق صفحة الإهداء وكتب بدلا منها "سيمفونية البطولة.. فى ذكرى رجل عظيم".. وأفصح أن هذا الرجل لا يزال يحيا بجسده، أما روحه فقد ماتت.. إن مبادئه هذه تبلورت فى كثير من المواقف منها خطابه إلى صديقه الأمير "ليشنوفسكي": "أيها الأمير.. إن مكانتك وإمكانياتك، ترجع إلى

الحظ .. وإلى الوراثة، ولكن أنا أختلف، لأن مجدي ينبع من نفسي، ولا يوجد سوى بتهوفن واحد" .

إن سيمفونيته الخامسة هي أول إفصاح عن عبقريته الناضجة. إنها الرجل الجديد أمام قدره منتصراً بقوة الخير وقوة الإله. إنها ملحمة تصور رحلة الإنسان من العذاب والمعاناة إلى الحكمة والمعرفة، ومن الحكمة إلى الشجاعة إلى الأمل.. ثم إلى الحياة الأبدية الخالدة.

كان عام ١٨٠٨ هو الحد الفاصل الذي أنهى فيه مهنته كعازف تاريخي نادر للبيانو.. فقد حال صممه، الذي كان قد وصل إلى مرحلة متأخرة، دون استمراره فى العزف، رغم أنه سراً، كان قد طلب إضافة وتر لأوتار البيانو ذات الطبقة الموسيقية الواحدة حتى تزداد القوة، فيساعده ذلك على سماع نفسه وهو يعزف.. ولكنه واصل عمله كقائد للأوركسترا لتقديم العروض الأولى لأعماله العظيمة.. التي توجها بالسيمفونية التاسعة (الكورالية).. وقد قال عنها فاجنر:

"إننا ننظر إلى هذا العمل كعلامة تاريخية تحدد عهداً جديداً فى هذا الفن العالمي.. فمن خلاله عاش العالم ظاهرة نادرة قلما يجود التاريخ بمثلها.. فى أي زمان أو مكان"..

وقال ناقد آخر هو "سنتيانا":

"إن الله قد خلق العالم حتى يكتب بتهوفن سمفونيته التاسعة"..

إنها وصية الحب والسلام.. (ليحتويكم الحب يا ملايين البشر .. ها هي قبلة لكل العالم)..

يقسم الكثير من النقاد حياة بتهوفن إلى ثلاث مراحل .. رغم أن ذلك لا يقره آخرون.. فإن المرحلة الأولى هي التي تتسم فيها أعماله بالطابع الكلاسيكي لهايدن وموتسرت وهي تبدأ بعام ١٧٩٥ وتنتهي عام ١٨٠٣.. وتشهد هذه الفترة ما يقرب

من خمسين عملاً موسيقيا تتضمن العديد من سوناتات البيانو وأهمها "ضوء القمر" و"المؤثرة" والسيمفونيتان الأولى والثانية.. أما المرحلة الثانية فتبدأ بعام ١٨٠٤ حتى ١٨١٦ .. وتتسم بالشاعرية والثورية وبشخصيته الرومنتيكية.. وخلالها كتب سيمفونيته الخامسة وأوبرا "فيديليو" وافتتاحيات "كوريولان" و"اجمونت".. أما المرحلة الأخيرة والتي شملت السنوات العشر الأخيرة من حياته؛ فقد تضمنت سيمفونيته التاسعة "والقداس الكبير" وسوناتاته ورباعياته الوترية الأخيرة. وهو فى هذه المرحلة يرتفع على صراعه الشخصي مع القدر.. وتعبيره عن فرديته وشاعريته وفلسفته. إنه يتخطى نفسه ويجتازها إلى شعور أعم وأعمق.. إلى وحدة مع الإنسانية .. وصفاء وسلام وتعانق بين كل البشر..

وعندما رقد بتهوفن على فراش الموت .. التف حوله "شندلر" و"بروويننج" وأخوه "يوهان".. وكان يقرأ لـ "سكوت" و"أوفيد".. كما كان فى منتهَى السعادة من مجلد وصله من أحد أصدقائه الإنجليز عن مؤلفات لهيندل .. وفي الثالث والعشرين من مارس عام ١٨٢٧.. أصبح واضحاً أن النهاية قريبة لا محالة، فوقع وصيته، ووافق أصدقاؤه على أن يصلي له قسيس الصلاة الأخيرة.. كان قد مرض بالصفراء فى عام ١٨٢١ ولكن المرض عندما عاوده هذه المرة.. كان قاتلا.. وفي يوم ٢٤ مارس / آذار وصلته هدية من نبيذ الراين، علق عليها بقوله: "واأسفاه، لقد وصلت متأخرة ".. ثم قال : "هللوا أيها الأصدقاء، فقد انتهت المهزلة".. وفقد الوعي حتى يوم ٢٦ مارس / آذار عندما دوى الرعد ولمع البرق فى عاصفة عارمة. فرفع رأسه وفتح عينيه.. ثم أغمضهما إلى الأبد..

وإذا تساءلنا كيف كان بيتهوفن يستمع إلى موسيقاه؟ فالمصادر تذكر أنه عندما اشتد نقص السمع لديه كان يستمع إلى مقطوعاته وعزفه بوضع طرف مسطرة بين أسنانه بينما يضع طرفها الآخر على البيانو، وهو ما يطلق عليه السمع بالطريق العظمي.

وهذا الأمر يتناسب مع آفة توصيلية ثنائية الجانب، لأنه فى هذا النمط من الآفات نستطيع السماع بالطريق العظمي، بينما فى الآفات الحسية العصبية لايمكن الاستفادة من هذا الطريق.

فأمام نقص سمع توصيلي ثنائي الجانب متدرج، فى بداية الكهولة، نفكر بتشخيص تصلب الركابة ولكن ذلك بشكل غير مؤكد فما هو إلا تشخيص بالطريق الراجع اعتماداً على وصف بيتهوفن لنقص السمع لديه.

يلاحظ من كلام بيتهوفن حالة العزلة الشديدة التي يفرضها نقص السمع، ويضاف إلى ذلك التأثير السيء المزعج الذي قد ينجم عن وجود طنين مرافق.

عندما ولد بيتهوفن فى بون كانت المدينة فى ذلك الوقت مركز ألمانيا الثقافي الذي انطلقت منه إلى أوروبة أفكار العلم والفلسفة والمنطق والديمقراطية المناهضة للملكية والكنيسة والأرستقراطية. وأثرت تلك البيئة بشكل كبير على نشأته. تأثر بيتهوفن بموتزارت الذي ولد قبله بأربعة عشر عاماً وكان ناقمًا على التمييز الطبقي الذي كان يحكم المجتمع.

لم يسلم الموسيقيون والمؤلفون فى ذلك الوقت من التمييز فكانوا خدماً أو موظفين يعزفون للطبقات الملكية والأرستقراطية فى المسارح. موتزارت كان يعزف فى أول شبابه لكبير الأساقفة كولوريدو وهو جالس بجانب الطباخين.

كبر بيتهوفن فى جو يحث الموسيقيين والمؤلفين على تغيير نمط حياتهم. كان والده يدرس الموسيقَى لطبقة النبلاء وحين بدأ بيتهوفن بالعزف أخذه والده ليعزف أمامهم. فى كثير من الأحيان كان والد بيتهوفن يكذب بشأن عمر ابنه لأنه أراد أن يبدو طفلاً معجزة لكن بيتهوفن لم يكن بحاجة إلى ذلك لأن ما قدمه بغض النظر عن عمره كان يبشر بعبقرية كبيرة، تلك العبقرية تم صقلها وإظهارهاعلى يدي مدرسه "كريستيان نيف" الذي كان يقول "لا يستطيع الموسيقي أن يحرك مشاعر الآخرين إن لم تكن مشاعره تتحرك، العزف يجب أن يكون من الروح".

كتب بيتهوفن أول عمل للأوركسترا تحت إشراف نيف عندما كان فى الرابعة عشرة من عمره. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية كان بيتهوفن فى الثامنة عشرة أثرت الثورة بشكل عميق على بيتهوفن إضافة إلى أنها أتت ببارقة تحرير الموسيقيين من الاعتماد على الطبقة المالكة. توقف فى ذلك الوقت كل من "هايدن"، "موتزارت" و"بيتهوفن" عن العمل لدى الطبقة الملكية وقام بيتهوفن بتأليف مقطوعة لآلة الكمان تعزف والكمان بشكل مقلوب كتعبير داخلي عن ثورته وإعجابه بالثورة.

أدرك بيتهوفن أنه كي يستطيع متابعة مساره الفني عليه الذهاب إلى فيينا، عاصمة الموسيقى فى أوروبة ومدينة عباقرة الموسيقى فى ذلك الوقت (بيتهوفن– موتزارت) ومن أتى بعدهم (شوبرت – ستراوس). كان بيتهوفن مدفوعا بالفردية الإنسانية هارباً من العالمية الإنسانية وكان للفرد فى نظره القيمة الكبرى. فى تلك الأوقات كان أكثر الشخصيات إثارة للجدل فى أوروبا هو نابليون الذي لم يكن فرداً ثائراً فحسب بل ثائرا منتصرا يحاول توحيد مقاطعات أوروبة ويكتب حقوق الإنسان بصيغة جديدة فيها. كان لانتصارات نابليون وما تمثلها الأثر الأكبر على بيتهوفن سياسياً وثقافياً وعلى الصعيد الشخصي أيضاً. أكثر ما كره بيتهوفن هو تعليم الطلاب الأرستقراطيين والأغنياء الذين كانوا يسعون لدراسة الموسيقى غالباً بسبب ما تقتضيه عليهم مكانتهم الاجتماعية. أحد طلابه قال إنه أتى يوماً إلى منزل بيتهوفن وكان يدندن لحناً فألقى بطالبه جانباً وبدأ بعزف اللحن ونسيه تماماً لأكثر من ساعة وعندما انتهى قام بصرف تلميذه. الغريب عن الصورة الشائعة عن موسيقيين كبيتهوفن أنه كان لا يأبه لأخطاء طلابه الفادحة فى النغمات بل يقول "النغمات يمكن تعلمها فيما بعد، المهم أن يعزف الإنسان بصدق". سلوك بيتهوفن العاطفي المتطرف والغريب لم يكن بسبب مشكلة نفسية لديه بل نتيجة لإيمانه بأهمية الفردية – الإيمان الذي زاده انتصار نابليون فى تلك الفترة. كان بيتهوفن يرقص فرحاً عندما اقترح عليه السفير الفرنسي فى فيينا أن يقدم سيمفونيته الثالثة (إيرويكا) EROICA إلى نابليون. تلك السمفونية – التي عزفت على سلم

موسيقِي مختلف عما هو سائد – كانت من أكثر أعماله وأطولها وأكثرها تعقيداً، ووضع فيها بيتهوفن كل عمقه.

روت (إيرويكا) قصة كاملة بافتتاحيتها التي تحتفل بالاتصارات العسكرية، والمارش الجنائزي الذي يحتفل بموت القيم القديمة. كان بيتهوفن يتحدث فيها عن قصص انتصارات نابليون بطريقته الخاصة. لكن قصة السمفونية الثالثة انقلبت بشكل كبير فى اليوم الذي كان بيتهوفن سيرسلها إلى نابليون حين دخل أحد أصدقائه عليه مخبراً إياه أن نابليون تخلى عن مبادئه الجمهورية واعلن نفسه امبراطوراً. فور سماعه النبأ ثار بشكل جنوني وقام بتمزيق عنوان سمفونيته واسم نابليون عليها. الطريف أيضاً أن سمفونيته الثالثة وبعد أن غيَّر الإهداء مُنعت فى براغ بحجة كونها "فاسدة أخلاقياً".

لم يكن نابليون مشكلة بيتهوفن الوحيدة، فقد بدأ الطرش التدريجي الذي أصابه فى منتصف العشرينات من عمره يؤثر عليه بشكل سلبي جداً فيشعر بالألم من الأصوات المرتفعة ويخاف من من نظرة المجتمع إليه بسبب مرضه.

بدأت إصابة بيتهوفن بصمم بسيط عام ١٨٠٢، فبدأ فى الانسحاب من الأوساط الفنية تدريجياً، وأمضى حياته بلا زواج يرتبط بعلاقات عدة مع سيدات صغيرات. إلا أنه لم يتوقف عن الإنتاج الفني، ولكن أعماله اتخذت اتجاها جديدا. ومع ازدياد حالة الصمم التي أصابته، امتنع عن العزف فى الحفلات العامة، وابتعد عن الحياة الاجتماعية واتجه للوحدة، وقلت مؤلفاته، وأصبحت أكثر تعقيداً. حتى أنه رد على انتقادات نقاده بأنه يعزف للأجيال القادمة. وبالفعل لا تزال أعماله حتى اليوم من أهم ما أنتجته الموسيقى الكلاسيكية العالمية. واكتسبت اثنان من السيمفونيات التي كتبها فى صممه أكبر شعبية، وهما السيمفونية الخامسة والتاسعة. كما أنه أحدث الكثير من التغييرات فى الموسيقى، وأدخل الغناء والكلمات فى سيمفونيته التاسعة.فجاءت رسالته إلى العالم "كل البشر سيصبحون إخوة".

وبالرغم من اليأس الذي أصابه فى أوقات عديدة، وكاد يصل به للانتحار، إلا أنه قاوم ووجه طاقته كلها للإبداع الفني. حتى أنه قال يوماً :«يا لشدة ألمي عندما يسمع أحد بجانبي صوت ناي لا أستطيع أنا سماعه، أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً، كل هذا كاد يدفعني إلى اليأس، وكدت أضع حداً لحياتي اليائسة، إلا أن الفن وحده هو الذي منعني من ذلك». وطالما أضاف عدم تفهم الناس لحالته ألماً على ألمه. ولكن معاناته لم تطل كثيراً، فقد توفي عن عمر يناهز السابعة والخمسين، بعد أن أثرى الموسيقى الكلاسيكية العالمية، وصار أحد أعلامها الخالدين.

بقي بيتهوفن عامين كاملين يحاول تجنب المناسبات الإجتماعية لخوفه من أن يقول الناس عنه أنه أطرش، ومكث فى بيته يكتب أوبرا أسماها "فيديليو".

كانت "فيديليو" بمثابة محاولة لبيتهوفن من أجل فهم الأحداث التي جرت فى حياته. اثناء تأليفها أدرج قولاً فى أوراقه اقتبسه من الشاعر فريدريك شيلر "الشحاذ أخ للأمير". وأعاد كتابتها عدة مرات وفي كل مرة كانت أكثر ثورية حتى إن أحد النقاد قال فى ذلك الوقت "كلما أعاد بيتهوفن كتابة الأوبرا تلك أجد فيها علماً جديدا للثورة الفرنسية". فى ذلك الوقت كان بيتهوفن يؤلف أيضاً سمفونياتين إضافيتين: "الخامسة" التي عزفت نهاية عام ١٨٠٦ والسمفونية السادسة التي كانت تحكي قصة مزارعين فرحَى ينتظرون تحسن الأجواء ليبدأوا الحصاد. لا يمكن الجزم بشكل دقيق بما كان يقصده بيتهوفن لكنه كان يكتب عن المزارعين عام ١٨٠٨ فى فيينا، وأغلب الاعتقاد أن القصة التي حاول تقديمها لم تكن بتلك البساطة بل كان المزارعون فى نظره رمزاً للثورة التي اعتمدت عليهم كثيراً لتحقيق نجاحها. طلب بيتهوفن الزواج من فتاة فى الثامنة عشرة لكنها رفضته فى الوقت الذي كانت فيه فيينا تئن تحت مدافع نابليون. الألم الشديد فى أذني بيتهوفن والذي سببه صوت المدافع دفعه إلى المكوث فى قبو منزله مغطياً أذنيه بالوسائد يوم دخل الجيش الفرنسي فيينا.

كل تلك الحوادث المجتمعة فى حياته أدت إلى سلوك كسلوك العباقرة، كان يشرب الكثير من القهوة وكان يشترط أن يكون كأس القهوة محضراً بستين حبة بن تماما. كان يغضب إن وصلته رسالة أو بطاقة معايدة. وفقاً لمساعده فقد كان يمضي أغلب وقته فى غرفته يدندن ألحاناً بصوت مرتفع ويسكب الماء على يديه بكمية كبيرة حتى إن سكان الشقة أسفله كانوا بتذمرون من تسرب الماء. كانت غرفته قذرة ومهملة وفوضوية جداً. كان يشتري البيض ويقوم بكسره على رأس صاحبة المنزل إن لم يكن طازجاً. حاول أصدقاؤه مساعدته بشكل دائم لكن بدون فائدة. فى عام ١٨١٢ كتب سلسلة من الرسائل إلى حبيبة بقيت مجهولة وبقيت بعيدة عنه. تلك الإحباطات العديدة فى حياته أثرت على مشاعره بشكل كبير وبدأ يكره نابليون بالدرجة التي أحبه بها سابقاً ورفض عدة عروض للعمل كمؤلف للإمبراطور.

في عام ١٨٢٣ أنهى بيتهوفن سمفونيته التاسعة – الأطول بين كل أعماله– والتي كانت بعنوان "كل البشر إخوة" كلحن لشعرية فريدريك شيلر "إلى السعادة"Ode to Joy والتي يضيء فيها شيلر الرغبة الإنسانية بالسعادة بالرغم من الآلام. هذه السمفونية تعيد للأذهان مقولة "الشحاذ أخ للأمير" التي أحبها. يوم عزفت السمفونية لأول مرة كان المسرح مكتظاً بالناس فى حين أن القسم المخصص للطبقة المالكة كان فارغاً. كانت تلك أروع أعماله وأجملها لحنا وأكثرها شهرة. هذا اللحن الذي أصبح فيما بعد نشيداً للاتحاد الأوروبي.

بالرغم من النجاح الذي حققه بيتهوفن فى ذلك الوقت إلا أنه كان يعاني من الفاقة المادية ولم تكن واردات حفلاته لتغطي تكلفتها. إضافة إلى أنه أصبح أطرش تماماً واضطر لحمل دفتر كي يستطيع التواصل مع الناس، كان يشرب الكحول بشكل مفرط وكان ذا مزاجٍ عصبيٍّ وكانت رفقة الناس تثيره فيفضل إمضاء وقته وحيداً.

ألف بيتهوفن فى حياته عشرات المقطوعات والسمفونيات والأوبرا وعشرات من الأغاني الاسكوتلندية. أما أعماله غير المكتملة فهي أكثر بكثير، ورغم ذلك

كان يقول أنه لم يؤلف شيئاً يذكر بعد. انتهت حياة بيتهوفن عام ١٨٢٧ بسبب ما كان يعتقد أنه فشل فى الكبد والكلى . ولكن حتى موته عام ١٨٢٧ كان بيتهوفن قادرا على كتابة ألحان أصيلة وعميقة ملهماً بالبيئة والزمن الذي عاش فيه حتى إنه فى أسوأ لحظات كآبته استطاعت موسيقاه أن توصل تلك الكآبة إلى المستمعين. كان "بوب مارلي" عصره لما يمثله من ثورة موسيقية - مثال الموسيقي الثائر والمتمرد. حياة بيتهوفن لم تكن حياة إنسان عبقري فقط بل عبقري مليء بالعاطفة، مشبع بأفكار الثورة الفرنسية وفترة حكم نابليون.كانت سيرة بيتهوفن من أكثر السير تعاسة بالنسبة لعبقري ثائر ابتلي بالعديد من المصائب حتى موته.

و فيما يلي أهم أعمال هذا العبقري المبدع :

أعمال الأوركسترا

أولا السيمفونيات :-

*السيمفونية الأولى فى سلم دو الكبير مصنف رقم ٢١(١٨٠٠)

*السيمفونية الثانية فى سلم رى الكبير مصنف رقم ٣٦(١٨٠٣)

*السيمفونية الثالثة (البطولية eroica) فى سلم مى بيمول الكبير مصنف رقم ٥٥ (١٨٠٥)

*السيمفونية الرابعة فى سلم سى بيمول الكبير مصنف رقم ٦٠ (١٨٠٧)

*السيموفنية الخامسة فى سلم دو الصغير مصنف رقم ٦٧(١٨٠٨)

*السيمفونية السادسة (الرعوية pastoral) فى سلم فا الكبير مصنف رقم ٦٨ (١٨٠٨)

*السيمفونية السابعة فى سلم لا الكبير مصنف رقم ٩٢(١٨١٣)

*السيمفونية الثامنة فى سلم فا الكبير مصنف رقم ٩٣(١٨١٤)

* السيموفونية التاسعة (الكورالية) فى سلم رى الصغير مصنف رقم ١٢٥ (١٨٢٤)

ثانيا الكونشرتو :-

* كونشرتو للبيانو والأوركسترا رقم ١ فى سلم دو الكبير مصنف رقم ١٥ (١٧٩٧)
* كونشرتو للبيانو والأوركسترا رقم ٢ فى سلم سى بيمول الكبير مصنف رقم ١٩ (١٧٩٨)
* كونشرتو للبيانو والأوركسترا رقم ٣ فى سلم دو الصغير مصنف رقم ٣٧ (١٨٠٣)
* كونشرتو ثلاثى للبيانو والفيولينه والتشيلو والأوركسترا فى سلم دو الكبير مصنف رقم ٥٦ (١٨٠٥)
* كونشرتو للبيانو والأوركسترا رقم ٤ فى سلم صول الكبير مصنف رقم ٥٨ (١٨٠٦)
* كونشرتو للفيولينه والأوركسترا فى سلم رى الكبير مصنف رقم ٦١ (١٨٠٦)
* كونشرتو للبيانو والأوركسترا رقم ٥ فى سلم مى بيمول الكبير مصنف رقم ٧٣ (١٨٠٩)

ثالثا الافتتاحيات :-

* " مخلوقات برموثيوس " مصنف رقم ٤٣ (١٨٠١)
* افتتاحية ليونور الثانية فى سلم دو الكبير مصنف رقم ٧٢أ(١٨٠٦)
* افتتاحية ليونور الثالثة فى سلم دو الكبير مصنف ٧٢ب(١٨٠٦)
* افتتاحية ليونور الأولى فى سلم دو الكبير مصنف رقم ١٣٥

(ألفها بيتهوف عام ١٨٠٧ ثم استبعدها إلى أن تم أداؤها بعد وفاته عام ١٨٢٨)

* افتتاحية "كوريليان" مصنف رقم ٦٢ (١٨٠٧)
* افتتاحية "إجمونت" مصنف رقم ٨٤ (١٨١٠)
* "حطام أثينا" مصنف رقم ١١٣ (١٨١١)
* "انتصار ولنجتون" مصنف رقم ٩١
* افتتاحية "فيديلو" مصنف رقم ٧٢×(١٨١٤)
* "البيت المكرس "مصنف رقم ١٢٤ (١٨٢٢)

كما ألف بيتهوفن لأوبرا "فيديلو" أربع افتتاحيات، افتتاحيات ليونور (احد الشخصيات الرئيسية فى الأوبرا) الثلاثة وافتتاحية فيديلو

- موسيقى البيانو

اثنتان وثلاثون سوناتاأشهرها السوناتا الرابعة عشرة والمعروفة لاحقاً بـ(ضوء القمر)، سوناتا Appassionato والعاصفة (The Tempest) والـ Hammerklavier

ولبيتهوفن أعمال أخرى على البيانو ليست بضخامة السوناتا إلا أنها قد تكون أكثر شهرة وقد سميت بالألماية (Bagatelle) وتعني هذه الكلمة بالألمانية السخيف، وذلك بسبب قصرها وعدم احتوائها على رسالة فلسفية أو إنسانية من نوع ما وإنما تكون للاستعراض أو تقدم كهدية لشخص ما وهذا هو الحال مع الـ Bagatelle رقم ٢١ على سلم "لا" الصغير وتسمى Für Elise. وسميت كذلك لأن بيتهوفن أهداها لفتاة يافعة شفيت من مرض تعرضت له.

- موسيقى الحجرة

ست عشرة رباعية وترية، فوجة، عشر سوناتات للكمان والبيانو، خمس سوناتات للتشيلو والبيانو

- **موسيقى الأوبرا**

- **أوبرا فيديليو**

- **موسيقى الكورال**

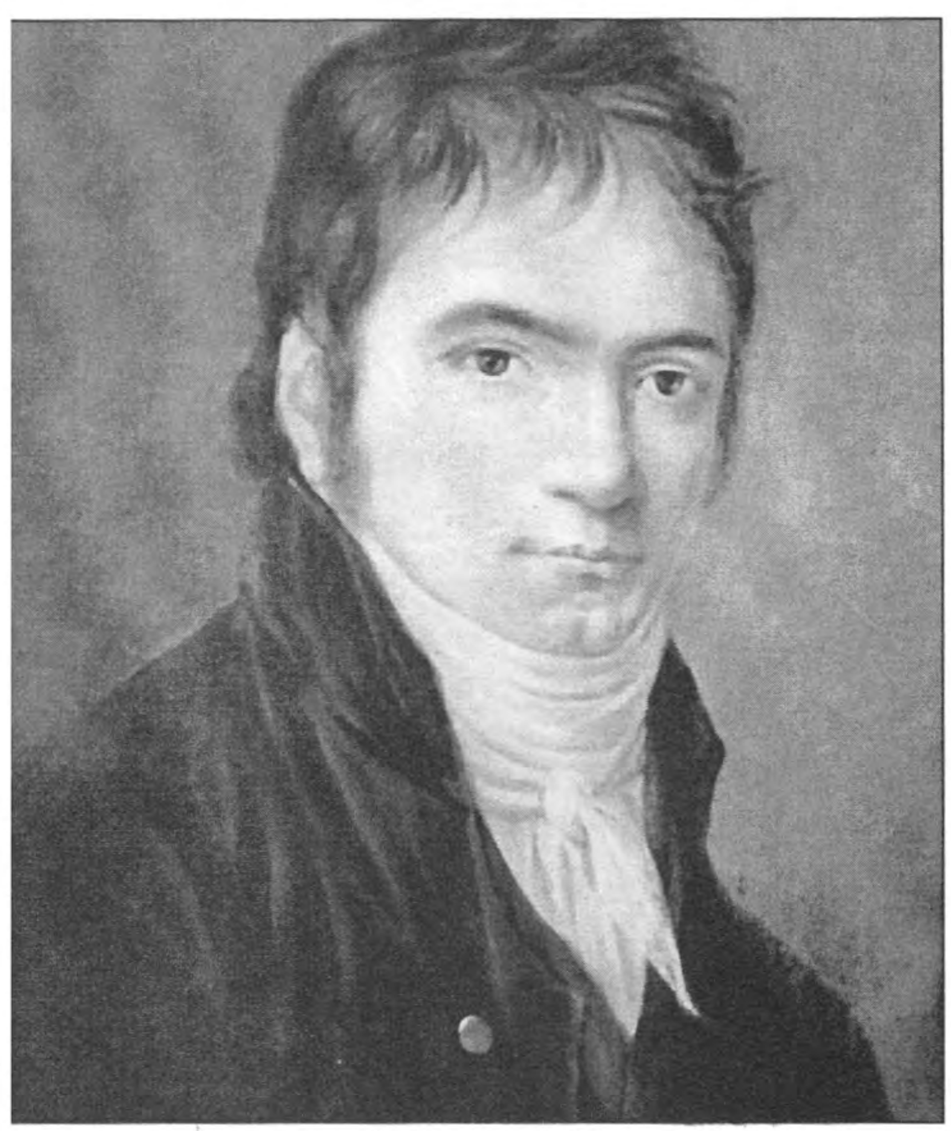
- **قداس ميسا سولمنيس بب**

هذا هو بيتهوفن أشهر المؤلفين الموسيقيين الذين عرفهم التاريخ، الذي استطاع أن ينبغ فى هذا الفن الراقي فقدم للعالم أشهر السيمفونيات التي لا تزال أصابع العازفين ترددها إلى الآن، وظلت هذه السيمفونيات باقية لتشهد على مدى الإبداع الذي تميز به هذا الفنان العظيم.

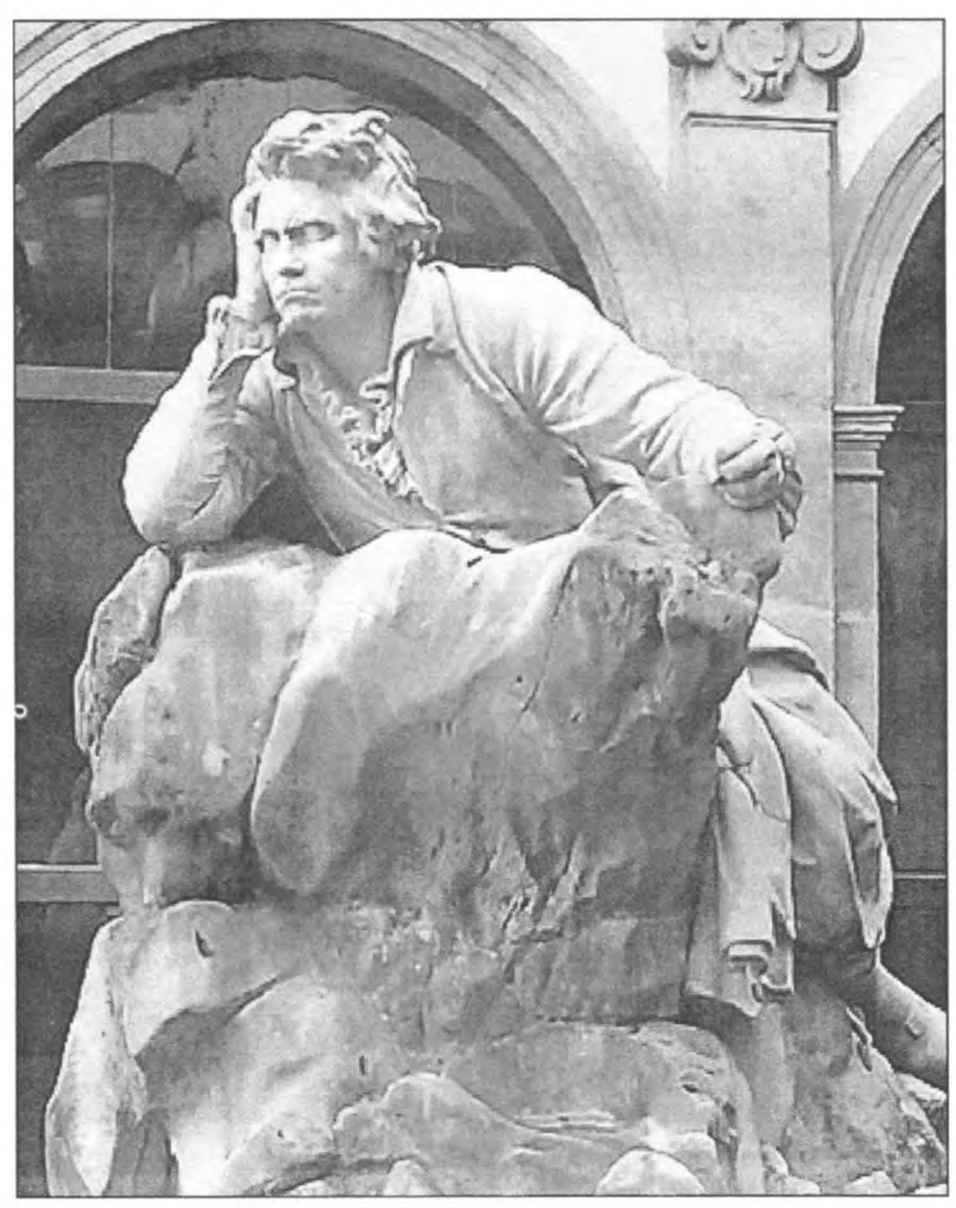
عزفت سيمفونيته التاسعة أو "السيمفونية الكورالية" كما يطلق عليها أحياناً لأول مرة فى عام ١٨٢٤م فى فيينا وتعد من أشهر وأهم المؤلفات فى الموسيقى الكلاسيكية وهي المقطوعة الموسيقية التي تمجد معاني الإنسانية والأخوة.

تبنى بيتهوفن الموسيقى الرومانسية الكلاسيكية فقدم العديد من الأعمال التي ميزته عن غيره، ويعتبر بيتهوفن أحد مؤسسي الموسيقى الرومانسية فى القرن التاسع عشر، فهو ينتمي إلى الفترة الرومانسية الكلاسيكية فى التاريخ الموسيقي، وحتى الآن يتهافت العديد من الناس من عشاق بيتهوفن على شراء مخطوطات نوتاته الموسيقية دافعين فيها مبالغ مالية ضخمة ،وخيالية من أجل اقتنائها.

بقي أن نقول إنه قد أعيد مؤخرًا البحث فى سبب موت بيتهوفن واستنتج المحللون وجود نسبة رصاص عالية فى جسمه قد تكون سبب موته. خرجت نظرية المؤامرة فاعتبر أنه مات مسموماً بالرصاص. البعض أيضاً اعتقد أن الماء الذي كان يشربه ملوثاً .



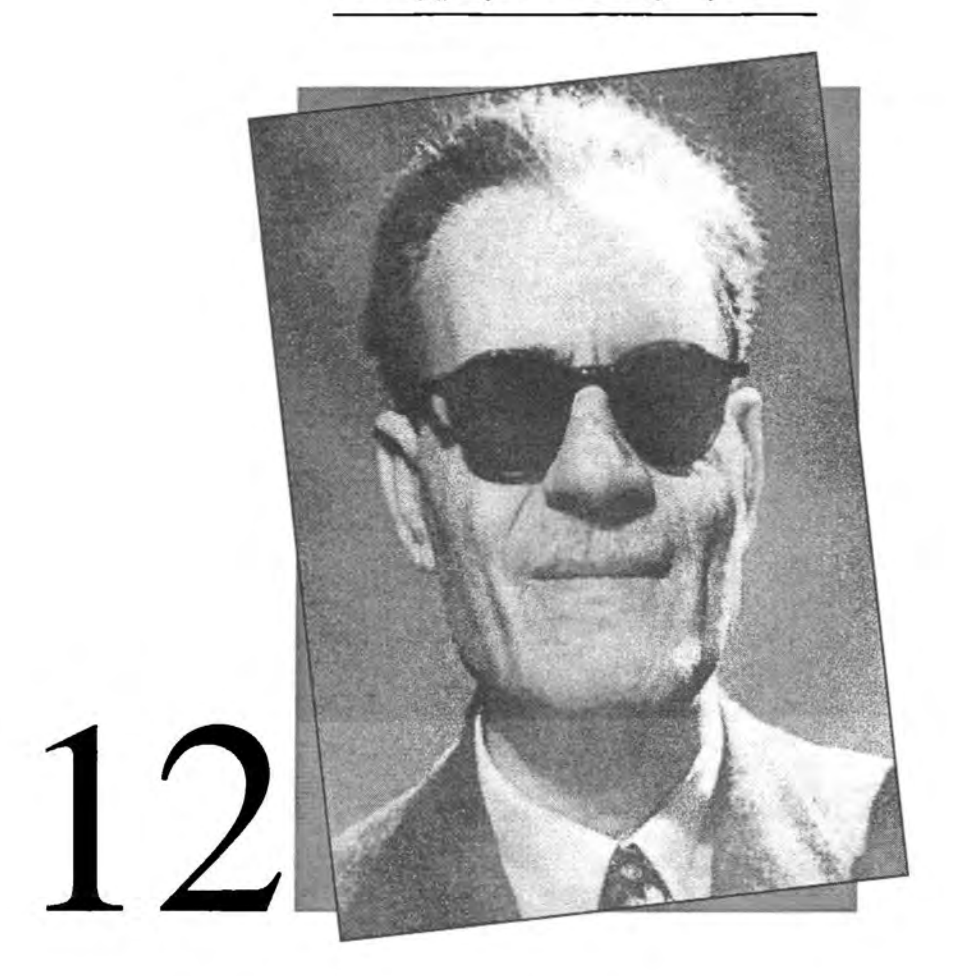
بيتهوفن .. هكذا كان يبدو عندما أصيب بالصمم .



تمثال لبيتهوفن فى مدينة بون الألمانية والذي رُفع تخليدًا لذكراه .

طه حسين ..

خذله بصره فخلدته بصيرته !!



12

قال جان جاك رُوسُّو: " أحسستُ قبل أن أفكر" .. وجاء طه حسين ليقول: "تألمت قبل أن أفكر " .. فى البدء كان الألم عند طه حسين .. وجاء الفكرعنده ليقهر الألم لأنه آمن منذ بداية حياته أن الفكر يبدّد الألم، ويذلل العقبات، وكان يقول على غرار أستاذه ديكارت :" أنا أتألم إذن أنا موجود " لكن ثقته العميقة بنفسه قادته إلى قهر الألم، كما قادته إلى أن يُقارن نفسه بشواطئ النيل الرطبة التي حين يُضغط عليها تنبع ماءً .

ولم يكن الألم فعلا عند طه حسين وليد ثقافة تأثر بها وإنّما كان حياة يعيشها، ابتداءً من فقد البصر المبكر والصراع ضد التقاليد ثم الصراع مع الأزهر ثم ألمه -وهوالريفي البسيط فاقد البصر - فى التأقلم مع أجواء جامعة السوربون فى باريس، وقاده هذاالصراع مع الألم والانتصار عليه إلى موقع لا يبلغه إلاّ القليلون، موقع الرجل الذي يفكر ويطبق ما يفكر به، يأتي بنظرية ثم يُبدع فى تطبيقها.

لقد كان شعوره بالألم الناتج عن ظلم الحياة، وظلم المجتمع حاداً، ولكنه أدرك أن قدرته على العطاء مرهونة بسلامة الإدراك لذلك مارس على نفسه ضبطاً عظيماً فروَّضها وانتصر عليها، لأنه كان يعرف أن الانتصار فى الحياة لايتم إلاّ عن طريق الانتصار على النفس.

و يُعطينا كتابه " الأيام " صورة عن صراعه مع الألم، لأنه يلخص لنا سيرة حياة إنسان غالبَ مافي ذاته من عوائق وانتصر عليها، وصارع ما حوله من شروط مُعيقة وانتصر، ونتعلم منه أن الظروف قابلة لأن تتبدّل لصالح الإنسان بالعمل والدأب والصدق مع الذات.

ولد في ١٤ نوفمبر ١٨٨٩ وعاش فى منطقة تسمى عزبة الكيلو تبعد ١٠ كيلو متر عن محافظة المينا بصعيد مصر وفقد بصره وعمره ٣ سنوات بسبب رمد فى عينه فعالجه الحلاق بطريقة خاطئة اودت بعينيه كلتيهما ففقد البصر بسبب الجهل والتخلف وربما كانت تلك العاهة انطلاقا لولادة إنسان لم ينسه التاريخ والعالم .

وكان والده موظفا فى شركة السكر وأنجب ١٣ ولدا وكان طه حسين السابع فى الترتيب.

وكان انطوائيا يشعر أحيانا بالاكتئاب، جادا فى حياته، انصرف فى طفولته إلى الاستماع إلى القصص والأحاديث و إلى آيات القران الكريم وقصص الغزوات والفتوحات وأخبار عنتر ومن ثم أتقن التجويد وحفظ القران كاملا قبل أن يكمل العشر السنوات.

اتجه طه حسين بعد ذلك نحو القاهرة عام ١٩٠٢ وذلك لكي يبدأ رحلته العلمية فالتحق بالأزهر وذلك لكي يتفتح ذهنه على المزيد من العلوم، ولكن قابلته مشكلة هامة، وهي أن أساتذته كانوا يدرسون العلم بشكله التقليدي غير مطلعين على الحديث منه، بالإضافة لعدم إلمامهم بالثقافات الأخرى مما جعل التعليم يأخذ - في نظره - شكلا جامدا غير متجدد .

ولم يرض طه حسين أن يكون تعليمه بهذا الشكل فاصطدم كثيراً بشيوخه حيث كان يعارضهم، ويجادلهم فى تفسير بعض أمور النحو واللغة، والأدب مما أدخله فى مشاكل دائمة معهم.

قرر طه بعد ذلك الانتقال لجامعة عادية، وليست جامعة دينية فقام بالالتحاق بالجامعة المصرية فى عام ١٩٠٨ فتلقى الدروس فى الحضارة الإسلامية، والحضارة المصرية القديمة بالإضافة لدراسته للجغرافيا، والتاريخ، واللغات السامية والأدب، والفلسفة .

وخلال هذه الفترة قام بتحضير رسالة الدكتوراه، والتي نُوقشت فى الخامس عشر من مايو ١٩١٤، فتخرج فى الجامعة حائزاً على درجة الدكتوراه فى الأدب

العربي وكان موضوع رسالته عن أبي العلاء المعري، وهو أحد شعراء العرب البارزين، والذي فقد بصره صغيراً أيضاً مثل طه حسين.

لم يكتف طه حسين بهذا القدر من التعليم على الرغم من حصوله على درجة الدكتوراه، ولكن دائماً كانت لديه رغبة لتلقي المزيد من العلم، فقرر أن يسعى من أجل السفر إلى فرنسا، وبالفعل تمكن من الحصول على بعثة لفرنسا فبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة فى حياته فالتحق بجامعة مونبليه فى عام ١٩١٤ حيث تخصص فى الأدب، والدراسات الكلاسيكية وتخرج منها بتفوق كالعادة، وكان الوحيد من ضمن طلبة البعثة الذي تمكن من تحقيق النجاح.

انتقل بعد ذلك للعاصمة الفرنسية باريس للدراسة بجامعة السوربون، وذلك فى الفترة ما بين "١٩١٥ – ١٩١٩" والذي حقق فيها النجاح أيضاً فتخرج منها حاصلاً على درجة الليسانس، كما حصل على شهادة الدكتوراه عن رسالة أعدها باللغة الفرنسية موضوعها "دراسة تحليلية نقدية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية".

وفي فرنسا التقى طه حسين مع شخصية رائعة أعانته كثيراً فى هذه الفترة فى حياته، وكانت هذه الشخصية هي السيدة سوزان التي تزوجها فى عام ١٩١٧ وكان لهذه السيدة عظيم الأثر فى حياته فقامت له بدور القارئ فقرأت عليه الكثير من المراجع، وأمدته بالكتب التي تم كتابتها بطريقة بريل حتى تساعده على القراءة بنفسه، كما كانت الزوجة والصديق الذي دفعه للتقدم دائماً وقد أحبها طه حسين حبّاً جمّاً، ومما قاله فيها أنه "منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم"، وكان لطه حسين اثنان من الأبناء هما أمينة ومؤنس.

شغل الدكتور طه حسين العديد من المناصب، والمهام، نذكر منها عمله كأستاذ للتاريخ اليوناني، والروماني، وذلك فى عام ١٩١٩ بالجامعة المصرية بعد عودته من فرنسا، ثم أستاذاً لتاريخ الأدب العربي بكلية الآداب وتدرج فيها فى عدد من المناصب، ولقد تم فصله من الجامعة بعد الانتقادات، والهجوم العنيف الذي تعرض له بعد نشر كتابه "الشعر الجاهلي" عام ١٩٢٦.

ولكن قامت الجامعة الأمريكية بالقاهرة بالتعاقد معه للتدريس فيها، وفي عام١٩٤٢ أصبح مستشاراً لوزير المعارف ثم مديراً لجامعة الإسكندرية حتى أحيل للتقاعد فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٤، وفي عام ١٩٥٠ أصبح وزيراً للمعارف، وقاد دعوة من أجل مجانية التعليم وأحقية كل فرد أن يحصل على العلم دون حصره على الأغنياء فقط، " وأن العلم كالماء، والهواء حق لكل إنسان"، وهو ما قد كان بالفعل فلقد تحققت مجانية التعليم بالفعل على يديه وأصبح يستفاد منها أبناء الشعب المصري جميعاً، كما قام بتحويل العديد من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية، وكان له الفضل فى تأسيس عدد من الجامعات المصرية، وتحويل عدد من المدارس العليا إلى كليات جامعية مثل المدرسة العليا للطب، والزراعة، وغيرهما.

وشغل طه حسين منصب رئيس تحرير لعدد من الصحف، وقام بكتابة العديد من المقالات، هذا بالإضافة لعضويته فى العديد من المجامع العلمية سواء داخل مصر أو خارجها.

وقد أثرى طه حسين المكتبة العربية بالعديد من الأعمال والمؤلفات، وكانت هذه الأعمال الفكرية تحتضن الكثير من الأفكار التي تدعو إلى النهضة الفكرية، والتنوير، والانفتاح على ثقافات جديدة، هذا بالإضافة لتقديمه عدد من الروايات، والقصة القصيرة، والشعر نذكر من أعماله المتميزة " الأيام" عام ١٩٢٩م والذي يعد من أشهر أعماله الأدبية، كما يعد من أوائل الأعمال الأدبية التي تناولت السيرة الذاتية للكاتب نفسه.

ونذكر من أعماله أيضاً "على هامش السيرة، حديث الأربعاء، مستقبل الثقافة فى مصر، الوعد الحق، فى الشعر الجاهلي، المعذبون فى الأرض، دعاء الكروان، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، من بعيد، صوت أبي العلاء، الديمقراطية فى الإسلام، طه حسين والمغرب العربي".

كما قام بترجمة عدد من المؤلفات الهامة إلى العربية، وترجمت مؤلفاته هو شخصياً إلى عدد من اللغات، وله العديد من البحوث.

وقد دعا طه حسين إلى نهضة أدبية، وعمل على الكتابة بأسلوب سهل واضح مع المحافظة على مفردات اللغة وقواعدها، ولقد أثارت آراؤه الكثيرين كما وجهت له العديد من الاتهامات، ولم يبال طه بهذه الثورة ولا بهذه المعارضات القوية التي تعرض لها ولكن استمر فى دعوته للتجديد والتحديث، فقام بتقديم العديد من الآراء التي تميزت بالجرأة الشديدة والصراحة فقد أخذ على المحيطين به ومن الأسلاف من المفكرين والأدباء طرقهم التقليدية فى تدريس الأدب العربي، وضعف مستوى التدريس فى المدارس الحكومية، ومدرسة القضاء وغيرها .

كما دعا إلى أهمية توضيح النصوص العربية الأدبية للطلاب، هذا بالإضافة لأهمية إعداد المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة العربية، والأدب ليكونوا على قدر كبير من التمكن، والثقافة بالإضافة لاتباع المنهج التجديدي، وعدم التمسك بالشكل التقليدي فى التدريس.

من المعارضات الهامة التي واجهها طه حسين فى حياته تلك التي كانت عندما قام بنشر كتابه "الشعر الجاهلي" فقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة، والكثير من الآراء المعارضة، وهو الأمر الذي توقعه طه حسين، وكان يعلم جيداً ما سوف يحدثه فمما قاله فى بداية كتابه:

"هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث أو بعبارة أصح أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي فى الجامعة" .

وليس سرا ما تتحدث به إلى أكثر من مائتين، ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أني شعرت بمثله فى تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي، وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره فى هذه الفصول غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزور .

وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوما وشق على آخرين فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم فى حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة، وزخر الأدب الجديد" .

ويعد طه حسين أحد الأركان الأساسية فى تكوين العقل العربى المعاصر، وصياغة الحياة الفكرية فى العالم العربى، كما يعد ملمحاً أساسياً من ملامح الأدب العربى الحديث. ومازالت أعماله ومعاركه الأدبية والفكرية من أجل التقدم للأمام والتخلى عن الخرافات التى حاصرت وقيدت العقل العربى لعدة قرون من أهم الروافد التى يتسلح بها المفكرون العرب سعيا نحو مزيد من النهضة والتقدم.

طه حسين لم يكن مجرد أديب ولكنه كان مدرسة حديثة ورائدة فى الأدب العربى وكان فى ذاته ومع أقرانه مرحلة من أخصب المراحل فى تاريخ الأدب العربى وأكثرها انطلاقا وإبداعا ولم يكن طه حسين مجرد مفكر ولكنه كان ركنا أساسيا من حقبة كاملة هى حقبة التنوير فى الفكر العربى. فمازال الفكر والعطاء الذى خلفه هذا العملاق أحد أهم مصادر الاستنارة فى الحياة النقدية فى العالم العربى.

أنتج طه حسين أعمالا كثيرة منها أعمال فكرية تدعو إلى النهضة والتنوير، وأعمال ادبية منها الروايات والقصص القصيرة والشعر.

كذلك قام طه حسين بدور اجتماعى وسياسى كبير فى إنهاض المجتمع المصرى وتنوير العقل العربى، وارتبطت به دعوة مبكرة من أجل مجانية التعليم وهى الدعوة التى قادها تحت شعار العلم كالماء والهواء حق لكل إنسان.

وما لبث أن أصدر كتابه "في الشعر الجاهلى" الذي أحدث عواصف من ردود الفعل المعارضة.

تواصلت عواصف التجديد حوله، فى مؤلفاته المتتابعة، طوال مسيرته التي لم تفقد. توهج جذوتها العقلانية قط، سواء حين أصبح عميدًا لكلية الآداب سنة ١٩٣٠، وحين رفض الموافقة على منح الدكتوراه الفخرية لكبار السياسيين سنة ١٩٣٢، وحين واجه هجوم أنصار الحكم الاستبدادي فى البرلمان، الأمر الذي أدى إلى طرده من الجامعة التي لم يعد إليها إلا بعد سقوط حكومة صدقي باشا.

لم يكف عن حلمه بمستقبل الثقافة أو انحيازه إلى المعذبين فى الأرض فى الأربعينيات التي انتهت بتعيينه وزيرًا للمعارف فى الوزارة الوفدية سنة ١٩٥٠ فوجد الفرصة سانحة لتطبيق شعاره الأثير "التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن".

وظل طه حسين على جذريته بعد أن انصرف إلى الإنتاج الفكري، وظل يكتب فى عهد الثورة المصرية، إلى أن توفي عبد الناصر وقامت حرب أكتوبر التي توفي بعد قيامها فى الشهر نفسه سنة ١٩٧٣.

وتحفته "الأيام" أثر إبداعي من آثار العواصف التي أثارها كتابه "في الشعر الجاهلي" فقد بدأ فى كتابتها بعد حوالي عام من بداية العاصفة، كما لو كان يستعين على الحاضر بالماضي الذي يدفع إلى المستقبل. ويبدو أن حدة الهجوم عليه دفعته إلى استبطان حياة الصبا القاسية، ووضعها موضع المسائلة، ليستمد من معجزته الخاصة التي قاوم بها العمى والجهل فى الماضي القدرة على مواجهة عواصف الحاضر.

ولذلك كانت "الأيام" طرازًا فريدًا من السيرة التي تستجلي بها الأنا حياتها فى الماضي لتستقطر منها ماتقاوم به تحديات الحاضر، حالمة بالمستقبل الواعد الذي يخلو من عقبات الماضي وتحديات الحاضر على السواء، والعلاقة بين الماضي

المستعاد فى هذه السيرة الذاتية والحاضر الذي يحدد اتجاه فعل الاستعادة أشبه بالعلاقة بين الأصل والمرآة، الأصل الذي هو حاضر متوتر يبحث عن توازنه بتذكر ماضيه، فيستدعيه إلى وعي الكتابة كي يتطلع فيه كما تتطلع الذات إلى نفسها فى مرآة، باحثة عن لحظة من لحظات اكتمال المعرفية الذاتية التي تستعيد بها توازنها فى الحاضر الذي أضرّ بها.

ونتيجة ذلك الغوص عميقًا فى ماضي الذات بمايجعل الخاص سبيلا إلى العام، والذاتي طريقًا إلى الإنساني، والمحلي وجهًا آخر من العالمي، فالإبداع الأصيل فى "الأيام" ينطوي على معنى الأمثولة الذاتية التي تتحول إلى مثال حي لقدرة الإنسان على صنع المعجزة التي تحرره من قيود الضرورة والتخلف والجهل والظلم، بحثًا عن أفق واعد من الحرية والتقدم والعلم والعدل. وهي القيم التي تجسّدها "الأيام" إبداعًا خالصًا فى لغة تتميز بثرائها الأسلوبي النادر الذي جعل منها علامة فريدة من علامات الأدب العربي الحديث.

حصد طه حسين الكثير من التكريم، والجوائز فى العديد من المناسبات نذكر منها حصوله على أكثر من ٣٦ جائزة مصرية، ودولية منها جائزة الأمم المتحدة لإنجازاته بالنسبة لحقوق الإنسان وذلك فى عام ١٩٧٣م، وقامت فرنسا بمنحه وسام اللجيون دونيه من طبقة جراند أوفيسيه، هذا بالإضافة لحصوله على عدد كبير من الدكتوراه الفخرية من جامعات عالمية مثل ليون ومونبلييه، وروما، وأثينا، ومدريد، وأكسفورد.

كما تم اختياره عضواً فى عدد من الهيئات منها المجمع العلمي الفرنسي، والمجمع العلمي الإيطالي.

توفى طه حسين فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣، وهو نفس العام بل نفس الشهر الذي حققت فيه مصر انتصارها بعبور قناة السويس، واسترداد أراضيها من براثن الاحتلال

الإسرائيلي.. وقد روت أرملته السيدة سوزان طه حسين الكثير من الجوانب الخفية فى حياته ومماته، فى كتاب مذكراته، الذي يحمل عنوان " معك " .

ففي شهر أكتوبر ١٩٧٣، الجيش المصري يجتاز قناة السويس ويرفع العلم فى صحراء سيناء، وأنظار العرب من المحيط إلى الخليج مصوبة إلى جبهات القتال الثلاث: المصرية والسورية والاردنية وقلوبهم تخفق بشدة فى انتظار ما سوف تسفر عنه الحرب الجديدة ضد إسرائيل.

وعند ظهر يوم السبت ٢٧ اكتوبر ١٩٧٣، اصيب د. طه حسين عميد الأدب العربي والذي كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس على مدى خمسين عاما، بوعكة فى بيته فى «راستان» ولما جاء الطبيب لفحصه، زالت النوبة وعاد صاحب «الأيام» إلى حالته الطبيعية. وعندئذ وصلت من الأمم المتحدة بنيويورك برقية تعلن فوزه بجائزة حقوق الانسان، غير أنه لم يسعد كثيرا بتلك البرقية. وبإشارة من يده تعرفها جيدا زوجته الفرنسية السيدة سوزان، علق على ذلك قائلا: " وأية أهمية لذلك؟ " .

في الليل، بعد أن غادر الطبيب وسكرتيره الخاص قال لزوجته، وهو يستعيد ذكريات السنوات العسيرة، التي عاشها مناضلا، من أجل أفكاره : " أية حماقة"؟!.. هل يمكن ان نجعل من الأعمى قائد سفينة ؟! " .

صبيحة يوم الأحد ٢٨ أكتوبر من العام المذكور، شرب د. طه حسين، بصعوبة كبيرة شيئا من الحليب، ثم لفظ أنفاسه، وفي ما بعد كتبت زوجته تقول واصفة مشاعرها فى تلك اللحظة العصيبة: " جلست قربه، مرهقة متبلدة الذهن وإن كنت هادئة هدوءا غريبا ما أكثر ما كنت أتخيل هذه اللحظة الصعبة، كنا معا وحيدين، متقاربين بشكل يفوق الوصف. ولم أكن أبكي. فقد جاءت الدموع بعد ذلك. ولم يكن أحد يعرف بعد بالذي حدث. كان الواحد منا مثل الأخر مجهولا ومتوحدا، كما كنا فى بداية طريقنا " .

خلال حياته المديدة (٨٣ عاما) .

وعقب رحيله، كتب عن د. طه حسين وعن أفكاره وطروحاته ومواقفه الكثير، غير أن ما كتبته عنه زوجته الفرنسية السيدة سوزان والذي نقل إلى العربية بشكل بديع وحمل عنوان " معك " وهو وثيقة مهمة لا عن حياته الشخصية وأفكاره وآرائه، فحسب، إنما عن الحياة الثقافية والسياسية فى مصر على مدى أكثر من خمسين عاما. وكان طه حسين طالبا فى فرنسا لما تعرف على زوجته الفرنسية. وكان ذلك يوم ١٢ مايو ١٩١٥، فى مدينة " مونبلييه " وكانت هي مصحوبة بأمها، ولم تكن قد تحدثت مطلقا إلى أعمى.

إثر ذلك اللقاء الأول، اخذت تكرر من زياراتها له خصوصا لما ذهب إلى باريس فى العام التالي لمتابعة دراسته. وذات يوم صرحت برغبتها فى الزواج منه فصعقت العائلة وأخذ جميع أفرادها يصيحون فيها غاضبين: «كيف؟ من أجنبي؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟ "!

غير أن ما حدث هو أن الفتاة كانت قد اختارت، ولم تكن ترغب البتة فى التراجع عن اختيارها. وجاءها العون من عم لها كان قسا، فقد قال لها بعد أن تنزه مع طه حسين مدة ساعتين فى حقول «البرينه»: «بوسعك أن تنفذي ما عزمت عليه.. لا تخافي. بصحبة هذا الرجل يستطيع المرء أن يحلق بالحوار ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إنه سيتجاوزك باستمرار». وفي ما بعد سوف تكتشف السيدة سوزان أن عمها القس الطيب كان على حق. لذا سوف تظل تكن له إعجابا كبيرا طوال حياتها. فقد كتبت لأمها تقول عند وفاته: «كان مثلنا ودليلنا ومحل إعجابنا. كان يجعل كل شيء جميلا، وكان يجعل كل شيء نبيلا. لقد كانت الحياة تغدو بصحبته فجأة حياة أرفع وأخصب».

وتم زواج المصري المسلم البصير من الفتاة الفرنسية المسيحية يوم ١٩ اغسطس ١٩١٧ بينما كانت باريس تعج بالجنود العائدين من جبهات القتال. وفي

خريف ١٩١٩ سافر الزوجان إلى مصر ليبدءا حياة اخرى هناك، حياة كان فيها الكثير من الصعوبات والعراقيل، خصوصا فى البداية. فى تلك الفترة كانت مصر تعيش غليانا سياسيا تبدى بصورة واضحة فى ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي وكان الوطنيون يواجهون القمع والملاحقات والسجون. ولم يكن طه حسين مجهولا تماما فى بلاده. فقبل سفره إلى فرنسا، كان معروفا فى الأوساط الجامعية من خلال الأطروحة التي أعدها عن أبي العلاء المعري.

أما فى الأوساط الصحافية فكان اسمه قد لمع بعد ان نشر مقالات فى صحيفة «الجريدة» التي كان يديرها لطفي السيد وفي صحف أخرى مثل «العلم» و«السفور». وعندما عاد عين أستاذا فى الجامعة. ومنذ البداية أخذ يعمل بحماس وجد، باعثا فى التعليم روحا جديدة، محرضا طلابه على «العض» على التاريخ الإغريقي، إذ إنه كان يرى فى ذلك تنويرا لعقول الشباب وثورة على المناهج التربوية التقليدية التي تكتفي بتدريس الأدب العربي القديم. ولم يلبث هذا الأسلوب الجديد الذي جاء به طه حسين أن أغاظ الكثيرين من الأساتذة، ومن الشخصيات السياسية والدينية فشرعوا يحيكون المؤامرات ضده بهدف لجم حماسه الفياض وإفساد مشروعه التدريسي.

وبسبب المشاكل المادية الحادة التي أخذت تتراكم على العائلة الصغيرة، خصوصا بعد أن أصبح لها طفلان، بنت تدعى امينة وولد يدعى مؤنسا، اضطرت السيدة سوزان إلى العودة إلى فرنسا. وعلى مدى الأشهر التي ظلت فيها هناك، كانت تتبادل الرسائل يوميا مع زوجها البعيد. وكان كل واحد منهما يتحدث إلى الآخر بدقة عن تفاصيل حياته اليومية. وفي واحدة من رسائله، كتب طه حسين يقول لزوجته: «هل أعمل؟ ولكن كيف أعمل بدون صوتك الذي يشجعني وينصحني، بدون حضورك الذي يقويني؟ ولمن أستطيع أن أبوح بما فى نفسي بحرية؟».

وفي نفس الرسالة، يضيف قائلا: "لقد استيقظت على ظلمة لا تطاق. وكان لا بد أن أكتب لك لك تتبدد هذه الظلمة. أترين كيف أنك ضيائي حاضرة كنت أم غائبة؟"

وفي رسالة أخرى يكتب لها قائلا: «كان أفلاطون يفكر أننا إذ نتحاب فإننا لا نفعل سوى أن نعيد صنع ما أفسده عارض مَّا. عندما تنفصل نفسان عن بعضيهما، تبحث كل منهما عن الأخرى، وعندما يتواجدان ويتعارفان، فإنهما لا يعودان كائنين وإنما كائن واحد. إنني أؤمن بذلك تماما».

وعندما تعود السيدة سوزان إلى مصر، تجد زوجها لا يزال غارقا فى المشاكل المادية والنفسية الناتجة بالخصوص عن تلك الحروب السرية والعلنية التي كان يشنها ضده أعداؤه داخل الجامعة وخارجها.

مرة سأله أحد الشيوخ:«لماذا تزوجت فرنسية؟ لو كنت حرا لشرعت قانونا يحظر على كل مصري أن يتزوج من أجنبية». وبسخرية لاذعة يرد عليه طه حسين قائلا: «أرجوك يا سيدي.. اشترع هذا القانون، فإني، أستعجل ألا أستمع إلى مثل هذا الكلام!» ويستأنف الشيخ المعمم الكلام قائلا: «لكني بعد كل شيء يا دكتور طه.. أود أن أفهم الأسباب الحقيقية التي حملتك على الزواج من أجنبية فأنت مصري طيب ووطني طيب عظيم الذكاء، فكيف أقدمت على مثل هذا العمل؟.

وهنا يقرر صاحب "الفكر" أن يكون قاطعا فى جوابه فيجيب الشيخ المعمم قائلا: «قابلت فتاة وأحببتها فتزوجتها ولو لم أفعل ذلك لبقيت أعزب أو لتزوجت. نفاقا، بما أنني أحب امرأة أخرى. امرأة مصرية، وكنت سأجعل منها امرأة تعسة!

نحن الآن فى عام ١٩٢٦. طه حسين يعمل بجد وحماس كعادته دائما متحديا الآلام والأوجاع التي كان يسببها له أعداؤه الذين كانوا يتكاثرون يوما بعد يوم، وبالإضافة إلى الدروس التي كان يلقيها فى الجامعة، كان يكتب فى العديد من الصحف مثل «مصر» و«السياسة» و«الاتحاد» وفي شهر مارس من العام المذكور، اصدر كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي كان قد شرع فى تأليفه قبل ثلاثة أشهر. وفي الحين انفجرت تلك العاصفة الهوجاء التي ستقوده إلى المحاكم وستكون السبب فى مصادرة الكتاب المذكور. وعن هذه الحادثة تكتب السيدة سوزان قائلة: «كان

يعمل به (تقصد كتاب «في الشعر الجاهلي») فى النهار ويحلم به فى الليل مدفوعا بحماسة بلغت به درجة أنه شرع فور إنجازه بتأليف كتاب عن الديمقراطية، لكن ما حدث له ارهقه. ولم يكن يفهم هذه الاحكام البليدة وهذا التحيز الأخرق وهذا الحقد الحاسد وهذا الرياء وتلك البراعة التي نجحوا بها فى تحريض اناس طيبين ضد انسان شريف، وفي جره إلى المحكمة بعد أن صادروا كتابه والحملات القاسية فى الصحافة والشتائم والتهديد بالموت الذي كان وراء إقامة حراسة على مدخل بيتنا أمام باب الحديقة خلال عدة أشهر.

كل هذه الأحداث كانت تذهله وتستثير ضميره العلمي وتؤلمه كثيرا. وخلال هذه المحنة القاسية، ظل بعض الأصدقاء أوفياء لطه حسين ولم يبخلوا عليه بدعمهم المعنوي ولا بتضامنهم الصريح والواضح، بين هؤلاء لطفي السيد الذي تتحدث عنه السيدة سوزان بكل احترام ومحبة قائلة: «كان هذا الرجل - أي لطفي السيد - الذي كان دميما والذي كان وجهه المطبوع بآثار الجدري يشع ذكاء ساخرا يملك هيئة خارقة: كان طويل الجسم، نحيلا ومهذبا، كان كلامه أكثر بطءا، إذا جاز القول لي، من عينيه الحيتين. يتكلم ببطء وعلى وتيرة واحدة تقريبا (...) كنا حين نذهب لرؤيته، بعد عديد من السنوات، نجده متدثرا بل متلاشيا فى قفطان واسع أو أشهب أو أسمر، يكاد رأسه يختفي بين طيات لفة من الصوف: فقد كان سريع التأثر بالبرد. كان يجلس أمام موقد النار، هادئا، يداه الدقيقتان تسبحان، كان يبدو لي صورة طبق الأصل من الفلاسفة والعلماء الأقدمين الذين تبنى حكمتهم دون أي انبهار».

وبرغم قسوة الهجومات التي شنت ضده، لم يتراجع د. طه حسين عن موقفه، وظل «شجاعا رابط الجأش» كما تقول زوجته وربما لكي يتغلب على المرارة التي كان يحس بها، انطلق بصحبة عائلته إلى قرية صغيرة فى «السافوا العليا» بفرنسا. وهناك أنجز الجزء الأول من كتاب «الأيام» فى تسعة أيام!

أما المحنة الثانية التي تعرض لها طه حسين فقد حدثت فى ربيع سنة ١٩٣٢ التي سوف تسميها السيدة سوزان بـ " سنة المجاعة " فقد فصل عن عمله كأستاذ بالجامعة بسبب أفكاره ومواقفه التحررية. وفي هذه المرة كان اعداؤه المتربصون به يرغبون فى سحقه حقا، حسب تعبير السيدة سوزان التي تضيف قائلة: «لم يكتفوا ـ أي الأعداء ـ هذه المرة بطرده من الكلية التي كان عنوانا لعزتها وكرامتها وقوة نابضة فيها، وإنما أرادوا أيضا احراق كتبه، فأخذوا منه بيته الذي يسكن فيه وأغرقوه بالشتائم وحاولوا ان يحرموه من كل وسيلة للعيش بمنعهم مثلا بيع الصحيفة التي كان يصدرها وبإنذارهم البعثات الأجنبية فى مصر بالكف عن أن تقدم له عروضا للعمل».

دامت هذه المحنة الجديدة حتى عام ١٩٣٤، وكانت المقاطعة تامة من جانب أغلب المؤسسات الجامعية والصحافية. وحدها الجامعة الأميركية تجرأت ودعت طه حسين لإلقاء بعض المحاضرات التي لاقت إعجاب الشباب المتحمس لأفكاره.

وفي هذه المرة جاءه العون من مستشرقين مرموقين من أمثال ماسينيون الذي بعث له برسالة مفعمة بالود وفيها يطلب منه إن كان مستعدا للذهاب إلى الولايات المتحدة الأميركية لإلقاء محاضرات فى جامعاتها. وقد علق هو على ذلك قائلا: «لقد أيقظتني رسالة ماسينيون. إنني أستاذ معزول وعالم ممنوع عن العمل. ومن واجبي ألا أشتغل فى السياسة، وإنما أؤلف الكتب وأسعى وراء الرزق. أما فى اميركا فإنني سأكون أجنبيا وسأنظر إلى حياة البلد دون أن أشارك فيها، ولن يكون عليّ ان أقوم فيها إلا بواجب محدود».

ومن الأصدقاء الذين عبروا عن تعاطفهم معه فى هذه المحنة الجديدة تذكر السيدة سوزان النحاس باشا والسيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي ومصطفى وعلي عبد الرازق وخليل مطران. ورغم المصاعب والمؤامرات القذرة التي كان يواجهها، تمكن د. طه حسين من إنهاء كتاب «على هامش السيرة».

كما ظهرت الطبعة الفرنسية الأولى للكتاب «الأيام» وخلال تلك الأيام السوداء، مات حافظ إبراهيم «شاعر النيل». فحزن طه حسين حزنا شديدا وقال: «أقضي يومي فى حزن لا طائل من ورائه، ذلك انه كان أكثر الناس مرحا بيد أن موته يغلفني بحزن يكاد يكون مبتسما.. هناك اناس لا يموتون كليا، خاصة منهم الشعراء، لن أستمع أبدا لصوت حافظ، لكنني سأستمع دوما إلى روحه، وسأراها فى كل مرة أشعر، بالفرح أو بالحزن، وهو ما يعزيني قليلا».

وفي نهايات عام ١٩٣٤، اعيد كرسي الجامعة إلى د. طه حسين. فكانت فرحة طلابه الذين حملوه منتصرين فى ساحة الجامعة «متفجرة وغامرة ".

وعند اندلاع الحرب الكونية الثانية، أعلن د. طه حسين عن مناصرته الصريحة والواضحة لفرنسا ولدول الحلفاء. وعندما زار الجنرال ديغول الذي كان آنذاك قائدا للمقاومة الفرنسية القاهرة فى شهر أبريل ١٩٤١، وتحدث فى الجامعة الاميركية استقبله د. طه حسين الذي كان يراقب إذاعة " فرنسا الحرة " .

ولم تؤثر فواجع الحرب وأحداثها الأليمة على نشاط صاحب كتاب «الأيام» فقد أنشأ جامعة إسكندرية، وواصل الكتابة فى الصحف وأسس مجلة «الكاتب المصرية» التي كان يهدف من خلالها إلى «أن يقيم أكثر ما يمكن القيام به من الصلات بين الثقافة الغربية ومصر والعالم العربي». لذا جاء اليها بكل الشباب الذين تنوروا بأفكاره، وأطلق جيشا من المترجمين من عدة لغات بهدف نقل الأعمال الكبيرة إلى اللغة العربية.

عقب انتهاء الحرب الكونية (العالمية) الثانية، أصبح بيت طه حسين قبلة مشاهير الزوار الفرنسيين منهم بالخصوص، وكان اندريه جيد الذي تربطه بالسيدة سوزان قرابة عائلية أول هؤلاء. وقد استقبله د. طه حسين فى مكتبه ومنذ البداية أحس كل من العملاقين بالود تجاه الآخر. ومتحدثة عن ذلك، كتبت السيدة سوزان تقول: «كان طه يعجب بجيد ولكن من بعيد قليلا، فهما لا يتشابهان كثيرا، غير أنهما ما ان

التقيا حتى تفاهما على الفور إثر مناقشة عفوية كان فيها كلاهما على رأي واحد. وأظن أن كلا منهما قد عرف عن الآخر هذا الانفتاح الروحي النادر والبساطة الكلية». وذات مساء قرأ اندريه جيد فى الصالون الصغير روايته " البحر " فتأثر د. طه حسين بذلك شديد التأثر وإثر ذلك قام بترجمة الرواية المذكورة إلى اللغة العربية.

وجاء جان كوكتو أيضا إلى بيت طه حسين. وقبل ذلك اتصل به هاتفيا ليقول له: «أنتظر بفارغ الصبر أن اقبلك». وعند وصوله، فعل ما قاله فى الهاتف. وقد وصفته السيدة سوزان قائلة: «كان يختار الجلوس حين يدخل الصالون ليس على مقعد وإنما على درجة طويلة من الخشب تحاذي الفتحة ذات الباب الزجاجي التي تنزل منها إلى الحديقة. كنت أجلس قربه وأبقى مأخوذة أستمع اليه وهو يلوح بيديه الذكيتين اللتين كانتا تتحركان بشكل لا يصدق، واللتين كانتا ترسمان أمامه أشكالا غير مرئية».

كما زار بيت طه حسين كل من اديث بياف المغنية الشهيرة ذات القامة القصيرة والعينين الزرقاوين الصافيتين والمخرج المسرحي الكبير لوي جو فيه.

ونظرا للشهرة الواسعة التي أصبح يتمتع بها مصريا وعربيا وعالميا، عين د. طه حسين وزيرا للمعارف (للتربية والتعليم الآن). فكانت هذه الفترة من أهم الفترات فى حياته، فقد أنجز العديد من المشاريع التي كانت تراوده قبل توليه الوزارة إذ أسس كلية جديدة للطب وكذلك جامعة جديدة هي جامعة إبراهيم التي اصبحت تسمى الآن جامعة عين شمس، وأنشأ المعهد الإسلامي فى مدريد، أما فى العاصمة اليونانية أثينا فقد بعث كرسيا جامعيا للغة وللثقافة العربيتين. كما جعل التعليم الابتدائى إجباريا وزاد من عدد المدارس الابتدائية، خصوصا فى الأرياف. وقد احبه الناس بسبب هذه الإنجازات العظيمة لذا كانوا يهتفون له عندما يمر فى الطريق: «يحيا وزيرنا، يحيا صديقنا، يحيا ابو المساكين.. ذلك الذي ينورنا!».

ولما قامت حركة ٢٣ يوليو فى صيف عام ١٩٥٢، استقبلها د. طه حسين بتوجس وصمت. وحتى لا يصبح أسيرا لما يحدث آنذاك فى الشارع على المستوى السياسي بالخصوص غرق فى كتب التراث الإسلامي يستخلص منها تاريخ الخليفة على بن ابي طالب وبنيه.

في نفس هذا العام، عام ١٩٥٢ حضر د. طه حسين العديد من المؤتمرات الدولية التي انعقدت فى بعض الدول الأوروبية، وخلال جميع هذه المؤتمرات كان يؤكد فى جميع الخطب التي ألقاها على ضرورة تدعيم وإثراء الحوار بين الشرق والغرب، وبين العالم الإسلامي والعالم المسيحي.

ففي فلورنسا قال: «إن واجبنا يتجلى فى عقد روابط الأخوة بين العالم الإسلامي الذي أمثله هنا. بما أنه بوسع أصغر مسلم، إذا قال الحق، أن يقوله باسم الجميع. وبين العالم المسيحي إلى كل الناس، ذلك أنه لا وجود فى نظر الله لشرق أو لغرب، ولا للجنوب أو للشمال، وإنما العالم والناس.

وعندما يمنح الله العدالة للناس فإنه لا يمنحها للمسيحيين فقط أو المسلمين فقط، وانما لجميع الناس، إنني أطالبكم بمحاسبة أنفسكم " . وقد علق أحد الصحافيين الإيطاليين على خطاب د. طه حسين قائلا: " كان كلامه، بل أكثر من ذلك شخصيته نفسها تستأثر بانتباه الجميع. ذلك أن الدين والثقافة قد أوجدا فيه نقطة التوازن والاتحاد الكاملين" .

وفي خطبه تلك كان د. طه حسين يؤكد أيضا على الدور التنويري المنوط بالكاتب وبالمثقف عموما، وهو يقول فى ذلك: «الكتابة هي أيضا العمل.. كل كاتب وكل فنان لا يستطيع التقدم إلا بالإخلاص.. شأنه شأن بطل دانتي يحمل المصباح معلقا إلى ظهره سيضيء طريق الذين يتبعونه" .

وبالرغم من أن نظام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منحه «قلادة النيل» فى عام ١٩٦٥، فإن نفس هذا النظام تعامل مع د. طه حسين ببرود شديد إلا أن د. طه حسين الذي منع من الكتابة فى صحيفة «الجمهورية» لسبب لم يكن يدريه، لم يظهر اهتماما كبيرا بهذه الإجراءات التعسفية ضده، وظل يواصل نشاطه وكأن شيئا لم يكن، فإلى جانب تعاونه مع اليونسكو فى مشروعها الكبير: «الشرق. الغرب» كتب شهادة عن الشاعر الايطالي أو نغاريتي الذي ولد وعاش فى الإسكندرية، والذي

التقى به مرات عدة فى روما وفلورنسا والبندقية. وكان حريصا على الالتقاء بكبار الشخصيات السياسية والفكرية التي تزور القاهرة مثل الرئيس والشاعر السنغالي ليوبولد سيدار سنغور والمستشرق المعروف بلاشير وآخرين.

ذات مرة كتب طه حسين إلى زوجته سوزان يقول: " بدونك أشعر أني أعمَى حقا. أما وأنا معك، فإني أتوصل إلى الشعور بكل شيء، وإني أمتزج بكل الأشياء التي تحيط بي " . وعندما رحل هو عن العالم، كتبت هي تقول: «ذراعي لن تمسك بذراعك أبدا، ويداي تبدوان لي بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق فى اليأس، أريد عبر عيني المخضبتين بالدموع، حيث يقاس مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة، حيث يتأرجح كل شيء، أريد أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا محلقتين، ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة، الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسامتك الرائعة" .

كانت هذه هى قصة طه حسين العبقري الفاقد نعمة النظر، الذي رأى ما لا يراه المبصرون .. هذا هو طه حسين الذي يرى المؤرخون أن هناك خمسة مبادئ ضرورية كانت لديه، وتجسدت فيما قدم من نتاج خالد، وأن هذه المبادئ لا بد من تأكيدها، ولا ينبغي الكف عن الحديث عنها .

أول هذه المبادئ " العقلانية " : وتعني عند طه حسين الاحتكام إلى العقل ووضع كل شيء موضع المساءلة ورفض الخرافة والتفسيرات التي تعتمد على المصادفة. وأشار إلى أن طه حسين جعل هذا المبدأ أساساً لمنهجه وإبداعاته فى الأدب والتاريخ والتربية والاجتماع، وكان فيها جميعاً ينطلق من أساس إسلامي وفي الوقت نفسه كان يفيد من قراءاته الأجنبية.

أما المبدأ الثاني : فكان الانسانية، فلم يكن هناك تناقض بين كونه مصرياً ومسلماً وإنساناً يعتز بثقافات غيره من البشر فى أي مكان فى العالم، وهذا الوعي بالإنسانية ومعناها جعله ينتسب إلى ثقافة العالم كله، وهو سر إعجاب غير العرب والمسلمين بإنتاجه الفكري والثقافي. المبدأ الثالث : الذي آمن به طه حسين، هو

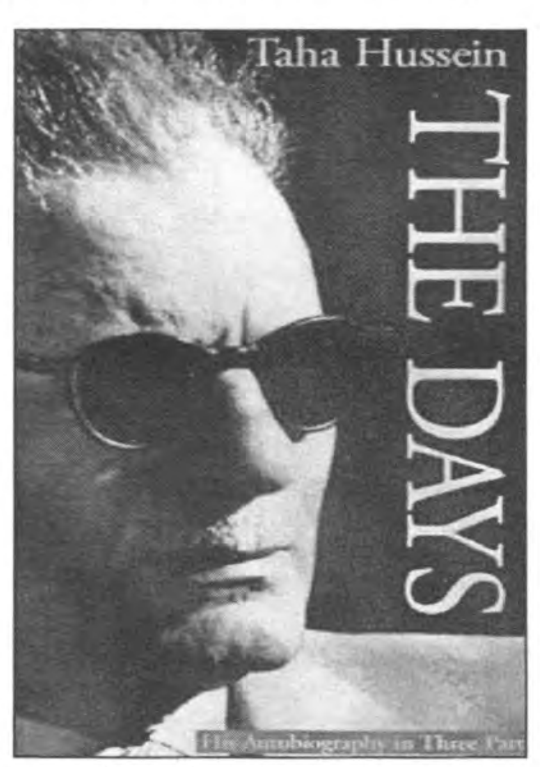
الايمان بالتقدم، فقد كان يعتقد أن التاريخ لا يمكن أن يتراجع، وأنه لابد أن يكون المستقبل أفضل من الحاضر ومن الماضي، حيث يضيف كل خلف إلى ما تركه سلفه من ثمرات الإبداع، من هنا كان يرى أن التقدم حتمي وأنه سنة الكون، وأن أولئك الذين يحاولون عرقلة خطاه لابد فى النهاية أن يمتثلوا لطوفانه.

المبدأ الرابع : تجلى فى العدل وإيمانه به حيث رأى أنه لا تقدم بدون عدل، وقد تجاوز به العدل الاجتماعي إلى عدالة توزيع الثقافة والمعرفة.

المبدأ الخامس : كان الحرية، وقد رآها مبدأ عاماً فى حياة الجميع من أبناء المجتمع سواء فى معناها السياسي أو الاجتماعي أو الفكري، وقد أصل العميد حياة الجامعة بهذا المبدأ، إذ كان يرأى انه لا جامعة بدون حرية، وأنها تفقد وظيفتها إذا لم يجد أستاذ الجامعة حريته فى البحث والتفكير .



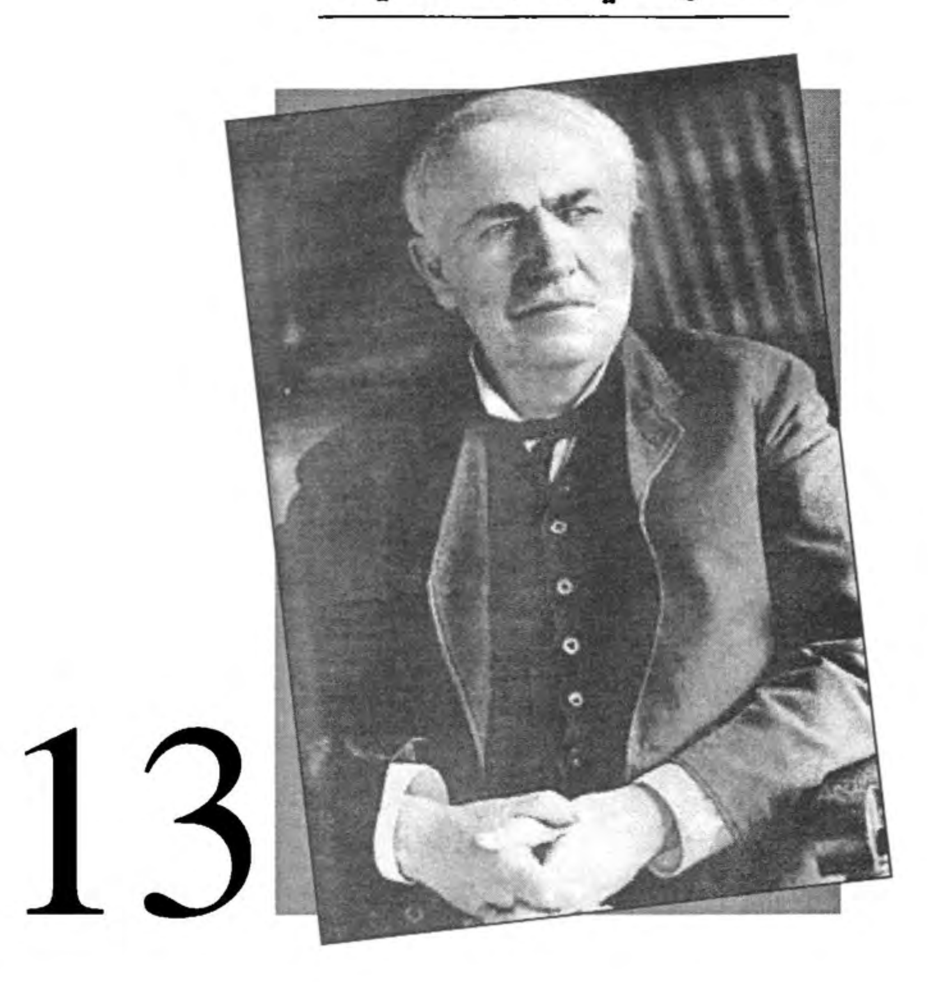
سوزان شريكة عمر طه حسين فى لقطة لها معه قبيل وفاته !



الطبعة الإنجليزية من رائعة طه حسين " الأيام " التي تروي مأساته !

توماس أديسون ..

الفاشل الذي أضاء لنا الدنيا !!



13

ولد توماس أديسون فى ميلان فى ولاية أوهايو فى الولايات الأميريكية المتحدة فى الحادي عشر من شهر فبراير عام ١٨٤٧ وتوفي فى ويست أورنج فى ١٨ اكتوبر عام ١٩٠٢ .

وكان توماس أديسون أصم لذلك طرد من المدرسة . وقد كانت تصرفاته فى صغره بالنسبه للآخرين جنونية، لكنها بالنسبة له كانت مغامرات جريئة وحماسية.

وليس بغريب أن يُنْظَرَ له على أنه مغفل أو مجنون . فلقد قام ذات يوم فى طفولته بإجراء تجاربه على فأر التجارب صديقه " مايكل " الذي لم يكن يقول له (لا) أبدا.

كان يريد أن يكتشف طريقة للطيران، وهو يسأل نفسه باستمرار : " كيف يطير هذا الطير وأنا لا أطير .. لابد أن هناك طريقة لذلك ؟! " .

أتى بصديقه " مايكل " وأشربه نوعًا من الغازات يجعله أخف من الهواء، حتى يتمكن من الارتفاع كالبالون تماما .

وامتلأ جوف مايكل من مركب الغازات الذي أعده أديسون الصغير، مما جعله يعاني من آلام حادة ويصرخ بحدة، حتى جاء والد توماس وضربه بشدة، ورمى قواريره، وأغلق قبو المنزل .

لقد كان أديسون دائم السؤال عن ظواهر الأشياء فى الكون، وكيفية عملها، وكان بطلا فى التجارب مهما كلف الثمن، فهو لايؤمن بشىء حتى يجري عليه تجاربه.

ولم يكن حاله هذا يعجب مدرسيه، فلقد كان يقضي وقته فى الفصل فى رسم الصور ومشاهدة من حوله والاستماع لما يقوله الآخرون، وكان كثير الأسئلة، وخاصة غير المعقول منها، بينما لا يميل إلى الإجابة عن الأسئلة الدراسية !

وفي حالة ضجر من أحد مدرسيه منه قال المدرس لأديسون: أنت فتى فاسد وليس مؤهلا للاستمرار فى المدرسة بعد الآن .

تألمت الأم عند سماعها هذا الخبر . وقالت للمدرس كل المشكلة أن ابني أذكى منك، وعادت بتوماس للمنزل وبدأت هى بتثقيفه.

وقد ساعدته على مطالعة تاريخ اليونان والرومان وقاموس بورتون للعلوم.وعند سن ١١ سنة درس تاريخ العالم الإنجليزي نيوتن، والتاريخ الأمريكي، وروايات وليام شكسبير.كماكان يحب قراءة قصة حياة العالم الإيطالي غاليليو، بينما كان يكره الرياضيات .

ويقول عن نفسه فى كبره: إنني أستطيع دائما أن أستخدم المختصين فى الرياضيات ولكن هؤلاء لايستطيعون استخدامي أبدا.

وعن مراحل تعلمه فى الصغر قال إن والده كان يمنحه مبلغا صغيرا من المال مقابل كل كتاب يقرأه، حتى بدأ توماس فى قراءة كل الكتب التي تضمها مكتبة المدينة .

ومن أحب المؤلفين لديه الكاتب الفرنسي "فيكتور هيغو" صاحب رواية "البؤساء" الشهيرة . ومن كثرة حبه لقصصه كان يكثر من قراءتها لصبيان القرية حتى لقبوه بـ " فيكتور هيغو أديسون " .

ويقول أحد جيرانه : كنت أمر عدة مرات يوميا أمام منزل آل أديسون، وكثيرا ماشاهدت الأم وابنها توماس جالسين فى الحديقه أمام البيت، لقد كانت تخصص بعض الوقت يوميا للتدريس للفتى الصغير.

يقول توماس أديسون عن أمه: لقد اكتشفت مبكرا فى حياتي أن الأم هي أطيب كائن على الإطلاق، لقد دافعت أمي عني بقوه عندما وصفني أستاذي بالفاسد، وفي تلك اللحظة عزمت أن أكون جديرا بثقتها، كانت شديدة الإخلاص واثقة بي كل الثقة، ولولا إيمانها بي لما أصبحت مخترعا أبدا.

ومن الأحداث المؤثرة فى حياته هو وفاة أمه سنة ١٨٧١ فأثرت الصدمة فى نفسه تاثيرات عميقة، حتى كان يصعب عليه الحديث عنها دون أن تمتلئ عيناه بالدموع.

ولم يخرج من تلك الأحزان إلا عندما تزوج من فتاة جميلة كانت تعمل فى مكتبه وذلك فى سنة ١٨٧٣ .

ولقد تأثر اديسون بحياة المهندس الإنجليزي جيمس وات، وكيف قادته ملاحظته إلى اكتشاف قوة البخار، حينما كان جالسا مع أمه فى المطبخ، وإذا بسحابة من البخار تدفع غطاء القدر إلى أعلى، وبذلك اكتشف قوة البخار.

كما أن الفتى الصغير كان يمتهن مهنتين فى صغيره بيع الخضار من محصول مزرعة والده وبيع الجرائد فى القطارات، مما در عليه ربحا ممتازا.

لقد كان أديسون فتى هادئا يستغرق فيما يعمل ويرتدي بذله رخيصة الثمن ولايشترى سواها حتى تبلى، ولم يكن يمسح أحذيته، ونادرا مايسرح شعره، وقد أثبت الفتى من خلالها لعائلته أنه يستطيع شق طريقه فى الحياة بنفسه، ولذا لم يعد أحد منهم يتدخل فى شؤونه .

و بالنسبة لبيع الجرائد وجد أديسون أن إقبال الناس على الصحف أصبح جنونيا بعد اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية سنة ١٨٦١ . ليرفع من سعر الصحف ويكسب أموالا أكثر، ويشتري طابعة يضعها معه فى رحلات القطار ويطبع عليها صحيفة خاصة به من صفحات قليلة ويبيعها لحسابه وهي اسبوعيه اسمها " ذي وكيلي هيرالد " .وكان يفتخر قائلا : أرَوِّج أول جريده فى العالم تطبع فى قطار !

في عام ١٨٦٢، وبينما أديسون فى أحد غرف القطار مع قواريره الكيميائية وآلته الطابعة وجرائده حيث كان يعمل. حتى وقع اهتزاز شديد للقطار فوقعت القوارير الكيميائية واشتعلت النيران ليقوم الحارس بإطفائها والتوقف بالقطار ورمي أديسون وأدواته وطابعته على أقرب رصيف.

ومن الأحداث المهمة فى حياته إصابته بالصمم الجزئي وضعف السمع بسبب تلقي ضربات متعدده على أذنه فى فترات حياته المختلفة. ويقول أديسون عن هذا:

" إن هذا الصمم الجزئي لهو نعمة من بعض النواحي، لأن الضوضاء الخارجية لاتستطيع أن تشوش أفكاري " .

ترك أديسون العمل فى القطار وانكب على دراسات التلغراف وعن طريقة عمله كان يقول لصديقه آدمز : " إن على أن أعمل الكثير والحياة قصيرة ويجب أن أستعجل " .

وكان يعمل ١٨ ساعه يوميا. وهذا نفس عدد الساعات التي كان يعملها بيل غيتس كما قرأتها فى قصة حياته.

وفي أحد الأيام ومع العمل المضني وبينما كان يوصل بعض الأسلاك على إحدى البطاريات لواحدة من تجاربه، إذ فجأه انفجر حمض النتريك من البطارية ورش كل وجهه، ولقد قال أديسون عن هذا الحادث المؤثر:

لقد شعرت بألم عظيم، وخيّل إليَّ أنني أُحرِقْتُ حيا، وأسرعت إلى الماء أصبه على وجهي دون فائدة، ورأيت وجهي فى المرآة أسود قبيحا ،لأمكث أسبوعين، لا أخرج من غرفتي، ولوكانت عيناي مفتوحتين لأصبحت أعمى، وبعد مدة نما جلدي من جديد وزالت آثار الحروق.

وقد بلغ عدد مخترعاته حوالي ١٠٩٣ اختراعا بدءا من المصباح المتوهج الكهربائي وآلة عرض الصور وغيرها.

عمل موظفا لإرسال البرقيات فى محطة للسكك الحديدية مما ساعده عمله هذا لاختراع أول آلة تلغرافية ترسل آلياً، تقدم أديسون فى عمله وانتقل إلى ولاية بوسطن وولاية ماسوشوستس، وأسس مختبره هناك فى عام ١٨٧٦.

واخترع آلة برقية آلية تستخدام خطا واحدا فى إرسال العديد من البرقيات عبر خط واحد ثم اخترع الـ " جرامفون " الذي يقوم بتسجيل الصوت ميكانيكياً على أسطوانة من المعدن، وبعدها بسنتين قام باختراعه العظيم المصباح الكهربائي.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى اخترع نظام لتوليد البنزين ومشتقاته من النباتات. خلال هذه الفترة عين مستشارا لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد صب توماس كثيرا من اهتمامه على أبحاث التلغراف وتجارب الأسلاك الكهربائية. وكان يفكر بطريقة يستطيع بواسطتها الإنسان أن يتحدث عبر الأسلاك ليصل صوته إلى كل مكان. في هذا الوقت كان العالم الأمريكي بل أول من صنع هذه الآلة التليفون لكنها لاتنقل الصوت الا من غرفة إلى غرفة، حيث كانت أول رسالة صوتية حملها سلك كهربائي كانت رسالة من بل إلى مساعده فى غرفه أخرى لذلك سجل اختراع الهاتف باسم بل.

على الرغم من أن أديسون أبلغ مكتب تسجيل الاختراعات قبلها بشهر أنه يعمل باختراع مشابه لكن آلته لم ينته منها بعد.

حتى انتهى منها بعد مده وحقق المعجزة التي لم يقدر عليها بل بأن الصوت فى جهاز إرسال أديسون ممكن يصل إلى أي نقطة فى العالم بها جهاز استقبال، ليصل صوت الإنسان إلى أقصى أطراف الأرض. وابتدع حينها أديسون كلمة المخاطبة الشهيرة عند بدء المحادثات الهاتفيه (هلو) حتى عم استعمالها فى العالم.

تم شراء هذا الجهاز منه ب ١٠٠ ألف دولار وشرط على الشركه شرطا غريبا بان لايعطوه المبلغ كاملا بل يعطوه ٦ آلاف كل سنة لغاية ١٧ سنة. لأنه يخشى من الإفلاس ومن أن يشتري آلات بالنقود دون ان يدخر شيئا للمستقبل .

وقد استمر أديسون باختراعاته مع شركة (الوتسرن يونيون) حتى بلغ دخله السنوي معها ١٢ ألف دولار.

أما أول عرض لهاتف أديسون الكهربائي فكان فى ١٨٧٩ بعدما عرض المنضمون علىالجماهير المحتشدة تاريخ صنع الهاتف ونتائجه الضعيفة التي وجدت فى البدايات إلى أن عرضوا على الناس هاتف أديسون الكهربائي فأعطى أمام أعين الناس نتائج مبهره حيث كان الغناء والأشعار ترسل عبر الهاتف وتنتقل أصوات الضحك لكل الحاضرين عبر الهاتف. وطلبته منه إنجلترا أيضا فباعها الحقوق بـ١٥٠ ألف دولار .

أما قصة اختراع مسجل الأصوات، ففي أحد الأيام من سنة ١٨٧٧ خرج أديسون من معمله وأعطى لأحد مساعديه تصميما مرسوما ،سهر عليه الليل كله وأخبره أن يصنعه وبأنه يريد صنع آلة تتكلم.

سخر مساعده كروسي من الفكره وقال لن تعمل مستحيلا . قال اديسون انجزها وسأريك كيف تعمل.

قال كروسي إن عملت فسأهديك صندوقا كاملا من السيجار (وهو شىء غالٍ ومكلف)

وبعد ثلاثين ساعه من العمل المتواصل ، انتهى كروسي ووضع الآله أمام أديسون، ابتسم أديسون ووضع لوحا سميكا من التنك حول الطبل وأدار اليد ثم أخذ يغني بصوت عالٍ أغنية أطفال وأخذ العمال يضحكون بعدها أوقف الزر وأدارها مرة أخرى لتخرج أصوات الغناء من جديد فصاح كروسي يا الله ! الآلة تتكلم .. وانتشر الخبر المدهش فى جميع أنحاء العالم وأطلق على توماس لقب الساحر .

جاءته رساله بعد أيام من البيت الأبيض تطلب منه مقابلة الرئيس فورا ليتأبط آلته ويذهب للبيت الأبيض ليجد الرئيس (هايس) وكبار الضيوف بانتظاره وما أن

سمعوا الآلة المعجزة (المسجلة) حتى طار (هايس) لزوجته منتصف الليل لتشاهد هذه الأعجوبه.

أما قصة اختراعه المصباح الكهربائي، فقد كان لتوماس أديسون معمل فى (منلو بارك) وقد كان مكانا تحيط به الأسرار فلا أحد كان يعرف ما الذي سيخرج منه .

وفي ليلة من الليالي كان يجلس توماس مع أصحابه فى مكان مرتفع يطل على المدينه المظلمة. وقال لهم سأجعل النور يضىء المدينة.

في عام ١٨٧٦ كان الأمريكي " شارلزبراش " قد اخترع مصابيح مقوسة تشتعل بقوة، استخدمت فى إضاءة شوراع المدن الرئيسية بأمريكا، لكن كان لها صوت مرتفع، وإناره شديدة جدا تكاد تعمي الأبصار، وهي لاتصلح الا لأيام قليله ثم تحترق.

فضل أديسون فى تلك الفتره أن يعتكف على مشروعه العظيم بإضاءة العالم، وكان مختبره مثيرا ممتلىء بالبطاريات والقوارير الكميائية والأجهزة المتراكمة على الأرض، وخمسين رجلا يعملون بشكل متواصل فى المختبرات. ولقد أجريت مئات التجارب وكلها باءت بالفشل، وعند التعب كان أديسون يلقي بنفسه على كرسي خشبي ليختلس بعض دقائق النوم ثم ينهض للعمل بحيوية، وكثيرا ماكان يوقف رجاله عن العمل فجأة ليعزف لهم بعض الألحان على آله موسيقية قديمة فى المختبر .

واستمر أديسون فى العمل حتى عام ١٨٧٩ حينها جهز زجاجة وبداخلها أسلاك مجريا تجارب جديدة، مستفيدا من التجارب الفاشلة السابقة، فجرب حينها ثلاثة أسلاك من الكربون، وكلها كانت تتحطم حتى حان الليل وهو يركب السلك الرابع ولكنه هذه المرة فكر أن يفرغ الزجاجة من الهواء ثم يقفلها، وأدير التيار الكهربي، لتشرق شمس النور تعم المكان وتشع الوجوه بهجة بهذا الاختراع العظيم .

واستمرت الزجاجة مضيئة ٤٥ ساعة، وقال أديسون لمساعديه مادامت اشتغلت هذه المدة فبإمكاني إضاءتها لمئة ساعة. وظل هو ومساعدوه ثلاثة أيام بلا نوم ومع مراقبة حذرة وشديدة للزجاجة المضاءة .

وكان أديسون يتساءل : هل ستستمر ويستمر معها الحلم، وفعلا استمرت الزجاجة بالإناره ليخرج أديسون المتعب مع مساعديه من المختبر، ويعلق المصابيح الكهربية حول معمله لأغراض تجريبية، وانتشر النبأ بالصحف أن الساحر أديسون حقق المعجزة، والناس مابين مكذب ومصدق، إلى أن جرى الحدث العظيم فى ليلة رأس السنة الجديدة عام ١٨٧٩ ، واستمر حتى فجر اليوم الأول من عام ١٨٨٠.

وحضر الاحتفال أكثر من ثلاثة آلاف زائر، تستقبلهم المصابيح الكهربية، التي تشع بأنوارها الجذابة على الأسلاك المعلقه على الأشجار .

وظلت البرقيات تنهال على أديسون من كل حدب وصوب قائلة له : " تعال أضئ مدننا " .

فما كان من أديسون إلا أن أنشأ لذلك شركة أطلق عليها اسم " شركة أديسون للإضاءة الكهربائيه " وكان ذلك فى نيويورك، مهمتها التزويد بالنور والتدفئة والطاقة.

وفي السنوات الثلاث التالية، بنى أديسون أول محطة مركزية للطاقة، وأقام أول إشارة كهربائيه فى لندن، ثم أضاء مراكز الشركات التجارية والمصانع ومكاتب الصحف والمسارح فى نيويورك.

وأنشأ بعد ذلك محطات للطاقة فى ميلانو بإيطاليا، وفي برلين بألمانيا، وفي "سانتياغو " فى تشيلي. ثم أنشأ أديسون فى مدينته أول قطار حديدي يسير بالكهرباء .

ومن الاختراعات التي أخذت من أديسون وقتا طويلا وجهدا اختراع مسجل لأصوات الاقتراع فى الانتخابات، الذي كان يتمنى أن يستخدم فى مجلس النواب الأمريكي كجهاز يسرع فى تسجيل وفرز الأصوات التي تتم داخل مجلس النواب عند التصويت على مشروعات القوانين .

لكن هذا الجهاز لم يستعمل أبدا، مماجعله يقسم بعدها أن لايقضي أي وقت بعد اليوم فى اختراع لايريده الناس أو لا يشترونه .

وفي عام ١٨٨٧، انتشرت على أراضي الولايات المتحدة ١٢١ محطة كهربائية سميت باسم هذا العالم العبقري، تقوم بتوصيل كهرباء التيار المستمر لسكان أمريكا.

لكن مع انتشار استخدام الكهرباء فى المنازل، وكثرة الطلب عليها، بدأت تظهر بعض مشاكل التيار المستمر. من أبرزها قصر المسافة التي يقطعها التيار، فمع اتساع رقعة التغطية وجد أن التيار المستمر يفقد بعضاً من قوته بعد قطعه مسافة قصيرة قدرت بالميل الواحد. هنا بدأ العلماء عملية البحث عن حل عملي لهذه المشكلة يرضي كلاً من شركات الكهرباء والمستهلكين .

وفي عام ١٨٨١ بدأ العالمان نيكولا تيلسا وجورج ويستينج هاوس تطوير نظامهما الجديد والمعتمد على فكرة التيار المتناوب . أبرز ما يميز هذا النظام هو فعاليته وقدرته على التوصيل الكهربائي لمسافات طويلة جداً مقارنة بالتيار المستمر، فاعتمدته أغلب شركات الكهرباء فى محطات التوليد والتوصيل، وأصبحت غالبية دول العالم تعتمد هذا النظام. لكن على الرغم مما أحدثه التيار المتناوب من ثورة فى عالم الكهرباء، لايزال البعض متمسكاً بفكرة استخدام التيار المستمر، ومن هنا بدأت بين الفريقين سلسلة من النقاشات حول جدوى استخدام أي من التيارين.

ومنذ أكثر من مائة عام، تواجه صاحبي قلعتين صناعيتين فى واحدة من أسوأ المواجهات التي شهدها عالم المال والأعمال فى جملة تاريخه. ففي أحد الطرفين كان توماس اديسون، المخترع الشهير لآلات الفونوغراف والمصباح الكهربائي. وفي الطرف الآخر كان جورج وستنجهاوس، رجل الأعمال الشهير، الذي كان يساند مخترعا من أوروبا الشرقية اسمه نيكولا تيسلا.

وقد اختلف الاثنان حول طبيعة النظام الكهربائي فى الولايات المتحدة: هل يتم تشييده على أساس تيار متردد، كما اقترح وستنجهاوس، أم تيارثابت، حسب رأي اديسون؟

اديسون خسر تلك المعركة بسسبب من تعال وغرور وقسوة وسوء تعامل من قبله فقد كانت عدم قدرته على رأية الخطأ فى موقفه العامل المحدد فى خسارته لتلك المعركة، التي فقد بمقتضاها السيطرة على نظام التشغيل المتحكم فى كل اختراعاته التالية، وعلى الأخص شركة «جنرال اليكتريك» التي أسسها فيما بعد .

وبداية رحلة توماس مع المال والنجاح كانت مع تلك الحادثه التي احدثت تغيرا نوعيا فى حياته من حيث تقدير إمكانياته والحصول على مبالغ مجزيه. وذلك حين تعطلت آلة هامة فى بورصة الذهب كانت وظيفتها تسجيل الأسعار، وأسرعوا بمخترع الآلة الدكتور لوز، الذي سمح لأديسون وفضوله بأن يشاركانه بالكشف على الآلة، حينها بادر أديسون وقال أنا أستطيع إصلاحها، وفعلا خلال ساعتين كان أديسون قد أصلحها. مما جعل الدكتور لوز يستدعيه ويختبر معلوماته فى الفيزياء والتلغراف والكهرباء،حتى سمع مايسره وعين أديسون مشرفا على مصنعه براتب ٣٠٠ دولار شهريا.

كما عمل فى تحسين المشاريع لصالح شركة(وسترن يونيون) وفي عام ١٨٦٩ اخترع للشركه آلة تطبع الرسائل البرقية بالحروف أوتوماتيكيا. ليكون على موعد مع الثروة.

استدعاه المدير وسأله كم يريد مقابل الجهاز؟ فكّر أديسون بأن سعر خمس آلاف سيكون ممتازا ولكنه سكت وتأمل وقال للمدير ما السعر الذي تراه منصفا؟؟ قال المدير هل يكفيك أربعون ألف دولار؟؟ ليطير أديسون من الفرحة. ويخرج مسرورا مهلوسا لهذا المبلغ الضخم، رغم أن جهازه يوفر على الشركه الوف الدولارات.

يقول أديسون عن المال: " ليس المال إلا وسيله لاغاية " . وأصبح من بعدها ثريا، إلا أنه أنفق الأربعين ألفا فى شراء آلات جديدة وأنشأ معملا صغيرا فى نيويورك، وأخذت أعماله تتوسع حتى بات يخرج باختراع جديد كل شهر

واشترى معملا أضخم وأوسع حتى صار يعمل لديه ٢٥٠ عاملا قسم فى النهار وقسم بالليل. وعند بلوغه ٢٣ سنه فقط كان قد سجل باسمه ١٢٢ اختراعا .

يقول توماس أديسون عن أمه- كما سبق أن ذكرنا-: لقد اكتشفت مبكرا فى حياتي أن الأم هي أطيب كائن على الإطلاق، لقد دافعت أمي عني بقوة عندما وصفني أستاذي بالفاسد، وفي تلك اللحظة عزمت أن أكون جديرا بثقتها، كانت شديدة الإخلاص واثقة بي كل الثقة، ولولا إيمانها بي لما أصبحت مخترعا أبدا.

ويقول : " إن أمي هي التي صنعتني، لأنها كانت تحترمني وتثق في، أشعرتني أنى أهم شخص فى الوجود، فأصبح وجودي ضروريا من أجلها وعاهدت نفسي أن لا أخذلها كما لم تخذلني قط " .. " إنني أستطيع دائما أن أستخدم المختصين فى الرياضيات ولكن هؤلاء لايستطيعون استخدامي أبدا " .

وقال توماس أديسون عن الصمم الذي كان مصابًا به :"إن هذا الصمم الجزئي لهو نعمه من بعض النواحي، لأن الضوضاء الخارجيه لاتستطيع أن تشوش أفكاري" .

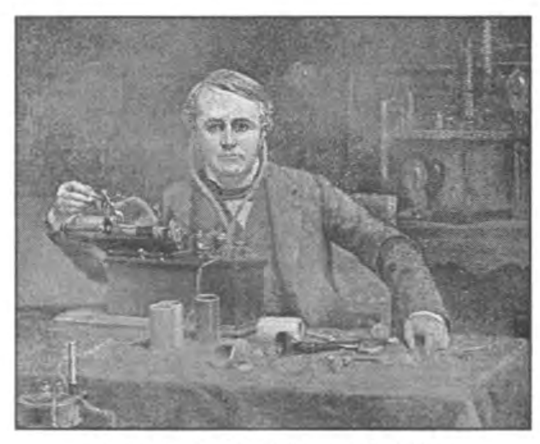
وقال توماس أديسون "لم يكن أمامى إلا أن أنجح فقد أعطيت الفشل عشرة آلاف نجاح خلال عشرة آلاف تجربة سابقة فاشلة، ولم يعد لدى أى شىء أخر لأقدمه له" .



أديسون " من اليسار " طفلا وشابًا وكبيرًا .



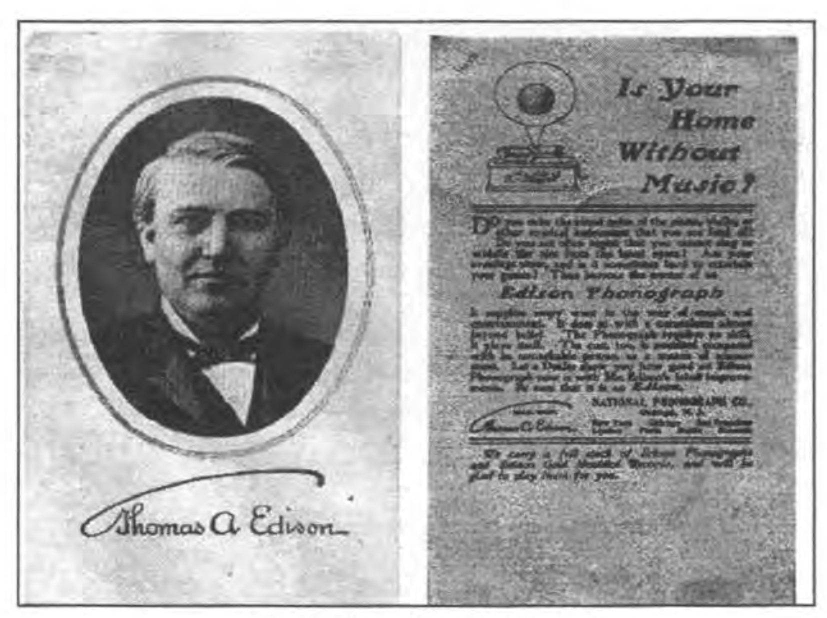
منزله فى مينلو بارك



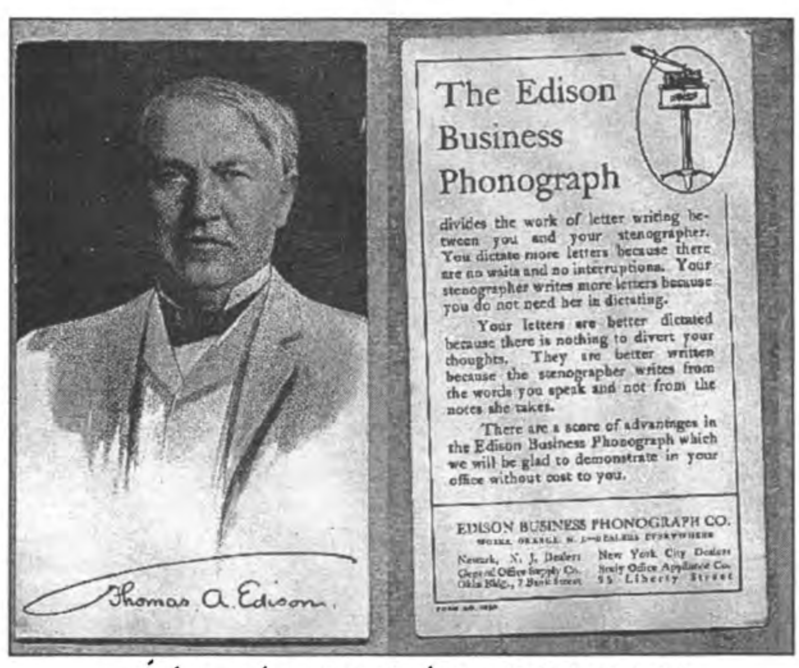
معمله الشهير والكائن داخل المنزل .



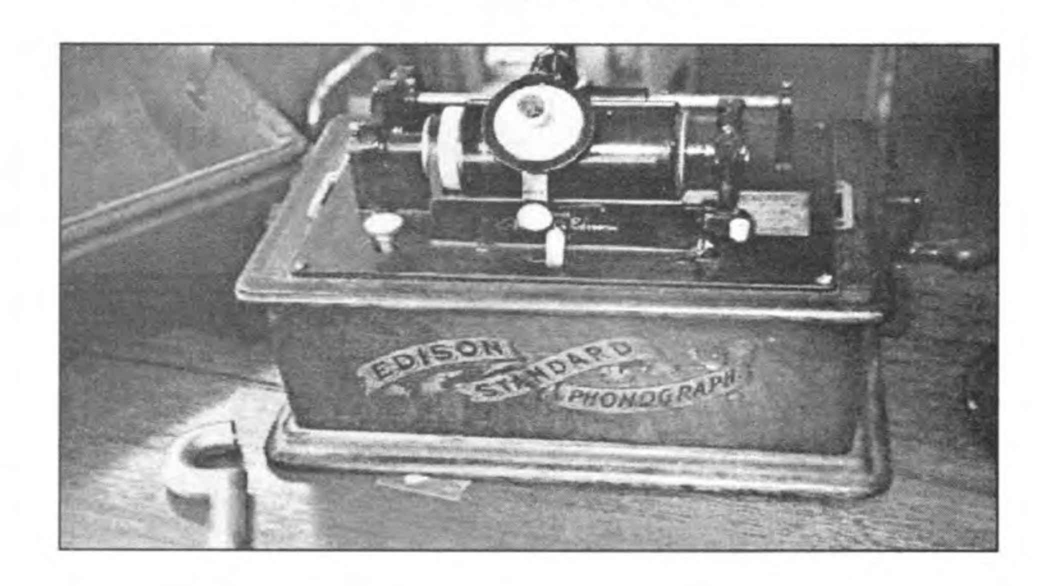
الفونوغراف الذي اخترعه أديسون معجزة القرن التاسع عشر.

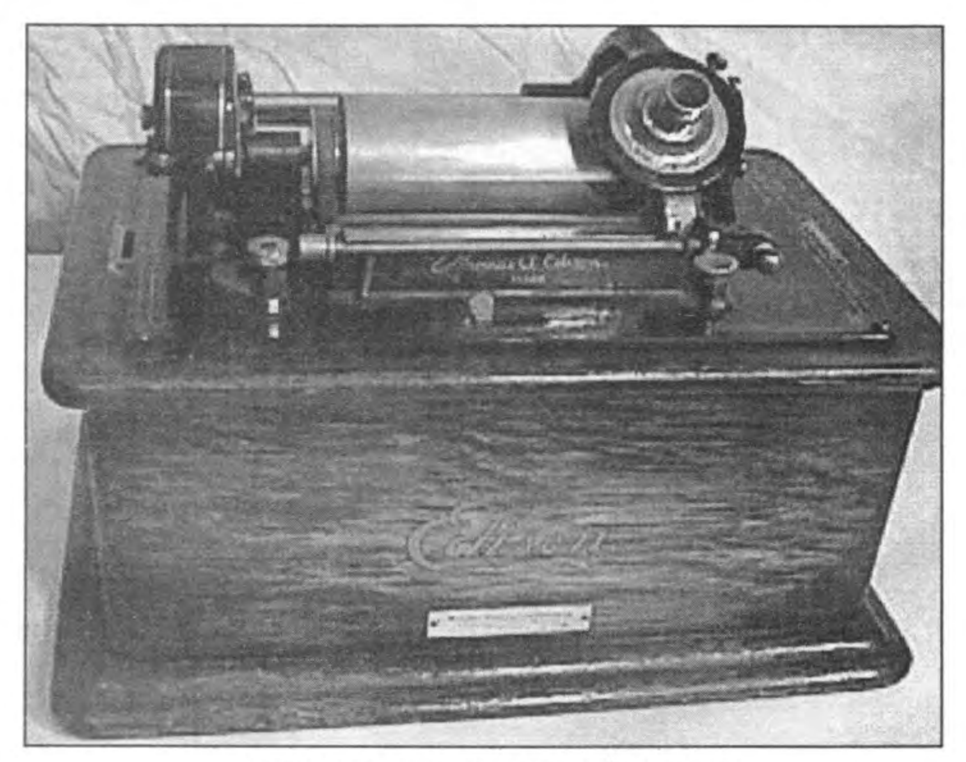


الدليل الخاص بتشغيل الفونغراف .



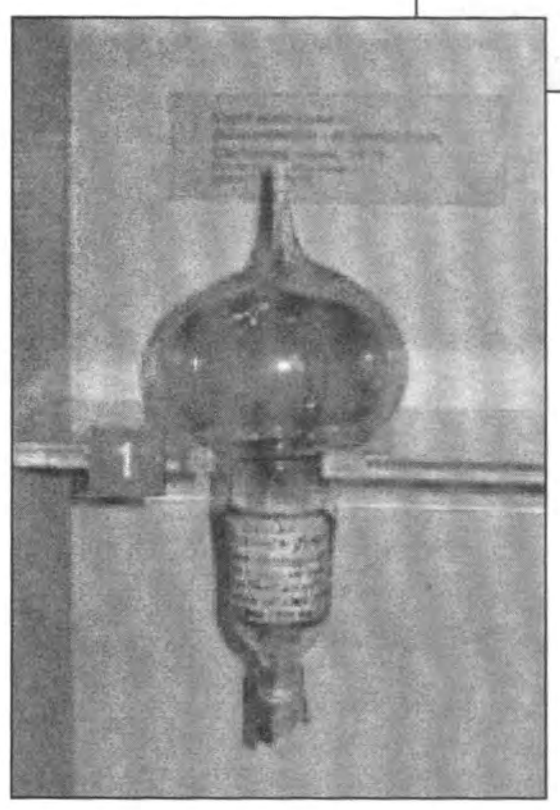
الفونوغراف الخاص بالأعمال اخترعه أديسون أيضًا .





فونوغراف أديسون بعد تصنيعه وطرحه للبيع .

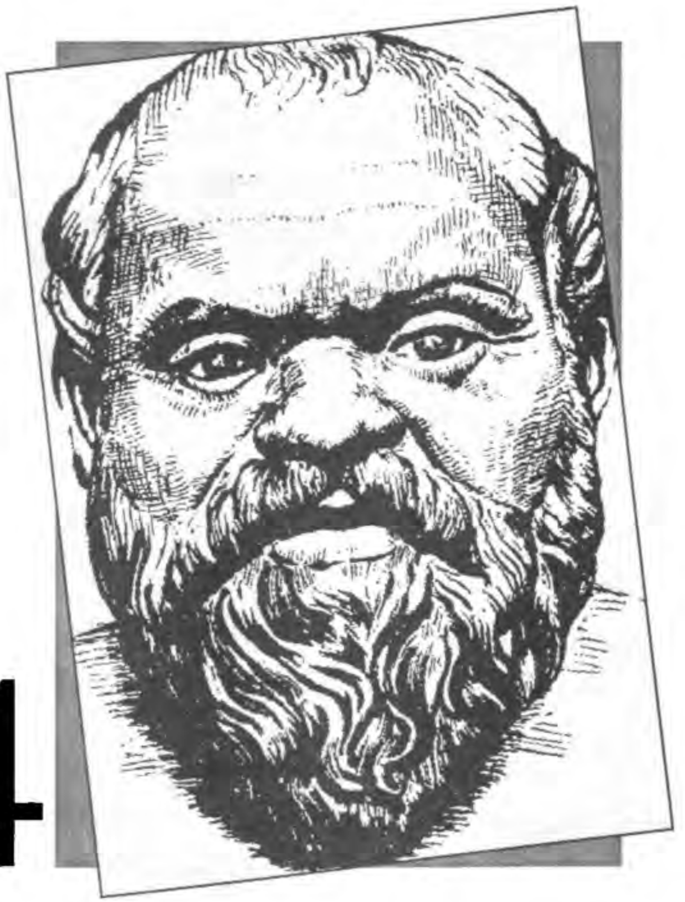
البطارية التى اخترعها أديسون



أول مصباح كهربائي لتوماس
أديسون سنة ١٨٧٩

سقراط ..

الثمن الفادح !!



14

لحظة الحكم عليه بالإعدام تنبأ سقراط علانية، وعلى مرأى ومسمع من القضاة الذين قرروا إرساله للموت بأنه لن يكون الضحية الأخيرة للسلطة العمياء. وقال إن التاريخ سيشهد من بعده أن لا خاتمة، أو نهاية لقافلة العظماء، الذين يُقَدَّمُون للموت، من وقت لآخر، تارة باسم الشعب، وتارة باسم الدين، وتارة أخرى باسم المصلحة العامة !!

وقال سقراط : فى الجو المشبع بالخوف من زوال مكسب، أو تصدع سلطان، أو نهاية حكم، يفقد أولو الأمر رشدهم، وتُظْلِم قلوبهم، ويتخبطون فى قراراتهم، فيصدرون أحكامًا على أعظمهم شأنًا، أو أكثرهم علمًا، أو أكبرهم حكمة، كأنه أحقر وأحط المجرمين " !!

ولم يقف سقراط أعظم فلاسفة التاريخ، وأول زعيم لأول حركة تنويرية فى التاريخ دعت إلى تغليب العقل على الجهل والخرافة، عند هذا الحد، فقد تنبأ أيضًا بأنه سيأتي اليوم الذي سيعود فيه اسمه إلى قائمة الخالدين فقال : " وبعد الحكم الجائر ضد العظماء والحكماء لا يلبث أن يزول الظرف الذي أملى على أولي الأمر حكمهم الجائر، وتهمد الغلواء، وترقد العاصفة، وينقشع الضباب، وتسطع الحقيقة، فيأتي بعدهم من يرفع لهم التماثيل فى الساحات، ويزين المدائن بأسمائهم، فيُخَلَّدُون كأكبر المصلحين، فيما يطوي النسيان ذكرى من أقدموا على إدانتهم، أو يُشَار إليهم باعتبارهم الأدنى والأحقر !!

وما أن انتهى سقراط من كلمته، أو بمعنى أدق نبوءته، حتى حُكم عليه بالموت بشرب السم، فرضخ للقرار الظالم، واستسلم لنهايته . مات سقراط فى عام ٤٠٠

قبل الميلاد، ولكنه خلد نفسه بفكره، وأصبح منذ ذلك الوقت، وحتى يومنا هذا من عظماء لتاريخ الذين لا تزيدهم الأيام إلا توهجًا وبريقًا .

و تكمن عظمة سقراط فى كونه ابن مأساته، التي تجمعت خيوطها حوله بقسوة وعلى مدى سنى عمره وإذا كانت بداياتها تعسة فقد كانت نهاياتها مفجعة !

وُلِدَ سقراط فى أسرة فقيرة لم تكن تمتلك حتى كلفة تعليمه مبادئ القراءة والكتابة . الأب نحات مغمور اسمه " سفرونيسك "، والأم امرأة طيبة القلب تدعى " فاناريتا " .

وُلد سقراط وعاش فى أثينا. وكان يعاني من تهكم السفهاء على صورته، ووصفهم له بالرجل القبيح المنظر، بسبب عينيه الجاحظتين وأنفه الأفطس، ووجهه الممتلئ، ناهيك عن ثيابه المهملة والمكونة من معطف صوفي لا أزرار له ولا حزام . وفوق كل ذلك، فأنه لا يمشي إلا حافي القدمين، فى الصيف كما فى الشتاء .

كما عانى سقراط كثيرًا من زواجه من " زانْتِب " التي عُرف عنها حسب الروايات أنها كانت حادة الطبع ويصعب العيش معها. وقد أنجبت له طفلين. سقراط كان تعيسا فى حياته الخاصة فقد كانت زوجته ثرثارة دائمة الشكوى تستخدم لسانها بنفس الطريقة التي يستخدم بها سائق العربة كرباجه الطويل فى إلهاب ظهور جياده .

وكان الفيلسوف الكبير يحاول دائما ان يتفادها ويهرب من شرها.. فيصحو فى ساعة مبكرة من الصباح قبل أن تشرق الشمس ثم يسرع بتناول طعام الإفطار الذي يتألف عادة من قطع الخبز الجاف المغموس فى النبيذ .. ثم يرتدي ملابسه ويسرع بالخروج من البيت ولايعود إليه إلا بعد حلول المساء .

سألوه يوما " أين كنت تقضي تلك الساعات الطويله بعيدا عن بيتك وزوجتك وابنائك الثلاثة ؟؟"

فقال " كنت أذهب إلى معبد من المعابد الصغيرة فى أثينا وأجلس فى ركن منه لأفكر وأتأمل .. فإذا مللت الجلوس وحدي خرجت أبحث عن حمام أغتسل فيه . ثم أبحث بعد ذلك عن الناس لأجلس إليهم واستمع إلى مايقولون " .

وقالوا له " لماذا اختاروك أحكم الحكماء فى اليونان " .. فقال لهم فى هدوء وهو يمسح على لحيته الطويلة بكلتا يديه " ربما لأني الرجل الوحيد الذي يعرف بأنه لا يعرف شيئا على الإطلاق " .

في البداية تعلم سقراط مهنة أبيه، وأتقنها لدرجة مذهلة، ورغم أنها لم تكن تدر فى ذلك الوقت عائدًا طيبًا، إلا أن سقراط كان راضيًا قانعًا لا يكل ولايمل .

وظل سقراط يعمل مع أبيه حتى جاء يوم، حدث فيه ما لم يكن فى الحسبان . فقد دار حوار مثير بينه وبين نفسه، كما جاء على لسانه فيما بعد، انتهى بتحول خطير فى حياته . حدث سقراط نفسه : " إنك تفني ذاتك، وتميت نفسك، حتى تنقل صورة جامدة إلى الحجر، لا روح فيها، ولا تفكر فى أن تصقل نفسك، فتجعل منها تمثالا حيا، يجسد الحقيقة الأعلى " !

وعلى الفور، تخلى سقراط عن المطرقة والأزميل، وانصرف كلية للبحث عن الحقيقة، وعندما طالبه والده بالعودة إلى النحت قال له : الآثار الفنية مهما بلغت درجة من الجمال تبقى صماء، أما البشر فينطقون، وبي حاجة لسماعهم " .

هكذا بدأ سقراط، وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره طريقه فى الحياة، وهو نفس طريقه للفناء، ولكن الرجل الفقير لم يكن لديه من المال ما يدفع منه لكبار رجال العلم والفلسفة، الذين يفدون لأثينا، لتقديم دروسهم لكل من يحب ويهوَى !

ولكن الشاب الدؤوب قرر أن يعلم نفسه بنفسه، ويستخدم عقله لإنارة ليس عقله فقط، وإنما عقول الناس . وهنا اكتشف سقراط عبقريته، ورجاحة عقله، ورؤيته الثاقبة، فلم يُسلم بشىء، أو يأخذه على علته، بل كان يُعمِل فكره فى كل شيء

متأملا، فاحصًا، مستقصيًا، مستقرئا . وكانت قولته المعروفة : إذا قال أحد إن شيئا هو كذا فهل نُسَلِّم بأنه كذلك، أم نفحص ما يقوله هذا القائل ؟!

ورغم بساطة هذا الموقف إلا أنه كان خطيرًا، بل وينذر بشر مستطير، فقد وجد سقراط نفسه – وجهًا لوجه – أمام السلطة الحاكمة فى أثينا، وآلهة المدينة، اللذيْن وجد فيهما بالعقل والمنطق كل مظاهر الخلل والاعوجاج والخروج عن قواعد المنطق، وأنهما أبعد ما يكونا عن الصواب، فراح يفند موقفيهما، ويوقظ الوعى لدى الناس، ويبصرهم بحقوقهم، ومن هنا كانت أزمته مع السلطة ورجال الدين، والتي دفع فيها سقراط حياته عن طيب خاطر كأول رجل فى التاريخ يعدم بسبب فكره !!

نعم .. راح سقراط يجوب شوارع أثينا وأسواقها متحدثاً إلى كل شخص يقابله. أما حديثه فكان يدور فى معظم الأحيان حول الروح والخلود والأخلاق الفاضلة.

وكان عند سقراط العديد من الأصدقاء المستنيرين من بينهم أفلاطون وكريتو وألسيبياديس وزينوفون وفيدون وأقليدس وميغارا وأرستيبوس. ومع ذلك فقد كان عمله محصوراً مع شباب أثينا الذين أرادهم أن ينتهجوا سلوكاً أدبياً ويتمرسوا بالأخلاق الفاضلة. وقد كان مثله الأعلى هو معرفة الذات وكان لا يكف عن الترديد "اعرف نفسك".

الشر بالنسبة له كان نتيجة للجهل. وكل ما كان خيّراً ونافعاً وجميلاً اعتبره واحداً من حيث الجوهر بالرغم من اختلاف المسميات. وكان يقول: ما من أحد يفعل الشر بمحض إرادته وأن الفضيلة يمكن تلقينها لمن يرغب فى أن يصبح فاضلا.

كما كان يقول إن أفضل الحكام أحكمهم وليس بالضرورة أكثرهم تحصيلا للعلم. لأن الحكام الحكماء يشعرون بمسؤولية تجاه الناس فيسعون لإسعادهم ويعملون على تحسين أوضاعهم.

وقد اكتسبت طريقته المعروفة بـ " السقراطية " شهرة واسعة، إذ كانت عبارة عن استجواب يغري حتى أذكى الناس بالنقاش والتباين فى وجهات النظر. وكان يخفي معرفته خلف ستارة من الجهل المفتعل. وعن طريق سلسلة من الأسئلة المنتقاة بعناية تمكن من معرفة ما أراد معرفته من كل من كان يحاوره أو يستمع إليه.

وتعد محاكمة من أشهر المحاكمات فى التاريخ، فقد كانت محاكمة الفيلسوف الكبير أو كما يحلو لتلاميذه تسميتة " المعلم الأول " محاكمة للفكر والعقل وكل من يبحث عن الحقيقة والخير. وقد أثارت محاكمة سقراط جدالا واسعا لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا. وهذا راجع إلى مكانته المتميزة على الساحة الفلسفية والفكرية. . هذه المحاكمة التي خلدها أفلاطون فى عدد من محاوراته، وخاصة محاورة " الدفاع " مما جعلها من أشهر المحاكمات فى التاريخ.

ومن المعروف أن أفلاطون حاول استغلال هذه المحاكمة للنيل من الديمقراطية اليونانية وبيان قصور نظامها القضائي، وقد أثرت الصورة التي رسمها أفلاطون بصفة خاصة على كثير من الكتاب والمفكرين إلى يومنا هذا فى اتهام النظام القضائي فى الديمقراطية الأثينية بالظلم وعدم احترام حرية الفكر .

قُدّمَ سقراط للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية. وكان سقراط يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم.

خمسمائة قاض وقاض جلسوا، الواحد بجانب الآخر، على المدرج ذي المقاعد الخشبية المغطاة بالحصر، وفي مواجهتهم، رئيس المحكمة محاطاً بكاتبه والحرس. وفي أسفل المدرج وضع الصندوق الذي سيضع فيه القضاة أحكامهم بعد انتهاء المحاكمة . الجلسة علنية. ولا يسمح فيها لغير الرجال بالحضور .

أما الطقس، فقد كان جميلاً ، مما أدخل الارتياح إلى نفوس الجميع وجعلهم يأملون بجلسة كاملة لا يربك مجراها مطر يهطل على الرؤوس أو برد يعطل تواصل

الأفكار . وإذا بدا لنا أن انعقاد محكمة فى الهواء الطلق أمر مستغرب بل وطريف، اليوم، فلنتذكر أننا فى أثينا، فى صباح من أيام ربيع عام ٣٩٩ قبل الميلاد .

أثينا هذه التي قدمت الديمقراطية للعالم، تعيش فترة عصيبة، لقد هزمتها سبارطة فى حرب دامت بينهما سبعاً وعشرين سنة، وفرضت عليها شروطاً قاسية. منها نظام "الثلاثين مستبداً " بقيادة احد أبنائها، كرينياس، الذي تخلص منه الأثنيون منذ وقت ليس ببعيد . فى هذا الجو من القنوط الوطني . كثرت الإحقاد وتعددت حوادث تصفية الحسابات لكن العدالة ظلت تعمل والقضاة فى اثينا، وعددهم ستة الاف، مواطن متطوعون يجري اخبارهم سنوياً بشكل عشوائي . وهم يوزعون، بعد الاختيار، فى اثنتي عشرة محكمة فى كل واحدة منها خمسمائة قاض وقاض .

متهم اليوم شيخ ذو لحية بيضاء وثياب رثة . إنه ابن النحات سوفرونيسك والقابلة فيلا ريت وهو الملقب بسقراط . لكن ما هي التهمة التي سيحاكم اليوم على أساسها؟ لقد اتهمه أحد المواطنين، ويدعى مليتوس، بالكفر بالآلهه وبإدخال شياطين جديدة إلى المدينة وإفساد الشبيه. وهي تهمة تستحق عقوبة الموت .

سقراط كان لا يميل إلا للحوار ومناقشة الآخرين حول مختلف المواضيع داعياً إياهم إلى التفكير معه والتأمل . كان يجوب المدينة يتحدث إلى المار ويستوقف الشباب يفقههم فى أمور الوجود وجوانب الحياة . وأثينا فى ذلك العصر من الديمقراطية، كانت تعج بالفلاسفة ورجال السياسة والأخلاق يسعى الناس إليهم ينقلون عنهم أصول الفكر وكان هؤلاء يتقاضون عن تعليمهم أتعاباً باهظة فى معظم الأحيان .

أما سقراط فكان يرفض بيع فكره كان يعتبر أن الفلسفة ممارسة عضوية ويومية، وأنها وبالتالي، نمط حياة . وغني عن القول أن سقراط لم يكن مواطناً أثينيا كالآخرين . فهو لم يأبه لماديات الدنيا على الرغم من زواجه وإنجابه ثلاثة أولاد بل كان دائم الزهد فى ما يشغل الناس . وهذا ما جعله غامضاً، بل وموضع

سخرية فى الكثير من الأحيان . غير ان سقراط لم يعدم وسيلة لتوضيح حقيقة أمره كان يرد على مسامع محاوريه أن حقيقة إلهية تدفعه للتصرف وأن هذه الحقيقة يمكن ان لا تكون سوى ضميره القابع فى أعماق نفسه . تلك المشاعر وهذه الأفكار هي التي لم ترق للبعض، وهي التي أوصلته لأن يمثل اليوم امام المحكمة، باعتبار أنه " يفسد الشبيبة ولا يؤمن بآلهة المدينة " .

في بدء الجلسة، ولم يكن فى نظام المحاكمات آنذاك ما يسمى اليوم بالادعاء العام، وقف المدعي الأول مليتوس يتكلم عن مفاسد سقراط فى المجتمع. وأعقبه مدعيان آخران ليكون وانيتوس وكلهم طلبوا الحكم بالإعدام على" العجوز الشرير" . ولانيتوس هذا مبرر آخر للادعاء على سقراط فقد كان ابنه تلميذا من تلاميذ الفيلسوف و" مضللاً به "وهذا ما يفسر انشغاله عن صنعه أبيه وهي الاتجار بالجلود. يضاف إلى ذلك أن سقراط تهكم عليه مرة أمام الناس خلال مناقشة ظهر فيها الجاهل وحديث النعمة على قدر كبير من السخف .

ومن سوء طالع العجوز أيضاً، ان كريتياس، المستبد الدموي والعميل لسبارطة، كان من بين تلاميذه، فى فترة من فترات حياته . اتخاذه كريتياس وآخرون غيره ممقوتون فى مجتنعهم تلامذه له هو من قبيل انفتاحه على الجميع ودون النظر إلى آرائهم الساسية والفلسفة أو إلى نمط الحياة التي يعيشون .

وإذا توخينا الاختصار، قلنا إن سقراط، بأفكاره ومناقشاته، بدأ يصبح شخصاً مزعجاً، ليس للسلطات فقط، بل للآباء الذين رأى بعضهم أبناءه يخرجون عن طاعته ويلحقون بالمعلم.

بعد انتهاء المدعين الثلاثة من كلامهم، جاء دور المتهم . ومن إجراءات المحاكمة الأثينية فى ذلك العصر أن يتولى المتهم شخصياً الدفاع عن نفسه. وإذا كان غير قادر، فإن محترفاً يقوم بتلقينه الدفاع وتحفيظه إياه عن ظهر قلب . يجب أن يستغرق الوقت الذي استغرقه الادعاء لا أكثر .

بدأ سقراط دفاعه برد التهم ومن ثم، بالانتقال إلى الهجوم، قال إن من يدعي العلم، من بين كل من ناقشت وحاورت، وإنما هم جهلة ولا يفقهون من العلم شيئاً والحقيقة هي أني أعلم الناس. ذلك لأن الناس يعتقدون أنهم بعرفون شيئاً وهم فى الواقع، لايعرفون أي شيء. أما أنا فإني أعرف أني لا أعرف .

وانتهى سقراط بتحذير القضاه من الحكم عليه بالموت . وإن فعلوا فإنهم لن يجدوا مثله وسيغرقهم الاله والاثنيين فى سبات أبدي . أما إذا لم يفعلوا فسيعود إلى نشر أفكاره كما فعل دائماً وكما أوحى له ضميره . لم يستدر سقراط عطف القضاة كما يفعل عادة المتهمون الماثلون امام مثل هذه المحكمة . لقد قال ما قاله وجلس دون أي انفعال .

أما القضاة، فقد بدأوا ينزلون المدرج ليضع كل واحد منهم حكمه فى الصندوق. هذا الاقتراع هو أولي . إنه ينحصر فى تقرير تجريم أو عدم تجريم المتهم .

قضت نتيجة التصويت بتجريم سقراط بفارق بسيط فى الاصوات : ٢٨١ صوتاً ضد ٢٢٠ . ويقتضى القانون الأثيني، فى هذه الحال، أن يعين المتهم نفسه العقوبة التي يراها، هو مناسبة . وقف سقراط وأعلن انه يسره أن تتعهده البريتانية !

وتعالى الصخب وصياح الاستنكار من الحضور الذين رأوا فى كلامه تهكماً وسخرية من هيئة المحكمة ومن كل الموجودين . ذلك لأن البريتانية مؤسسة أثينية تتعهد عظام الرجال وتتولى تأمين معيشتهم بشكل لائق وكريم .

ما إن سمع القضاة كلام سقراط، حتى قرروا أن يصوتوا بأنفسهم على نوع العقوبة ومستواها . نزلوا ثانية إلى حيث الصندوق وصوتوا على أن يكون الحكم بالإعدام هو الجزاء الذي يجب أن يناله سقراط وذلك بأغلبية كبيرة .

لقد أوقع الرجل نفسه فى التهلكة بعد أن كان يمكنه أن ينقذها بتصرف آخر أكد للجميع أنه يسعى للموت بكل رغبة وحماس .

مضى شهر على صدور الحكم . أما طريقة التنفيذ فهي الاسهل من بين لائحة لا يخلو بعض بنودها من العنف : تجرع كمية من سم يحضر خصيصاً للمناسبة . خلال هذا الشهر . جاءه كريتون، احد تلامذته المخلصين، عرض عليه أن يقبل الهرب من السجن، بعد أن يتدبر كريتون أمر رشوة الحراس، فرفض سقراط قائلاً بوجوب احترام العدالة وقوانينها، حتى ولو كانت هذه القوانين جائرة .

هذا الشهر الذي فصل بين صدور الحكم وتنفيذه، أمضاه سقراط بهدوء أدهش المتصلين به من حراس ونزلاء . أما لماذا أبقي شهراً كاملاً ينتظر مصيره، فهذا يعود إلى ان تنفيذ أحكام الإعدام لم يكن مسموحاً به فى الشرائع الدينية آنذاك إلا بعد عودة الكهنة من جزيرة ديلوس . وفي اليوم التالي لهذه العودة، تجمهر تلامذته فى السجن ووصلت زوجته . وما أن رأته والحراس يفكون أصفاده تمهيداً للإعدام، حتى أجهشت بالبكاء ونتفت شعرها ومزقت ثيابها:

آه يا زوجي ! هذه آخر مرة تتكلم وآخر مرة ترى فيها أصدقاءك ! .. تأثر سقراط وطلب إليها أن تذهب . ثم التفت نحو أصدقائه وبدأ يحدثهم ويتناقش وإياهم فى مواضيع مختلفة فى الفن والموت والروح.. وبينما هو كذلك، إذ بالجلاد يقاطعه :

لا تتحرك كثيراً يا سقراط، وإلا يفقد السم مفعوله وللمرة الاولى ينفعل سقراط ويقول للجلاد:

لماذا لا تضع كمية مضاعفة ؟ هذه مهنتك .

وعاد إلى التحدث مع تلامذته الذين لم يتمكنوا من إخفاء إعجابهم ودهشتهم. لقد استطاع هذا الإنسان ان ينتصر على غرائزه وعلى مخاوفه . وعندما اقترب الوقت المخصص لتجرع السم، دخل سقراط غرفة مجاورة ليستحم وهو يقول :

أريد أن أوفر على النساء تنظيف جثة ميت . طال الاستحمام والجلاد ينتظر على الباب . ولما خرج سقراط، اقترب منه الجلاد وفي يده كأس السم . قدمه إليه وقال له :

سقراط اعرف انك لن تشتمني كما يفعل الآخرون. أنت عاقل وتستطيع أن تتحمل قدرك .

مرحى لك ! هيا . ماذا على أن أفعل؟

لا شيء سوى خطوات قليلة بعد التجرع . وعندما تشعر بثقل فى ساقيك، عليك ان تستلقي والباقي يتولاه السم نفسه .

وتناول سقراط الكأس وتجرعه دفعة واحدة بكل هدوء . لم يتمالك تلامذته مشاعرهم فانفجروا يجهشون بالبكاء مثيرين غضب المعلم :

ماذا تفعلون ؟ لقد أمرت زوجتي بالرحيل حتى لا أرى ما يشبه مظاهر الضعف هذه أريد ان أموت بصمت الخشوع . فتمالكوا مشاعركم .

وصمت الجميع فوراً . بعدها استلقى سقراط كما أشار جلاده . وجاء الجلاد يقيد رجليه ويقول له :

هل تشعر بشيء؟

- كلا

وراح الجلاد يشرح للحاضرين أن الموت يصل إلى القلب بعدما تبلغ البرودة الرجلين والبطن.

وعندما شعر سقراط بهده البرودة تصل إلى بطنه، أشار إلى تلميذه المخلص كريتون بالاقتراب ليقول له بصوت ضعيف :

كريتون، فى ذمتنا ديك لا يسكولاب . ادفع له ثمنه دون نقاش .

حاضر يا سيدي . هل تريد شيئاً آخر ؟

لم يجب سقراط . لقد أغمضت عيناه ...

"ديك لايسكولاب " إنها لا شك عبارة أراد بها سقراط التهكم على إله الطب. لم يوفر سخرياته على الآلهة، حتى وهو على وشك أن يموت ! وما الموت بالنسبة له ؟ اليس هو التحرر ؟ أليس الشفاء من مرض هو الحياة، كما كان يردد دائماً ؟

هذه الجمله التي قالها سقراط قبل موته، والتي تمثل التشاؤم الهادئ والساخر بأبرز معانيه، كانت عبارة رسالة من أول رجل أعدم فى التاريخ بسبب أفكاره .

و هناك لوحة تاريخية خالدة وشهيرة اسمها " موت سقراط " رسمها الفنان العالمي جاك لوي ديفيد ، وهو فى ذروة مجده، فقد كان هذا الفنان جزءًا من دائرة ضيقة من الأصدقاء من مفكرين وساسة وعلماء، وكان من بينهم " شيرنيير " و" لافاييت " و" لافوازييه " الذين كانوا يضغطون من أجل إصلاحات سياسية راديكالية فى فرنسا الملكية .

وفي ١٧٨٧ أنجز جاك لوي رائعته " موت سقراط " التي تصور اللحظات الأخيرة فى حياة الفيلسوف والمفكر الإغريقي العظيم، الذي أصبح مثالاً على التضحية بالنفس فى سبيل المبدأ .

وفي اللوحة يبدو سقراط متماسكاً وقد غمرته هالة من النور رمزاً للخلود ، بينما سيطر على أتباعه الحزن واليأس، ومن خلال توزيع الضوء والعتمة استطاع ديفد لوي تحويل صورة من صور التضحية إلى دعوة مدوّية للنبل والتضحبة والثبات على المبدأ حتى فى مواجهة الموت .

ويبدو سقراط مستمراً فى الحديث إلى تلاميذه حتى وهو يمد يده إلى كأس السم ليشربه !

مؤكداً استهانته بالموت وإلتزامه الذي لا يهتز بأفكاره ومبادئه، وبدا أتباعه ومريدوه وهم ملتفون حوله فى حزن كاشفين عن عجزهم وضعفهم أمام ذلك الامتحان العسير .

بعض المصادر التاريخية تذكر أن بعض التلاميذ حاولوا إقناع سقراط بتهريبه إلى الخارج لكنه رفض الفكرة على اعتبار أنها خرق للقانون لايصح ولا يجوز .

وفي الزاوية البعيدة من اللوحة يمكن رؤية زوجة سقراط وهي تغادر السجن، بينما جلس تلميذه الوفي أفلاطون عند مؤخرة السرير. وراح كريتو يمسك بقدم سيده وهو يواسيه .

بالنسبة لمعاصري الفنان جاك لوي ديفد فإن المشهد يستدعي الأحداث الكبيرة التي شهدتها فرنسا فى ذلك الوقت أي فى عام ١٧٨٧ مثل وأد إصلاحات النظام الملكي وحل مجلس الأعيان والعدد الكبير من السجناء السياسيين داخل سجون الملك وفي المنفى .

وقد أراد الفنان جاك لوي ديفيد من خلال هذه اللوحة إيقاظ الأنفس الخانعة وتحريضها على البذل والتضحية، إنها بمعنى ما دعوة صريحة لمقاومة السلطة الغاشمة .

وعندما كسف الستار عن اللوحة " موت سقراط " كان الرئيس الأمريكي الراحل توماس جيفرسون حاضراً وقد بهره المشهد كثيرا.

وقبل أن يشرع جاك لوي ديفيد فى رسم هذه اللوحة استشار لأسابيع طويلة أصدقاءه المقربين بشأن تفاصيلها ودلالاتها وقرأ العديد من المراجع التاريخية التي تحكي عن وقائع المحاكمة .

وقد استند فى الأساس إلى رواية أفلاطون عن الحادثة، لكنه أيضاً اعتمد على مضمون كتاب للفيلسوف الفرنسي ديديرو، بينما استوحى منظر أفلاطون الجالس على طرف السرير من مقطع من رواية للكاتب الإنجليزي ريتشاردسون .

كان الفنان جاك لوي ديفيد مصنفاً فى عداد الفنانين النيوكلاسيكيين وكان يروّج فى أعماله لقيم التنوير والثورة الفرنسية .

وهكذا قضى سقراط الذي غالباً ما كان يردد: "كثيرة هي الأشياء التي لا حاجة لي بها" ! وقد أبّنه تلميذه وصديقه أفلاطون بهذه العبارة المؤثرة: " مات سقراط الذي ما رأينا أنبل منه فى مماته مثلما لم نعرف أعدل وأحكم منه فى حياته" .

لم يعرف لسقراط أية مؤلفات، وقد عُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطو فانيس وأرسطو.

ولكن من أقواله الشهيرة الكثير مما تم جمعه ومنها :

* ليس العاطل من لا يؤدي عملاً فقط ،العاطل من يؤدي عملاً فى وسعه .أني يؤدي أفضل منه .

* حاذرعمل الشر أكثر مما تحاذر العذاب.

* المرأة العظيمة هي التي تُعلمنا كيف نُحب عندما نريد أن نكره، وكيف نضحك عندما نريد أن نبكي، وكيف نبتسم عندما نتألم!

* عبقرية المرأة فى قلبها .

* إذا قلت للمرأة:أنتِ جميلة فافعل ذلك همساً ،لأن الشيطان إذا سمعك ردد فى أذنها صدى قولك مرات .

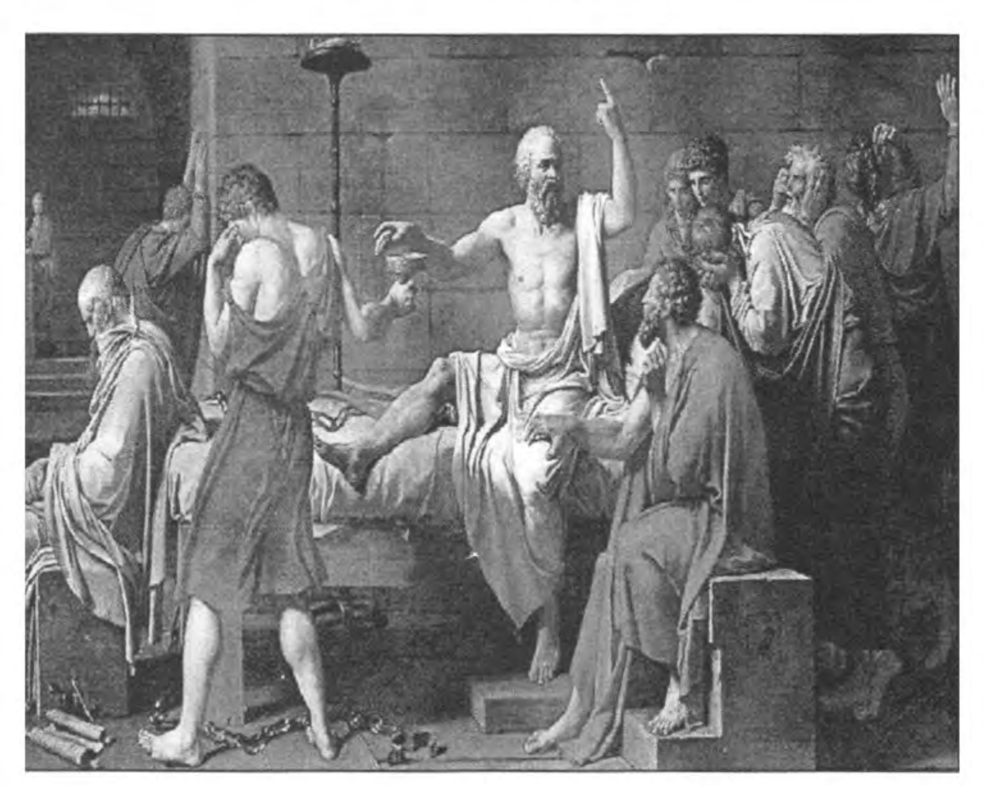
* قلة الدين وقلة الأدب وقلة الندامة عند الخطأ، وقلة قبول العتاب أمراض لا دواء لها .

* متى أُتيح للمرأة أن تتساوى مع الرجل أصبحت سيدته .

* لا فضيلة بلا معرفة .

* ليس من من الضروري أن يكون كلامي مقبولا، من الضروري أن يكون صادقاً.

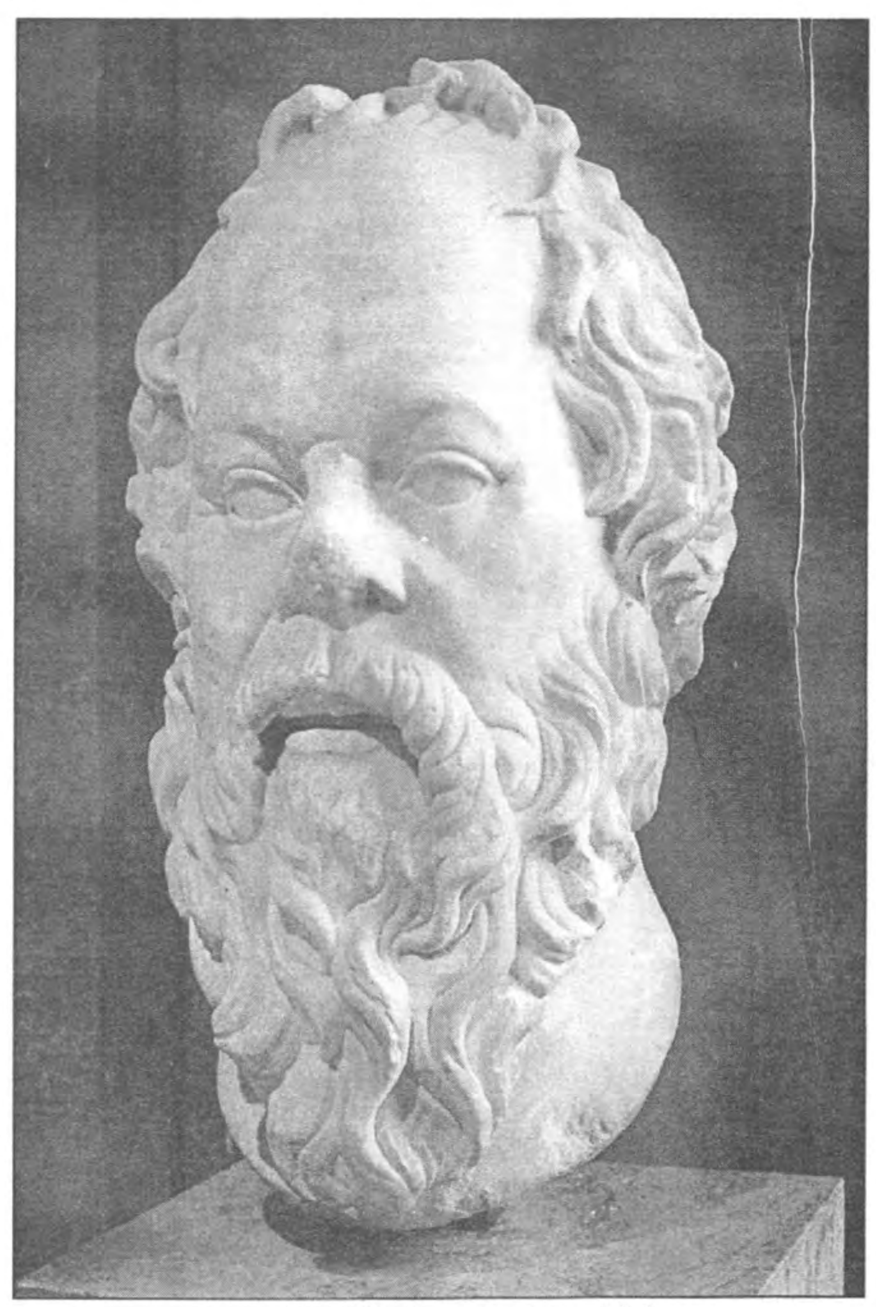
* الحكمة لله وحده، وعلى الإنسان أن يجد ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محبًّا للحكمة تواقًا إلى المعرفة، باحثاً عن الحقيقة .



لوحة " موت سقراط " الخالدة شاهدة على المأساة !!



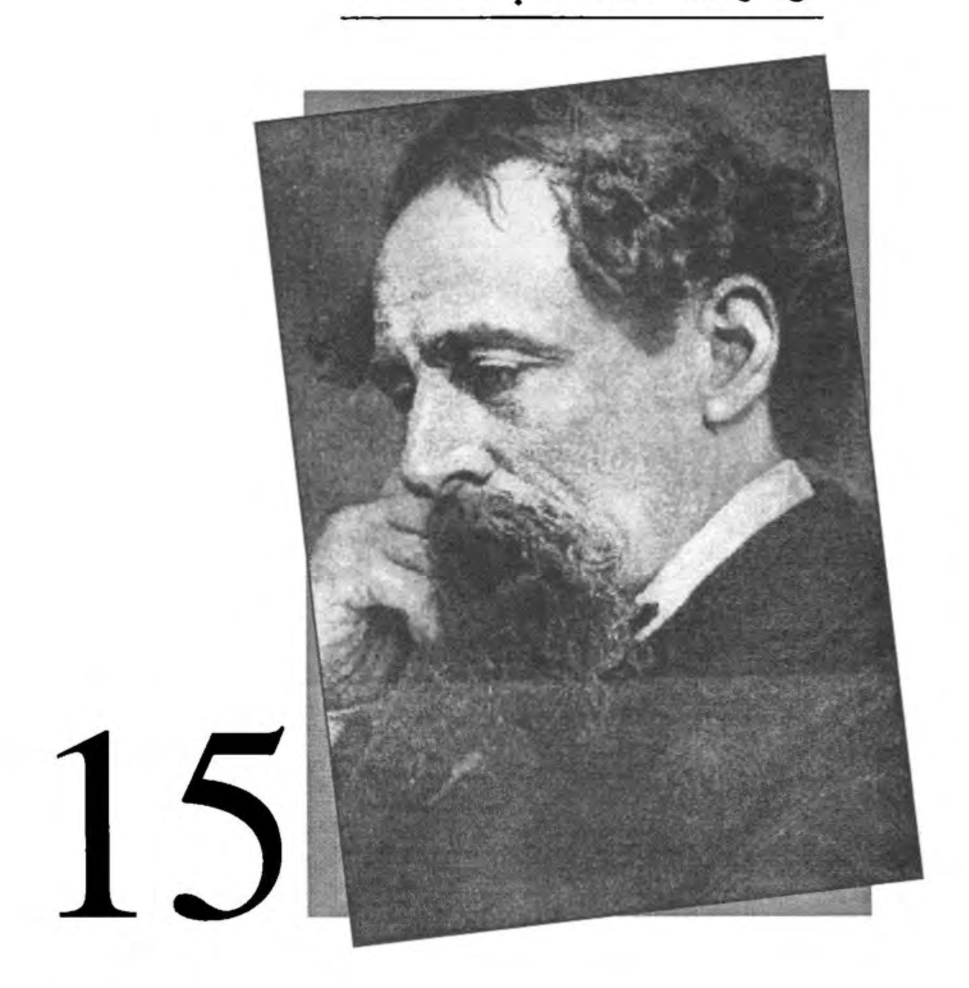
تمثال سقراط فى أثينا .. قتلوه فى حياته .، وخلدوه بعد مماته !!



تمثال سقراط فى متحف اللوفر بباريس .

تشارلز ديكنز :

لولا رحمة الله لأصبحتُ لصاً !!



15

أقل ما كان يمكن أن يحدث مع هذا الأديب العالمي العبقري هو أن يصبح طفل شوارع أو بمعنى آخر يصير متشردًا، فقد تناوبت عليه فى صغره الخطوب والمحن، ولكنه أبى إلا أن يكون ما يرى، وقد كان له ما أراد، ولكن كان عليه أن يدفع ثمنًا باهظًا فاحش الغلاء !!

انظر إليه يقول : "تأمل النعم التي تمتلكها الآن والتي يمتلك كل إنسان الكثير منها، ولا تفكر فى أحزانك الماضية والتي لدى كل منا القليل منها".

نعم هذه الكلمات جاءت على لسان شارلز ديكنز أعظم قصاص بريطاني وثاني رجل بين كتاب بريطانيا بعد شكسبير وهو الأديب الذي ترك ثروة أدبية وروائية خالدة على مر الزمان، إنه تشارلز ديكنز الذي اتخذ من حياة البؤساء والفقراء والمهمشين عالما خصبا لقلمه، نسج أروع الإبداعات الروائية التي تتحدث عن ضرورة تحسين النظام الصحي العام، وتربية الجماهير الفقيرة، ومحو الأمية، إنه الظاهرة الخارقة كما تصفه الروائية الأمريكية جين سميلي.

كان يعرف بغرابة أطواره حيث عرف بقوة ملاحظته وسرعة غضبه، وتشدده فى تربية أولاده "وكان لديه منهم عشرة"، فكان يقيم البيت ويقعده ويملؤه صياحاً وتهديداً إذا ما وقع نظره على قطعة من الفرش فى غير موضعها، أو أتت إحدى بناته أمراً، أو أهملت شأناً من الشؤون المنزلية وإن كان طفيفاً.

و من أبرز الدلائل على غرابة أطواره أنه كان يغادر منزله وسط الظلام، ويتوه فى شوارع لندن قاطعاً ١٥ أو ٢٠ ميلاً فى الليلة الواحدة دون أن يكون له أي مأرب من هذه النزهة الليلية!

ففي إحدى المآدب التي أقيمت له فى الولايات المتحدة الأمريكية دسّ يده فى جيبه وتناول مشطاً راح يمشط به شعره ولحيته وشاربيه، على مرأى من الحاضرين المشدوهين المتقززين.

ولد ديكنز فى عائلة كبيرة وفقيرة فكان الابن الثاني من بين عدد من الإخوة.. كان والد تشارلز ديكنز كاتب حسابات أما جده وجدته لأبيه فكانا خادمين، أحب والده العظمة والوجاهة وقد كان مسرفا وأحواله المادية صعبة .

مما زاد الطين بلة أن زوجته هي الأخرى كانت لديها نفس الصفات . وأدى إسراف ديكنز الأب إلى كل الشقاء الذي قاساه ديكنز الابن فى صغره .. ولكن كما يقول المثل : رب ضارة نافعة.. فإن المأساة التي عاشها تشارلز فى صغره هي التي خلقت منه ذاك العبقري الذي خلده التاريخ.

رقي والده وأصبح موظفا فى الميناء الحكومي وقد كان فى منزل الأسرة خادمتان وكانت إحداهما وتدعى "ماري" تقص على تشارلز قصصا مرعبة تجعله يعاني من الكوابيس، وكان والده يجعله يقف فوق مائدة المطبخ ليغني الأغاني الضاحكة للضيوف.

في سن السابعة حتى العاشرة كان تشارلز يقرأ القصص بنهم كبير فقد كان يختفي فى غرفة صغيرة ويقرأ قصص "دون كيشوت" وروبنسون كروزو وغيرها وكانت جولاته فى شوارع لندن المدرسة الحقيقية التي تخرج منها ليصبح كاتبا عبقريا.

ساءت الأمور وكثرت الديون على آل ديكنز وبيع الأثاث وجاء الدور على كتب تشارلز وقصصه مما جعله يحس بتعاسة ما بعدها تعاسة وأرسله أبواه ليعمل فى مصنع للبويات السوداء مما أثر فى نفسه تأثيرا لم ينمح بمرور السنين ويقول عن

هذه الفترة: "لقد تأثرت طبيعتي كلها من الحزن، والتحقير اللذين لحقاني نتيجة للأحداث التي مرت بي حتى أنني الآن وأنا شهير وسعيد أنسى أحيانا فى أحلامي، أنني رجل ولي زوجة وأطفال وأعود بخيالي إلى تلك الأيام البائسة من حياتي".

لقد أصيب هو وعائلته بكارثة إذ قبض رجال الشرطة على والده لعدم قدرته على سداد ديونه وأرسل إلى السجن المخصص للمدينين العاجزين عن السداد. أمضى ديكنز الأب ٣ أشهر فى السجن ويصف تشارلز حالته فى هذه الفترة "كنت أعلم أنني أتجول فى الشوارع وأنا جائع وأنه لولا رحمة الله لأصبحت لصا أو متشردا صغيرا".

في سن الخامسة عشرة بدأ العمل صبيا فى مكتب أحد المحامين وعمل بعد ذلك فى إحدي المحاكم وقد ساعده ذلك فى إتقان النواحي القانونية فى قصصه، وفى نفس الوقت كان يعمل مراسلاً لإحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء أجر متواضع أيضاً، ولكنه لم يهتم بالأجر فلقد تفانى فى هذا العمل الصحفي الذي كان بمثابة أولى خطواته لتحقيق أحلامه فقد كان بمثابة تمرين له على حرفة الأدب، ولقد أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتأمل أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والأخلاقية فخرج بالعديد من التجارب الإنسانية والأخلاقية التي وسعت آفاقه ومداركه الأدبية والحياتية، كما أغرم فن التمثيل فكان يكثر من الذهاب إلى المسارح وقاعات الموسيقى.

أحب ديكنز وهو فى الثامنة عشرة من العمر ولكنها هجرته بعدما وعدته بالزواج لمعارضة أهلها ولقد تزوج من كاترين هوجارت ولم يكن الزواج عن حب ولكنه أثمر عشرة أطفال فى خلال ١٥ سنة.

وكشفت رسائل الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز التي حررها ونشرها جراهام ستوري عن قصة الحب التي خاضها ديكنز فى المراحل الأخيرة من حياته، والتي تسببت فى انفصاله عن زوجته كاثرين، وهي قصة حبه العنيف للممثلة الشابة نيللي تيرنان التي لم تجلب له السعادة بل جلبت له القلق والانزعاج بعد أن أصبحت

حياته الشخصية نهباً لفضول الآخرين على إثر نشر رسائل خاصة به وبحبه الأخير جعله يفقد الثقة فى الرسائل كوسيلة تواصل بين الأصدقاء والأحبة.

أثناء قيام صديقه فورستر بكتابة سيرته الذاتية، طلب منه ديكنز أن يكون أكثر تعاطفاً معه فى كتابه، وأن يلقي الضوء على حرمانه العاطفي فى طفولته والذي كان السبب فى عدم إغداقه بمشاعره على الآخرين وفي التعاسة التي لازمته طوال حياته والتي كانت وراء محاولته إغراء الممثلة الشابة الصغيرة نيللي بالمال حتى تبادله حبّاً بحب. قال عنها:

- القانون مغفل اذا كان يظن أنه يرغم المرأة على عمل شىء لا تريده

- المرأة أساس المدنية والحضارة والعمران وإن لم يعترف بذلك الرجال، ولذلك دع الرجل يقول ما يشاء ولتفعل المرأة ما تشاء.

- بعض الرجال يحبون المال، وبعضهم يحبون المجد، أما النساء فهن عند الرجال أغلى من المجد، وأثمن من المال.

- المراة الجميلة تطرب لشروق الشمس

تقول جين سميلي مؤلفة كتاب "قصة حياة تشارلز ديكنز" إنه بدأ يلمع أدبياً عام ١٨٣٥ اي وهو فى الثالثة والعشرين من العمر فقد نشر عندئذ روايتين بعنوان "بدايات بوز" و"مغامرات السيد بيكويك". وبما أنه كان يحب المسرح كثيراً فإنه تعود على قراءة نصوصه علنياً أمام الجمهور وظل مواظباً على هذه العادة حتى موته.

ولم تكن الحياة العامة لتشارلز ديكنز بأقل أهمية من إبداعه الروائي أو الأدبي فقد كان ناشراً، وداعماً للفكرة الديمقراطية، ومنظراً للرأسمالية والحداثة، وحريصاً على المصلحة العامة، كما دافع عن الطبقات الشعبية الفقيرة والأشخاص المهمشين والشخصيات الفردية الشاذة عن الخط العام.

وتضيف: لرواياته الواقعية جداً أهمية تاريخية بالإضافة إلى أهميتها الفنية ومن يريد أن يطلع على الحياة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر فليقرأ روايات تشارلز ديكنز.

في عام ١٨٣٦ حيث كان عمره أربعا وعشرين سنة فقط نشر كتابه الأول بعنوان "حكايات بوز" أو "اسكيتشات بوز" وذلك فى جزئين وهي عبارة عن حكايات أو وقائع حصلت لبوز فى حياته اليومية والواقع ان بوز ليس إلا الاسم المقنع لتشارلز ديكنز نفسه وقد أسعدت هذه الحكايات الجمهور المثقف كثيراً. وكانت تنشر فى الصحف على حلقات.

وعندما وجد لأول مرة اسمه مطبوعاً فى الجرائد كاد أن يجن من الفرح. وأخذ ينشر بعدئذ مغامرات بيكويك التي أعجبت كل انجلترا وكانت السبب فى شهرته.

عرف ديكنز عندئذ بضع سنوات شديدة الخصوبة من حيث الكتابة والإبداع وراحت حياته العائلية تستقر. فتوالت رواياته حيث نشر روايته "أوليفر تويست"، "حياة ومغامرات نيقولا نيكلبي"، "دافيد كوبرفيلد" وراح ديكنز عندئذ ينخرط فى الصحافة السياسية، والكتابات المسرحية، وكتب الرحلات وحكايات الميلاد للأطفال، وسنقوم الآن برحلة بين أبطال أعماله الرائدة .

* **ترنيمة عيد الميلاد :** تعد الشخصيات الرئيسية فى قصة " ترنيمة عيد الميلاد " ابن عزير سكروج، وعائلة كراتشيت وتاينى تيم وشبح مارلى وأرواح عيد الميلاد الثلاث. والقصة تصور بطريقة مسرحية تحول ابن عزير من عجوز متذمر شحيح إلى شخص كريم دافئ القلب .

ودخلت كلمة "سكروج" منذ ذلك الحين فى اللغة الإنجليزية كمصطلح يصف البخيل . فسكروج يعتبر عيد الميلاد "هراءً"، ويرفض أن يعتبره من الأعياد.

وفى أمسية من أمسيات عيد الميلاد يحلم بزيارة شبح شريكه المتوفى جاكوب الذى حذر سكروج بأن يغير من طريقته فى الحياة. وتظهر ثلاث أرواح تمثل عيد

الميلاد الماضى والحاضر والمستقبل، ويقدمون له سلسلة من الرؤى التى تجعل سكروج يدرك أن وجوده كئيب وشحيح، وكيف أنه جعل حياته بائسة جدا.

وكانت هذه القصة هى القصة الأولى فى سلسلة حكايات أعياد الميلاد التى نشرها ديكنز فيما بين عامى ١٨٤٣ – ١٨٤٨ ، يليها : رنين الأجراس، والحظ الطيب، ومعركة الحياة، والرجل الممسوس .

* **قصة مدينتين :** فى عام ١٨٥٩ نشر ديكنز "قصة مدينتين" أى قصة باريس ولندن وقد اعترف فيما بعد بأنه كتبها تحت تأثير الفيلسوف الانجليزي توماس كارلايل ويبدو أن كلتا المدينتين كانتا عزيزتين على قلب ديكنز ولكن معرفته بهما لم تكن متساوية فلندن أقرب اليه بكثير يضاف إلى ذلك أنه كان يخشى الثورة الفرنسية وأعمال العنف التي حدثت فى مرحلتها الثانية ولذلك فإن روايته كانت تهدف ضمنياً إلى تحذير الإنجليز من القيام بثورة كهذه.

يفتتح ديكنز "قصة مدينتين" بعبارة من أشهر عباراته على الإطلاق هي "كان ذلك الزمن أفضل الأزمنة، وكان أسوأها" حيث يروي قصة تدور أحداثها فى مدينتين هما لندن وباريس. فى لندن نتعرف على لوسي مانيت، ابنة الطبيب الفرنسي ألكساندر مانيت، الذي كانت تحسبه ميتاً، ثم تفاجأ بأنه كان مسجونا فى الباستيل، ولا تعلم بوجوده إلا بعد إطلاق سراحه، واجتماعه بها فى لندن.

هنا يصور ديكنز شخصية الأب الذي أنهكته سنوات السجن الطويلة، حيث كان يعمل صانع أحذية خلال تلك الفترة، وهو يخرج أدواته بين الحين والآخر ويعود إلى تلك المهنة، كأنه ينسى واقعه الجديد. يتم استدعاء الأب وابنته للشهادة فى قضية خيانة يتهم فيها تشارلز دارني، وهو شاب فرنسي لطيف تعجب به لوسي، ويبرأ من تهمته على يد محام شاب يشبهه إلى حد مذهل اسمه سيدني كارتن.

يبوح كارتن للوسي بحبه رغم علمه بأنه غير جدير بها، ويتمنى لها حياة سعيدة مع من تحب، ويعدها أن يقدم لها يوماً ما يثبت جدارته بحبها.

في باريس، يسجل ديكنز أحد مشاهده الأكثر تأثيرا فى الذاكرة على الإطلاق، حيث يسقط فى الشارع برميل خمر من عربة تحمله، وينكسر فى الشارع، ويتدافع الناس لشربه قبل أن تمتصه الأرض، وفي هذه الأثناء يغمس أحدهم يده فى الوحل النبيذي ويكتب على الحائط كلمة "دماء"، كأنه يتنبأ بما ستؤول إليه الأمور فى فرنسا.

في القصة الكثير من التفاصيل المدهشة، والشخصيات المرسومة بدقة، وهي ذات حبكة مثيرة مليئة بالمفاجآت، يطرح ديكنز فى قصته - بحسب النقاد - أهمية التضحية، حيث يضحي الثوار بكل غال وثمين فى سبيل الحرية التي يدركون صعوبتها، والثمن الضخم الذي سيدفعونه من دمائهم من أجلها.

كما يرى ديكنز أن الثورة تميل حتماً إلى القمع والعنف، فهو رغم دعمه للقضية التي استوجبت الثورة إلا أنه يشير إلى ما يرتكبه الثوار من شرور.

* **أوقات عصيبة** : يدعو دكينز فى هذه الرواية إلى تحسين وضع العمال المزري، ويذكر كتاب سيرة تشارلز ديكنز أنه فى عام ١٨٥٤ حدث إضراب فى مدينة بريستون الصناعية بشمال انجلترا، فقطع ديكنز، بفضوله النهم المعروف، كل الطريق من لندن إلى هناك ليرى ما الذي كان يجري وفي وقت لاحق كتب هذه الرواية وسمى المدينة كوكتاون كانت مدينة مداخن طويلة تنتشر منها أعمدة دخان لا متناهية بخطوط أفعوانية، كانت فيها قناة قذرة، ونهر يجري ماؤه بلون أرجواني، وبرائحة تبعث على الغثيان، وأكوام هائلة من البنايات المليئة بالنوافذ حيث الضوضاء والقعقعة طيلة اليوم، وحيث مكبس الآلة البخارية يصعد ويهبط بحركة روتينية مثل رأس فيل فى حالة كآبة وجنون.

وربما تكون هذه القطعة هي الأكثر شهرة فى الأدب الإنجليزي حول تأثيرات الثورة الصناعية وتشويهها الإنسان.

* **أوليفر تويست** : تعد قصة أوليفر تويست نموذجًا فريدًا من فن تشارلز ديكنز الروائي، كتب تشارلز هذه القصة عام ١٨٣٨م، وهي تعد من روائع الأدب

العالمي،إنها قصة كلاسيكية: ترجمت إلى جميع لغات العالم، وتحولت إلى فيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني، ولا تزال تدرس فى المدارس حتى اليوم.

وتدور القصة حول طفل يسمى أوليفر تويست، ولد فى ملجأ للفقراء، حيث انتشرت هذه الملاجئ فى إنجلترا فى تلك الأيام بموجب قانون "إسعاف الفقراء الجديد" الذي صدر عام ١٨٣٤م، وكان هذا القانون موضع انتقاد وشجب بالغ، كما كانت هذه الملاجئ مثالاً للقسوة والإهمال والفساد الإداري والاستغلال الخادع للدين، حيث كانت تُدار من قِبَلِ رجال لهم ارتباط بالكنيسة.

ولد أوليفر من أم مجهولة لجأت إلى الملجأ وماتت بعد الولادة مباشرة، لتبدأ رحلة عذاب أوليفر فى هذا المكان الذي لم يكن الأولاد الصغار يجدون فيه ما يسد جوعهم ولا ما يلبي حاجاتهم العاطفية.

ولأن أوليفر بعد أن جاوز سن العاشرة طلب مرة مزيداً من الحساء الذي لا يختلف فى تركيزه عن الماء كثيراً، والذي هو الطعام الرئيس والدائم فى الملجأ، فقد اعتبر هذا التصرف جريمة منكرة، سُجن بسببها أوليفر وطُرد من الملجأ، وأُلحق بتدبير من إدارة الملجأ بدفَّان المنطقة ليتعلم فن صناعة التوابيت ودفن الموتى والنواح فى الجنائز.

ولسوء المعاملة عند الدفان ومضايقة الخادم وولد آخر ـ كان يعمل مع الدفان ـ ومعايرتهم الدائمة له بأنه ابن الملجأ وأنه لا يعرف لنفسه نسباً؛ فر أوليفر ماشياً إلى لندن يحدوه الأمل فى أن يحصل على عمل شريف يقتات منه.

ولكن سوء الحظ أوقعه فى يد عصابة شريرة تمتهن السرقة والنشل يقودها يهودي عجوز يسمى فاجين، حيث حاول هذا الأخير تعليم أوليفر فن النشل، ولكنه نجا من أيدي العصابة مرة لتختطفه مرة أخرى وينجو منها ثانية بعد أهوال تقشعر لها الأبدان، ليقع فى أيد أمينة وتسير الأمور به نحو معرفة هويته عبر عدد من

المفاجآت، وتنتهي القصة بالقضاء على العصابة وإعدام اليهودي شنقاً، واستقرار حالة الولد أوليفر تويست بعد سنوات من العذاب.

وقد ذكر ديكنز اليهود فى هذه الرواية ووصفهم بأبشع الصفات حيث قال فى روايته عن فاجين اليهودي "يهودي متغضن الوجه طاعن فى السن، كان وجهه المنفِّر الناضح بالشر محجوباً وراء كتلة من الشعر الأحمر المتلبد" .

وفي أحد المواقف أورد الكاتب هذه العبارة "... فإذا بيهودي آخر يلبي النداء يهودي أصغر سناً من فاجين، ولكنه لا يقل عنه دناءة وبشاعة مظهر" .

* **الآمال الكبار :** فى ظل العطاء والحس الإنساني تنمو آمال "بيب" الكبار وهي الآمال التي قضت عليه الأقدار مكابدة ألوان العذاب فى حياته فقد نشأ يتيماً وقاس مرارة اليتم لترمي به ظروفه فى سجن لم يرحمه سجانوه، إذ كابد فيه ألوانا من التعذيب.

"وتشارلز ديكنز" فى هذه الرائعة يطعم أحداثه بنكهة الأمل والتفاؤل بأنه ما زال فى هذه الحياة متسع لآمال كبار تنمو بفضل آخرين موجودة بداخلهم الإنسانية بأحلى صفاتها، وهم لا شك مازال لهم وجود فى هذا العالم.

* **ديفيد كوبرفيلد :** تعتبر رواية "ديفيد كوبر فيلد" واحدة من أشهر رواياته، وأجملها حيث يرى بعض الكتاب أنها تقريباً قصة حياته! . حيث إنه عرف عنه نشئته الفقيرة، وإجباره على ترك المدرسة فى سن مبكرة. وقد أنعكست هذه النشأة بالطبع، على رواية ديفيد كوبر فيلد.

يقول ديكنز : "من بين كتبي كلها ، أحب هذا العمل أكثر من غيره" فى هذه القصة يصور فيها حياته الخاصة منذ الطفولة وحتى الشباب والنضج والشهرة إنها عبارة عن سيرة ذاتية وفي هذه الرواية نجد حكاية طفولته البائسة وكيفية اشتغاله كعامل فى مصنع ينتج دهان الأحذية والشموع والرائحة الكريهة التي كان

يتحملها على مضض وكذلك الإذلال والفقر ثم يتحدث أيضاً عن بداياته الصحفية فى البرلمان وقصة حبه الخائب لفتاة جميلة رفضته.

و قد توفى تشارلز ديكنز وهو لم يتعد الثامنة والخمسين من عمره، فقد أثرت قراءات ديكنز لأعماله للجمهور على صحته تأثيرا سيئا فاعتكف فى منزله وأخذ يكتب قصة " سيرادوين درود.

وفي يوم ٨ يونيو عام ١٨٧٠ استمر فى الكتابة طوال اليوم فى الكوخ الصغير الملحق بمنزله وعاد إلى المنزل فى المساء حيث قام بكتابة بعض الخطابات.. وأثناء تناوله طعام العشاء ، تبينت أخت زوجته - التي كانت معه - أنه مريض ويهلوس.. فقد قال فجأة أنه سيذهب إلى لندن فورا .. ولكن عندما حاول القيام من مقعدة سقط مغشيا عليه ثم مات.

وكان الشيء الذي يميز الفترة الاخيرة من حياة ديكنز هو تركيزه على الرواية الاجتماعية وتجديده فى عدة مجالات ففي عام ١٨٥٤ أصدر رواية بعنوان "في المصانع" وأما روايته "دوريث الصغيرة" فتدين بعض مظاهر الظلم والقهر فى المجتمع الإنجليزي الرأسمالي الصاعد آنذاك إنها تدين المضاربات المصرفية التي تؤدي إلى الربح السريع دون بذل أي جهد يذكر كما تدين سجن الناس بسبب الديون المتراكمة عليهم والتي يعجزون عن دفعها.

وعند وفاته عام ١٨٧٠ بكته انجلترا كلها ومشت وراء جنازته بالملايين ولم يحظ أي كاتب بهذا التشريف الرسمي والشعبي.. وربما كان الروائي الأكثر شعبية فى كل تاريخ العالم !

ولم تكن حياة تشارلز ديكنز العاطفية ناجحة كما هي حياته الأدبية .. فقد كانت أول تجربة حب مخيبة للآمال عندما أحب وهو فى سن الثامنة عشرة ولكن حبيبته هجرته بعدما وعدته بالزواج ليتزوج بلا حب من سيدة بريطانية أسمها كاثرين

هوغارث وينجب منها تسعة اطفال فى خلال خمسة عشر عاماً، ولكنه انفصل عن كاثرين بعد أن وقع فى حب ممثلة شابة أسمها نيللي تيرنان ولكن تسرب رسائل الحب المتبادلة بينهما إلى الجمهور جعله يصاب بالإحباط وفقدان الثقة فى من حوله. وقد يبدو العطش العاطفي فى حياة تشارلز ديكنز جلياً فى قوله : بعض الرجال يحبون المال، وبعضهم يحبون المجد، أما النساء فهن عند الرجال أغلى من المجد، وأثمن من المال.

و تكشف رسائل الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز التي حررها ونشرها جراهام ستوري عن قصة الحب التي خاضها ديكنز فى المراحل الأخيرة من حياته، والتي تسببت فى انفصاله عن زوجته كاثرين، وهي قصة حبه العنيف للممثلة الشابة نيللي تيرنان التي لم تجلب له السعادة بل جلبت له القلق والانزعاج بعد أن أصبحت حياته الشخصية نهباً لفضول الآخرين على إثر نشر رسائل خاصة به وبحبه الأخير جعله يفقد الثقة فى الرسائل كوسيلة تواصل بين الأصدقاء والأحبة.

دأب تشارلز ديكنز بعد ذلك على تمزيق كل رسالة تصله عقب قراءتها، وفي الوقت نفسه أجبر نفسه على الاختصار الشديد فى كتابته لأية رسالة يجد نفسه مضطراً لكتابتها. ومن بين الرسائل التي نشرت رسالة كان يعرب فيها ديكنز لصديقه الفنان ريتشارد لين فى عام ١٨٦٤ عن استيائه من عكوف البعض على جمع رسائل الأدباء الشخصية ونشرها فى كتاب لتكون مثار تعليقات الناس فى مجالسهم الخاصة والعامة.

ونتيجة لنشر مجموعة من رسائله الخاصة فى حياته، أصر ديكنز خلال الفترة الأخيرة من حياته على أن يكون عازفا أكثر عن كتابة رسائله حتى إنه لم تظهر له رسائل أخرى يعبر فيها عن حبه لنيللي تيرنان إلا فى عام ١٨٦٧ عندما بعث بها إلى مساعده وصديقه ويلز الذي كان يعيش فى أميركا فى ذلك الوقت.

ومع ذلك لم يكن تشارلز ديكنز فى رسائله يبدو كرجل يغدق الكثير من مشاعره على الآخرين، بل كان على العكس من ذلك، حتى إن موت والدته لم يحرك فيه أية

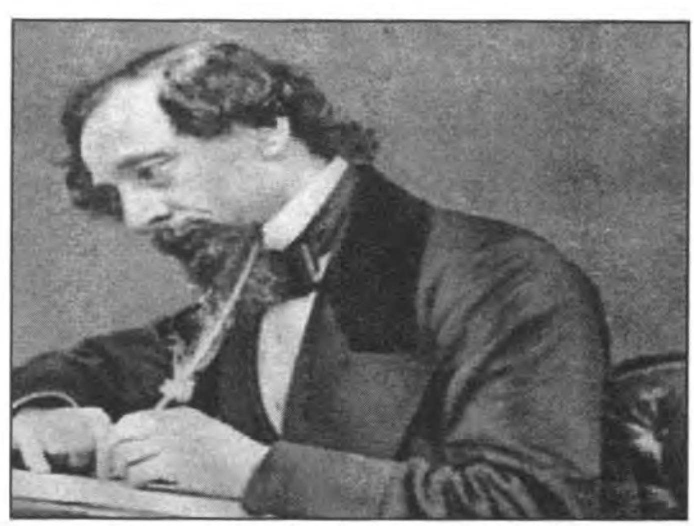
مشاعر. كذلك عندما توفي ابنه الصغير فى الهند لم يقم بكتابة خطاب واحد إلى زوجته كاثرين يعزيها فيه فى ابنها. ايضاً قال عن كاثرين انها أصبحت بالنسبة له كصفحة من حياته كان قد كتب عليها أشياء فى سابق الأيام وأصبحت بعد ذلك صفحة بيضاء خالية.

وأثناء قيام صديقه فورستر بكتابة سيرته الذاتية، طلب منه كما ذكرنا أن يكون اكثر تعاطفاً معه فى كتابه، وأن يلقي الضوء على حرمانه العاطفي فى طفولته والذي كان السبب فى عدم إغداقه بمشاعره على الآخرين وفي التعاسة التي لازمته طوال حياته والتي كانت وراء محاولته إغراء الممثلة الشابة الصغيرة نيللي بالمال حتى تبادله حباً بحب.

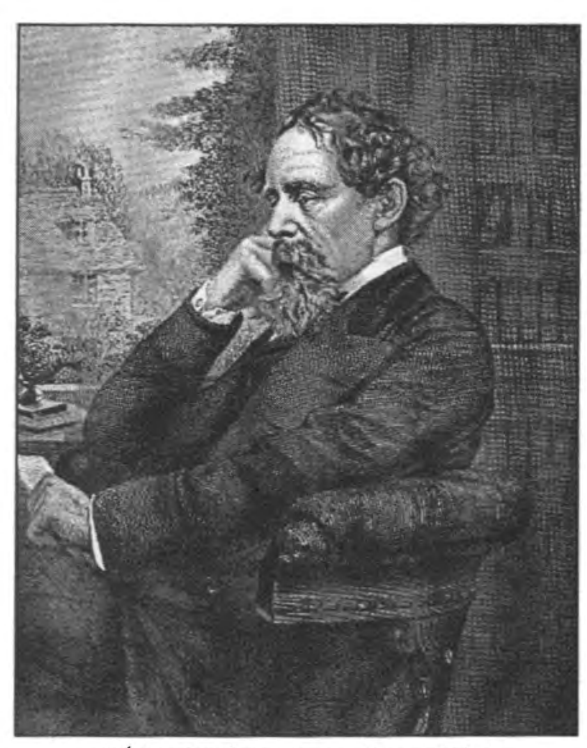
كان تشارلز ديكنز شديد الإعجاب بنفسه وبأعماله الأدبية. وكان دائم الحديث عن إعجاب الآخرين برواياته وخصوصاً رواية «ديفيد كوبرفيلد». والكثير من خطاباته تتحدث عن إعجابه وإعجاب الآخرين بأعماله الأدبية، وبالرغم من إعجابه الشديد بنفسه وتعاليه على الآخرين إلا أن أحدا لا يملك إلا الإعجاب بديكنز وبشخصيته الغريبة.

وما تخرج به من هذه السيرة هو أن كتابة الرسائل الغرامية قد يكون من أكبر أخطاء الرجل.. خاصة إذا كان فى قامة تشارلز ديكنز وقيمته.

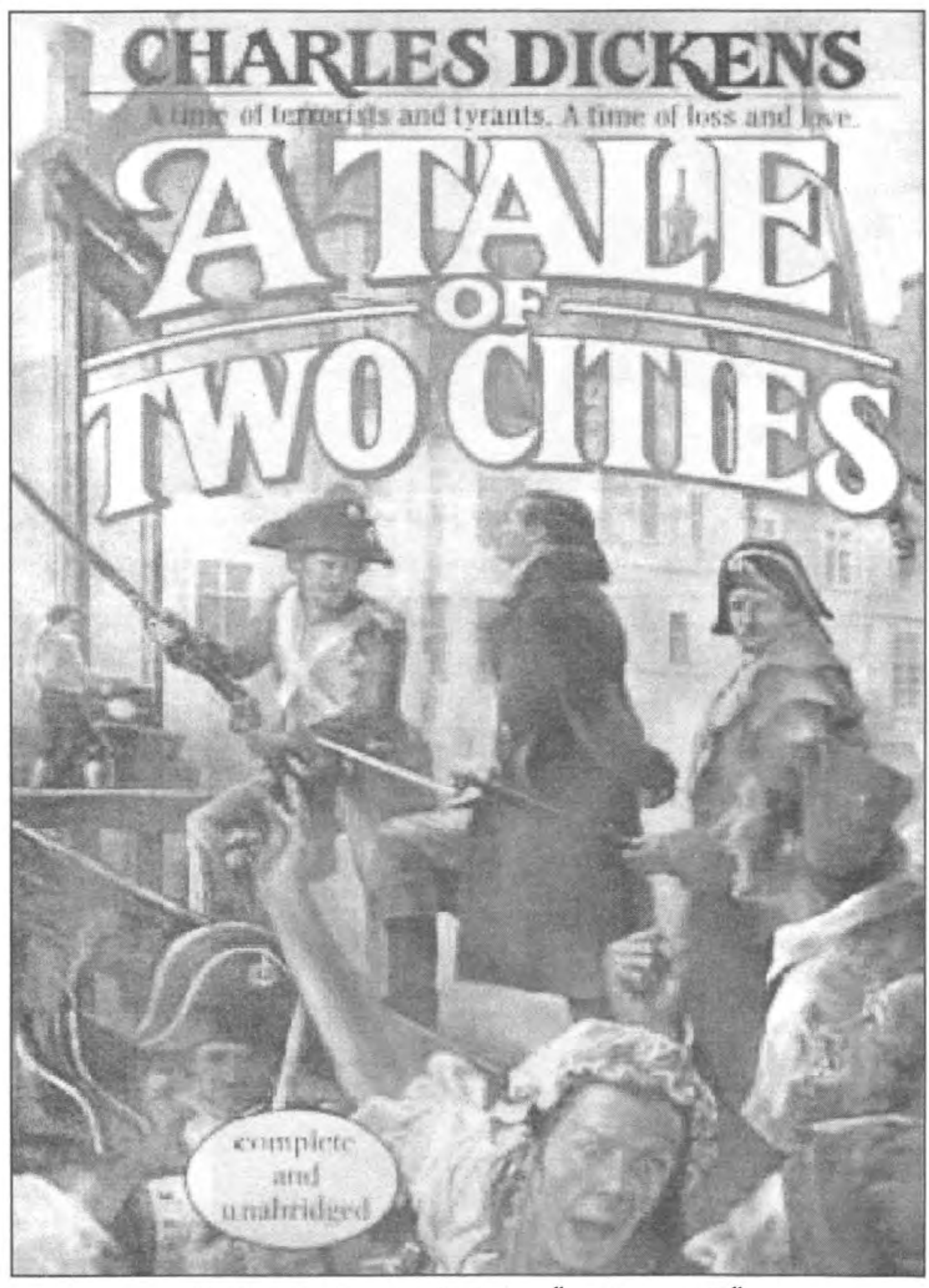
كان تشارلز ديكنز عبقريا بكل ما تعنيه الكلمة.. فهو يتميز عن أقرانه بذكاء لمَّاح .. وهو دؤوب يعشق العمل وفوق ذلك كان يمتلك طاقة خلاقة جبارة .. وقد ساعدت الظروف والأحداث التي مرت فى حياته على شحذ عبقريته وعلى توجيه تفكيره وحياته كلها إلى احتراف القصة حيث كان نبوغه .



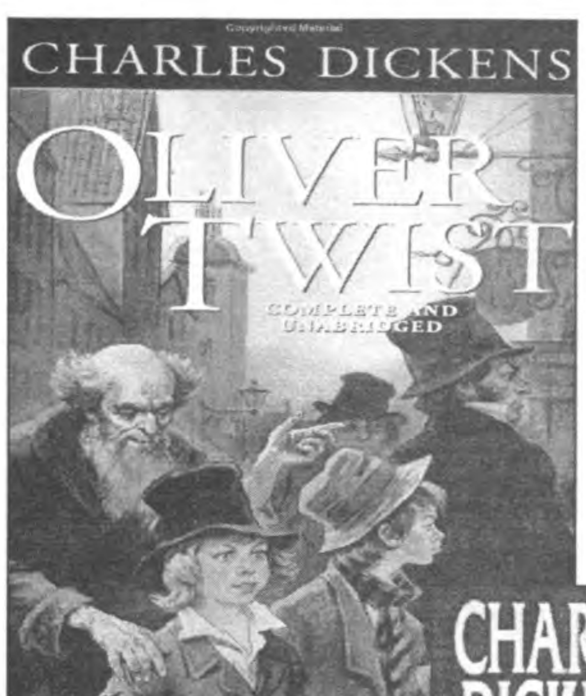
هكذا كان يكتب ديكنز بكل مشاعره وحواسه .



وهكذا كان يقضي بعض الوقت فى التأمل .



" قصة مدينتين " .. أعظم أعمال ديكنز بلا منازع !



رائعة ديكنز "أوليفر تويست".



الآمال الكبار .. رائعة أخرى لديكنز.

لويس برايل ..

جعل الأصابع بديلة للعين !!



16

كان من الممكن أن يستسلم .. كان من السهل أن يتحول إلى مجرد رقم فى سجل الفاشلين .. ولكنه انتصر على الظروف اللعينة بالإرادة، وقهر الصعاب بالعزيمة والإصرار .. ولم يتوقف الأمر عند حد الانتصار على مأساته، بل كان كل همه الانتصار لكل من قهرتهم الحياة كما فعلت معه، فى شتى أنحاء العالم، وفي أي زمان أو مكان، ومن هنا كانت عبقريته، التي لا يزال العالم ينتفع بها حتى يومنا هذا وربما لبقية تاريخه على الأرض !

لقد شاء الحظ أن يفقد لويس برايل نعمة النظر، فما كان منه إلا أن آل على نفسه أن يجعل عميان العالم يبصرون النور بطريقته !!

وتبدأ القصة التي لاتزال حديث العالم جيلا بعد جيل، فى عام ١٨١٢ كان لويس برايل صبياً صغيراً . فقد عاش فى بلدة صغيرة بفرنسا . وامتلك أبوه دكاناً صغيراً حيث كان يصنع فيه أشياء جلدية . وفي أحد الأيام كان لويس يلعب فى دكان أبيه، والتقط آلة صغيرة ذات نتوء حاد جداً . وسقط أرضاً ثم دخل النتوء فى عينه . وفيما بعد أصبح مكفوفاً فى كلتا عينيه .

وبالرغم من كونه فى ربيعه السابع أو الثامن، إلا أنه وجب عليه المشي بعصا لكي يتحسس إلى أين كان ذاهباً . وشعر سكان البلدة بالأسف حينما رأوا الصبي الصغير مكفوفاً بالكامل أثناء تحسسه الطريق على طول الشوارع بعصاه لكي يجد الاتجاه المطلوب . ولما فقد بصره لم يمنعه ذلك من أن يتعلم مثل أقرانه المبصرين، فالتحق بمدرسة قريبة من منزله، وكان لويس يتميز بالذكاء والإبداع الشديد، لكنه

لم يستطع أن يستمر فى هذه المدرسة لأنه لم يكن يملك دفع المصروفات، فسافر إلى باريس حيث التحق بمدرسة داخلية مجانية للمكفوفين .

هناك تعلم لويس القراءة. وكيفية التمييز بين الستة والعشرين حرفاً من الأبجدية، بتحسسها بأصابعه . إلا أن الحروف كانت بضعة بوصات أعلى وأعرض، فمقال مقتضب جداً يملأ بضعة كتب، وكل كتاب كان ذا وزن ثمانية أو تسعة أرطال.

وأصبح لويس فيما بعد معلماً بنفس تلك المدرسة .

و وجد لويس نفسه يتحرق لإيجاد نظام أفضل للقراءة الخاصة بالمكفوفين، غير أن ذلك لم يكن سهلاً . وقد عبر عن ذلك فى أحد الأيام، أثناء زيارته لبيت الأسرة،حيث قال لأبيه :

"المكفوفون هم الأكثر عزلة فى العالم . وأنا أستطيع تمييز طائر من آخر عن طريق صوته . كما أستطيع معرفة باب البيت بتحسس يدي . ولكن هناك أشياء لا حصر لها لا تمكنني من السماع والتحسس . إن الكتب فقط تستطيع تحرير المكفوفين . لكنه لا توجد كتب كي نقرأها " . وذات يوم، وأثناء جلوسه فى مطعم مع صديقه الذي كان يقرأ له من جريدة . استمع لويس لهذا الصديق يقرأ مقالاً عن ضابط فى الجيش الفرنسي برتبة رائد، تمكن من استعمال نظام للكتابة فى الظلام أطلق عليه " الكتابة الليلية "، ليرسل التعليمات العسكرية إلى الجيش الفرنسي وهو فى حربه مع الألمان وتتكون أساساً من اثنتي عشرة نقطة، ويمكن أن تتكون كل الكلمات بالتبادل .

وفي هذه الكتابة استعمل الرائد بيير لسكي نظام النقاط والفواصل حيث رفعت على الورقة، لكي يتمكن الشخص من تحسسها بأصابعه .

وعندما سمع لويس حول هذا النظام، كان مسروراً جدا حيث شرع يتكلم بصوت عال وهو يذرف الدموع . فاستوقفه صديقه :

- أرجوك يا لويس اهدأ .. الناس تتطلع إلينا .

فما كان من لويس العاجز عن مداراة انفعاله إلا أن قال :

- أخيراً وجدت الجواب لمعضلة المكفوفين .. الآن بإمكان الناس المكفوفين الانعتاق.

وفي الصباح التالي، ذهب لويس مع صديقه لرؤية رائد الجيش حيث سأله عن نظامه، فكان الأخير يقول بأنه أستعمل آلة ذات نهاية مدببة لعمل الثقوب (النقاط) والفواصل الصغيرة على ورق سميك .

وكان بإمكان الشخص تحسس النقاط والفواصل على الجهة الأخرى من الورقة. لقد كانت علامات معينة تدل على شيء واحد . إن الآلة التي استعملها رائد الجيش كانت نفس نوع الآلة التي لعب بها لويس سابقاً، عندما سقط فى أحد الأيام أرضاً ودخل النتوء فى عينه .

قال لويس : " أنا متأكد بأننا نستطيع استعمال هذا النظام لمساعدة المكفوفين فى القراءة مع إعطائهم كتباً " .

مضى لويس يدرس هذا النظام الجديد لتطبيقه على المكفوفين . فقد درس طرقاً مختلفة لعمل النقاط والفواصل على الورق .

وأخيراً توصل إلى نظام بسيط استعمل من خلاله ست نقاط خلال فراغ صغير واحد . وبهذه النقاط الست، وبأوضاع مختلفة خلال نفس الفراغ، تمكن من عمل ٦٣ مجموعة مختلفة، كل مجموعة تشير إلى حرف من الأبجدية أو إلى كلمة قصيرة. حتى إن هذه المجاميع اشتملت على علامات التنقيط. مما دعا لويس فوراً إلى تأليف كتاب مستعملاً نظامه الجديد نظام " برايل " .

في البداية، لم يصدق الناس بأن نظام لويس برايل كان ممكناً أو عملياً . فما كان من لويس إلا أن راح يتكلم أمام جموع الناس ويبين كيف تمكن من الكتابة

باستعمال تلك النقاط على الورقة تقريباً، بنفس السرعة التي تمكن بها شخص ما من القراءة له . ثم أعاد قراءة ما سبق وكتبه بسهولة . ولكن الناس لم تصدق، وقالوا بأن ذلك مستحيل من ناحية التطبيق . كما زعموا أن لويس تعلم عن ظهر قلب ما قرأه لهم .

وفي كل مكان حدث نفس الشيء الناس لم يصدقوا لويس . وفي بعض الحالات لسبب ما أو لآخر لم يرغبوا فى تصديقه، حتى إن الحكومة الفرنسية لم ترغب فى سماع أي شي يخص نظام لويس، قائلين إنهم كانوا قبل الآن يفعلون أي شي ممكن لأجل المكفوفين .

واستمر لويس فى العمل بنظامه .

ومن فرط تأثره سقط لويس صريع المرض، لكنه استمر يعمل ويعمل بنظامه مطوراً إياه . واستنبط الإشارات لموضوع الرياضيات إضافة إلى الموسيقى .

ففي أحد الأيام كانت بنت مكفوفة منذ ولادتها تعزف على البيانو بشكل بديع جدّاً أمام جمهور غفير حيث استمتع كل واحد منهم . ثم نهضت الشابة وقالت بأن الجمهور لا يجب عليه شكرها لأدائها البديع . يجب عليهم شكر لويس برايل الذي سهل لها طريقة تعلمها الموسيقى والعزف على البيانو . كما أخبرتهم بأن لويس برايل كان رجلا مريضاً على فراش الموت .

وفجأة وبعد عدة سنوات، أصبح كل شخص مولعاً بـ لويس برايل . راحت الصحف تكتب عنه كما أصبحت الحكومة مهتمة بنظامه الخاص بالقراءة للمكفوفين .

وذهب أصدقاء لويس إلى بيته لرؤيته حيث كان راقداً فى سريره . وأخبروه بما حدث فانفجر فى البكاء ثم قال بعد أن هدأ :

"هذه هي المرة الثالثة فى حياتي أبكي فيها . لقد بكيت أولاً عندما أصبحت مكفوفاً كما بكيت ثانياً عندما سمعت عن " الكتابة الليلية " . والآن أبكي لأن حياتي لم تكن فاشلة " . وبعد بضعة أيام مات لويس برايل وهو فى الثالثة والأربعين من العمر .

طريقة برايل هي الوسيلة التي يستخدمها المكفوفون الآن فى القراءة والكتابة وهي طريقة تتكون من عدد من الخلايا، وتحتوي كل خلية على عمودين، يتكون كل عمود من ثلاث نقاط بارزة، يستطيع الكفيف أن يقرأها من خلال تلمسها بأطراف أنامله ،أرقام النقاط فى العمود الأول من الخلية هي ١-٢-٣ من أعلى إلى أسفل، وأرقام النقاط فى العمود الثاني من الخلية ٤-٥-٦ من أعلى إلى أسفل أيضا، ويتكون كل حرف أو كلمة أو عدد أو علامة ترقيم أو علامة إعراب أو حرف موسيقي من تكوين خاص لهذه الحروف البارزة.

ويمكن الكتابة بطريقة برايل عن طريق اللوح المعدني باستخدام قلم ذى سن معدني مدبب يقوم بكتابة الحروف من خلال ثقوب فى الورقة بواسطة لوحة معدنية أو خشبية محفور بها عدد من خلايا برايل، ثم يقوم بقراءة الكتابة بعد قلب الورقة من الخلف. أو آلة برايل التقليدية وهي أدوات قديمة لا تحقق طموحات المكفوفين.

أما الآن فقد حققت التكنولوجيا تطورا هائلا بالنسبة للمكفوفين من خلال التطوير فى تقنيات الحاسوب الذي يقوم بتحويل الكتابة العادية إلى طريقة برايل على أسطر إليكترونية من خلال برنامج قارئ الشاشة " فيرجو" بحيث يستطيع الكفيف قراءة ما يعرضه من معلومات ومعارف بسهولة تامة.

وقد يسرت طريقة برايل على المكفوفين أن يسجلوا مذكراتهم ويكتبوا رسائلهم ويقرءوا ما يحلوا لهم من الكتب والمجلات وأن يقوموا بإجراء العمليات الحسابية المختلفة، كما مكنتهم من قراءة وكتابة المقطوعات الموسيقية المختلفة .

وقد أخذ الاتحاد الدولي للمكفوفين على عاتقه الالتزام بالعمل على دعم انتشار طريقة برايل وتعليم المكفوفين من خلالها . وأطلق فى ذلك شعاره الشهير "قارئي برايل هم القادة " .

وفي دراسة حديثة وجد أن الأشخاص الذين يتعلمون برايل فى مرحلة مبكرة من العمر قد استطاعوا أن يكملوا دراستهم، وأن يحصلوا على وظيفة مرموقة ودخل مرتفع، كما كانت قراءتهم أكثر وذلك مقارنة بالمكفوفين الذين لم يتعلموا برايل منذ الصغر .

وعندما انخفض معدل القراءة والكتابة بطريقة برايل فى أمريكا بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٨٠ انخفاضا حادا بسبب دمج المكفوفين فى المدارس العامة، بسبب قلة المعلمين الذين يعرفون طريقة برايل ومن ثم ارتفاع معدل الأمية بين المكفوفين، قامت منظمات المكفوفين بالتحرك نحو الضغط وبقوة لفرض التعليم بطريقة برايل فى المدارس العامة.

ونتيجة لذلك قامت أكثر من ثلاثين ولاية أمريكية بسن التشريعات الخاصة بالقراءة والكتابة بطريقة برايل فى المدارس العامة، وتحفيز المؤسسات التربوية على تعليم المكفوفين بهذه الطريقة.

وهناك أسباب كثيرة تبرز أهمية طريقة برايل فى تعليم المكفوفين أهمها :

* طريقة برايل هي الوسيلة الوحيدة التي من خلالها يستطيع الكفيف أن يقرأ اللغة المكتوبة

* طريقة برايل هي الوسيلة التي من خلالها يستطيع الكفيف أن يدرس المواد المعقدة مثل الحساب والكيمياء والتدبير المنزلي وعلم دراسة الموارد المالية .

* طريقة برايل هي الوسيلة التي من خلالها سيستطيع الكفيف أن يستخدم قناتين عقليتين فى آن واحد للتواصل مع الآخرين هما الكلام والكتابة .

* طريقة برايل هي الوسيلة التي من خلالها يستطيع الكفيف أن يسجل العناوين الهامة بالنسبة له، عناوين الكتب والمقالات والأشخاص ...إلخ، وأن يحتفظ بها بكل سهولة.

* طريقة برايل هي الوسيلة التي من خلالها يستطيع التلميذ الكفيف أن يقرأ دروسه بهدوء فى المدرسة أو المنزل.

* طريقة برايل هي الوسيلة التي عن طريقها يستطيع الكفيف أن يتعلم تعقيدات اللغة، كالهجاء والنحو، وعلامات الترقيم وعلم العروض (أوزان الشعر) .... إلخ

* طريقة برايل هي الوسيلة الوحيدة التي عن طريقها فقط يستطيع الكفيف أن يتواصل بسهولة مع الكفيف الأصم .

* طريقة برايل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع من خلالها المحامي الكفيف أن يقرا المرافعات فى القضايا المختلفة .

* طريقة برايل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع من خلالها الموظف الكفيف أن يقدم الخدمات المتعلقة بمعلومات أو بيانات معينة إلى الجمهور.

* طريقة برايل تفتح مجالات شتى للعمل أمام المكفوفين.

وقد أكد الباحثون الأكاديميون أن التعليم المبكر لـ برايل يرتبط بقوة بالنجاح الأكاديمي والمهني فى حياة المكفوفين فيما بعد. وعند مقارنتهم بين طريقة برايل وبرامج الصوت المعدة للمكفوفين كسماعات الأذن التي تم تطويرها، كانت المقارنة لصالح طريقة برايل .. وإليكم نتائج هذه المقارنة بين طريقة برايل التي مرت على اختراعها عقود وعقود من الزمان، والمنتجات العصرية للألفية الثالثة:

* تسبب سماعات الأذن أضرارا بالغة بالأذن، وقد اجرى روبرت نوفاك، مدير العيادة الطبية فى جامعة بوردو فى إنديانا وباحثون آخرون اختبارات على عدد من الطلاب، وخلصوا إلى أن سماعات الأذن تسبب فقدانا متزايدا لحاسة السمع خصوصا عندما يكون الصوت مرتفعا جداً.

وقال رئيس إدارة علوم الاتصال فى جامعة نورث ويسترن الأمريكية أنه غالبا ما توضع السماعات مباشرة فى الأذن ولا تكون محكمة وبالتالي قد تسمح بتسرب

الضوضاء الخارجية الأمر الذي قد يجعل المستمعين يميلون إلى رفع الصوت أكثر للتغطية على الأصوات الخارجية.

وفي دراسة كندية حديثة حذرت من مخاطر سماعات الأذن لأنها قد تساهم بشكل كبير فى انخفاض حدة السمع وربما فقدانه.

* تتمتع طريقة برايل بخصوصية فريدة تسمح للكفيف بالاطلاع والتصفح وكتابة رسائله فى حضور عدد خفير من الناس دون أن يلتفت إليه أحد أو ينزعج منه أحد أو يطلع أحد على ما يكتب أو يقرأ .

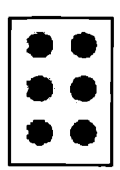
* تساعد طريقة برايل المكفوفين على الاندماج مع الآخرين من خلال إتاحة الفرصة أمامهم للتواصل معهم والإنصات إليهم أثناء الحديث مع متابعة ما يقرأ أو يكتب دون تشتت أو عزلة، عكس ما تفرضه برامج الصوت من عزلة على المكفوفين تحت سيطرة الاستماع وانشغال الأذن الكامل . كما تساعد على إنجاح عملية إدماج الطالب الكفيف فى المدارس العامة من خلال منح نظرائه من المبصرين الحق فى التعلم الهادئ بعيدا عن ضوضاء الصوت .

* من خلال طريقة برايل يستطيع الطالب الكفيف أن يدون ملاحظاته داخل الفصل وأن يستمع إلى ملاحظات الآخرين ويدونها فى آن واحد وأن يبحث عن النقاط التي يريدها وهو يستمع إلى زملائه، خاصة مع استخدام الأجهزة الحديثة مثل جهاز برونتو، أصغر أجندة محمولة للمكفوفين فى العالم، وأن يصل إلى أي موضوع من موضوعات الدراسة بسهولة تامة .

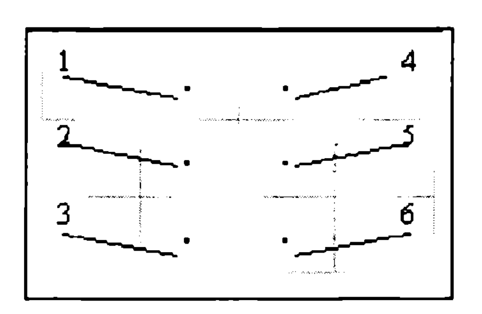
* بدون طريقة برايل لا يمكن للكفيف أن يتواصل تحريريا مع الآخرين سواء من خلال أداء الامتحانات التحريرية داخل الفصل أو من خلال مراسلة رفاقه المبصرين أو كتابة المقالات والمذكرات الخاصة .

حروف لغة برايل

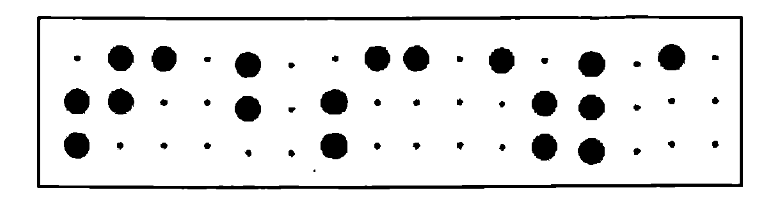
كتابة برايل فى الأساس على ست نقاط أساسية ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار :



ومن هذه النقاط الست تتشكل جميع الأحرف والاختصارات والرموز ومع دخول الكمبيوتر إلى عالمنا دخل نظام الثماني النقاط فى نظام الكمبيوتر ليعطي مجالا لاستيعاب أكبر عدد ممكن من الإشارات والرموز، ولكن هذا النظام ظل مستخدما فقط فى الكمبيوتر ولم يوسع لغيره. أما طريقة قراءة هذه الأحرف فتتم من اليسار إلى اليمين:



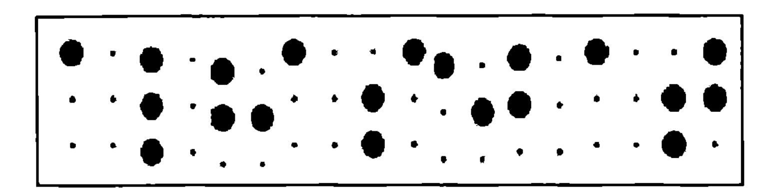
وكلمة (الحاسبات) بالعربية من اليمين إلى اليسار تُكتب وفق طريقة برايل بالشكل:



بعض الحروف العربية على طريقة " برايل " .

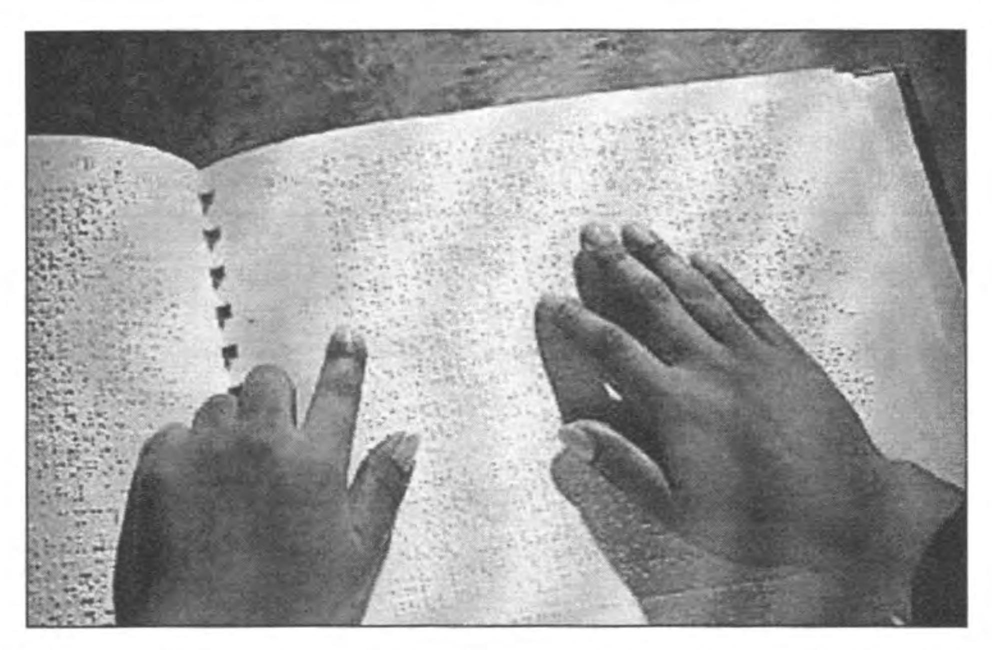
الحرف العادي	حرف برايل	أرقامه	الحرف العادي	حرف برايل
ا	⠁	١	ب	⠃
ت	⠞	٢،٣،٤،٥	ث	⠹
ج	⠚	٢،٤،٥	ح	⠱
خ	⠭	١،٣،٤،٦	د	⠙
ذ	⠮	٢،٣،٤،٦	ر	⠗
ز	⠵	١،٣،٥،٦	س	⠎
ش	⠩	١،٤،٦	ص	⠯

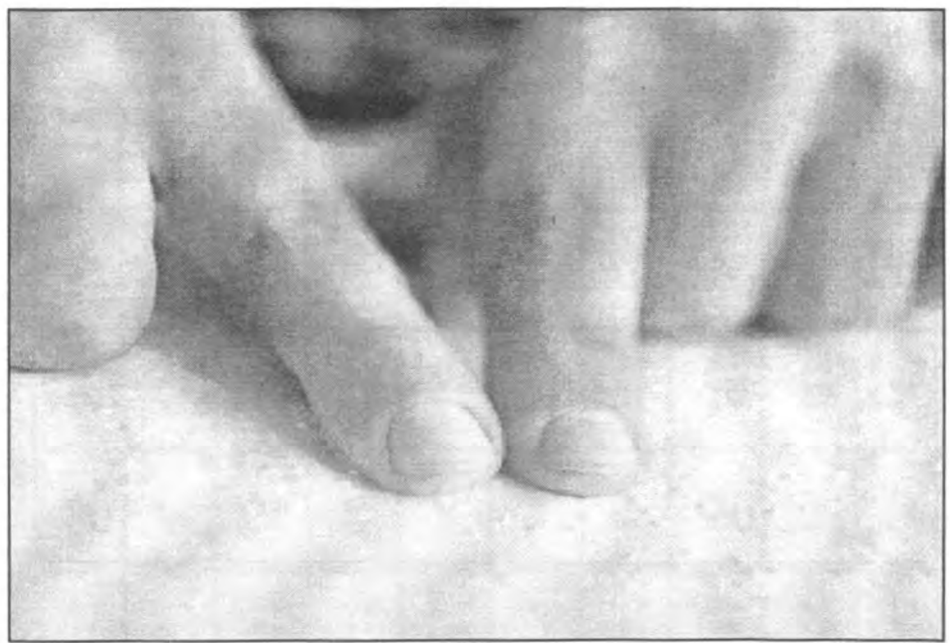
وتُكتب كلمة (ALHASEBAT) بالانكليزية من اليسار إلى اليمين وفق طريقة برايل بالشكل:



وهذه قائمة بالأحرف الانكليزية الموافقة:

a	b	c	d	e	f	g	h	i	j
⠁	⠃	⠉	⠙	⠑	⠋	⠛	⠓	⠊	⠚
k	l	m	n	o	p	q	r	s	t
⠅	⠇	⠍	⠝	⠕	⠏	⠟	⠗	⠎	⠞
u	v	w	x	y	z	ß	ü	ä	ö
⠥	⠧	⠺	⠭	⠽	⠵	⠮	⠳	⠜	⠪





هكذا أصبحت طريقة " برايل " طوق نجاة لكل المكفوفين فى العالم على يد هذا العبقري الملقب بـ " الكفيف المنقذ " !!

أوبرا وينفري ..

انتصرت على مأساتها المركبة !!



17

هذه المرأة نموذج للعبقرية عندما تتجاوز كارثة إنسانية يستحيل أو على الأقل يصعب تجاوزها، وتحول مأساتها إلى قصة نجاح مدوية تفوق جميع التوقعات، فتحظى من الشهرة والثراء والأهم المكانة والاحترام ما يعجز المرؤ عن وصفه، حتى أصبح مجرد ظهورها إلى جانب مرشح للرئاسة خير دعاية له !!

هذه العبقرية الملقبة بـ " السندريلا السمراء " هى مقدمة البرامج الحوارية والممثلة المسرحية الأمريكية " أوبرا وينفري " ، التي أبت إلا أن تنتصر على مأساتها المركبة " الفقر والاغتصاب " !!

أوبرا وينفري ملكة الإعلام الأميركية أثبتت بجدارة أنه بمقدور الإنسان الذي لا يملك شيئا أن يحصل على ما يريد بل أكثر مما يريد، فمن شوارع الفقر تحولت أوبرا لملكة الإعلام، وأصبحت أول ملياردير ة أميركية أفريقية.

وقد اختارتها مجلة " فوربس" الأميركية ثلاث مرات لتكون الشخصية الأكثر تأثيرا فى العالم متقدمة بذلك على مشاهير الفن، والسياسة، والرياضة وقد وصفتها وسائل الإعلام بأنها أهم من رئيس الولايات المتحدة، نظرًا لكونها مقدمة مميزة لبرنامج "أوبرا وينفري شو"، الذي يعرض يوميا، ويتابعه الملايين من عشاقها فى جميع أنحاء العالم .

لم تكن طفولة أوبرا سعيدة، بل على العكس كانت من أتعس السنوات التي يمكن أن تعيشها طفلة.. فقد ولدت فى ٢٩ يناير ١٩٥٤ وعاشت طفولة تعيسة وفقيرة،

والدها كان حلاقاً بالإضافة إلى عمله ببعض الأعمال التجارية الصغيرة، والدتها كانت تعمل فى خدمة البيوت .

وبعد انفصال والديها عاشت عند جدتها فى حي فقير فى ولاية مسيسيبي إلى أن بلغت السادسة من عمرها .. وتشير أوبرا إلى تعرضها فى المرحلة التي تلت ذلك إلى تحرش جنسي من أحد أقاربها وفي الرابعة عشرة من عمرها هربت من منزلها وهامت على وجهها فى الشوارع إلى أن أرجعها والدها وتلك كانت بداية مرحلة جديدة فى حياتها.

ولكن العيش مع والدها لم يحل مشاكلها رغم محبته الكبيرة، فانحرفت إلى طريق المخدرات وهي لا تزال فى الرابعة عشرة، بالإضافة إلى إنجابها طفلا لم يكتب له الحياة، وبالتالي عانت من مشاكل المراهقة بصورة متضاعفة ولكن تدريجيا استطاعت استعادة ثقتها بنفسها بمساعدة والدها المعروف بشدته وصرامته والذي كان له أثر إيجابي على سلوكها للطريق المستقيم.

وعن أحلامها كطفلة تعبر أوبرا: "في طفولتي كنت أملك حلما بأن أكون مشهورة وغنية، إلا انني كنت أعي الظروف التي ولدت فى ظلها، حيث تربيت فى بيت جدتي الفقير التي تعلمت منها القراءة، وأهلتني كي أصبح على ما أنا عليه الآن".

وعن سر نجاحها فى برنامجها تقول أوبرا: أعتقد أن الأمر مرتبط بذلك الخيط الذي يربط بين أذهان البشر وعقولهم، فكلنا نرغب فى الأشياء نفسها وتجاربنا الإنسانية متشابهة إلى حد ما، ليس هذا وحسب، بل إن الشعور الذي تنقله إلى من تحاوره بأنه مواز لك، وأنك لا تعتبر نفسك أعلى منزلة منه الأمر الذي يجعل الحوار أكثر تلقائية وراحة، إن كثيرا من الذين حاورتهم أصبحوا أصدقائي ويدعونني لزيارة منازلهم وتناول الغذاء معهم.

بدأت اوبرا التمثيل مع المخرج الأميركي ستيفن سبيلبيرغ عام ١٩٨٥ فى فيلم" اللون القرمزي "وحازت على ترشيحات من الأكاديمية والجولدن غلوب عن

دورها فى الفيلم، كما لعبت فى عام ١٩٩٨ دور سيث فى الفيلم المبني على الرواية الفائزة بجائزة بوليتزر للكاتب توني موريسون.

كما شاركت بأفلام تلفزيونية من إنتاجها وهي "نساء قصر بريكستون" عام ١٩٨٩، و"لا يوجد أطفال هنا" عام ١٩٩٣، و"كانت للنساء أجنحة من قبل" عام ١٩٩٧.

وفي مطلع عام ٢٠٠٠ كانت اوبرا واحدة من مؤسسي قناة اوكسجين الخاصة بأمور النساء، حيث أطلقت اوبرا برنامج "أوبرا أفتر ذا شو" الذي كان يبث حصريا لقناة أوكسجين وهو عبارة عن نصف ساعة من لقطات واقعية لا تلتزم بأي نص.

في أبريل عام ٢٠٠٠ صدرت مجلة أوبرا التي أصبحت اليوم من أهم المجلات المتصدرة والمتخصصة بحياة النساء، وسجلت المجلة نجاحا تاريخيا، وفي عام ٢٠٠٢ طرحت أوبرا النسخة العالمية من مجلتها فى جنوب أفريقيا.

وتعقب أوبرا على إصدارها مجلتها الخاصة وإنشائها أستديو خاصا لتصوير ولإنتاج برامجها فتقول: «في بداية الأمر لم آخذ الأعمال بكثير من الاعتبار، حيث كانوا يقولون لي ورد اسمك فى لائحة فوربز لأثرى الأثرياء فى الإعلام، لم أكن أولي الأمر أهمية إلى أن نمت لدي روح المنافسة وذهبت لأفكر بالمرتبة التي حلت بي، لذلك اتصلت ببيل كوسبي وقلت له: ما رأيك لو تسلفني بعض المال كي أتقدم مرتبة فى لائحة فوربز؟ لقد تخطاني أعضاء فريق نيوكيدز أون ذا بلوك؟. وعن المحافظة على إنجازاتها وأعمالها تقول أوبرا: تعلمت أن أوقع شيكاتي بنفسي وأن أعمل معظم الوقت، وأن لا أرتاح إلا بعد يوم عمل لا يقل عن ١٤ ساعة، ففي تلك اللحظة فقط أشعر بأني أستحق وعن جدارة الاسترخاء فى مغطس بالفقاقيع، لأنني أشعر أنني عملت جاهدة وأستحق ذلك.

إنجازات أوبرا لا تعد ولا تحصى كان من بينها إنشاء أكبر مكتبة فى العالم لينهل منها طلاب العلم والمعرفة فى كل القارات، لذلك سيخلد اسمها بين صفحات كتب

التاريخ لأنها رسمت الابتسامة على شفاه الأطفال الفقراء وقدمت الكثير من الحلول لأغلب المشاكل الاجتماعية .

و قد كان للقراءة أثر كبير فى حياة أوبرا، وفى حوار لها مع مجلة "لايف" قبل سنوات قالت أوبرا: "كانت أسرتي تلقبني وأنا صغيرة بدودة الكتب، حيث كنت أمضي ساعات طويلة فى مكتبة المنزل أقرأ وأقرأ ويمضي الوقت دون أن أدرك ما يحدث من حولي.

كانت الكتب تمنحني فكرة أن هناك حياة مختلفة وراء منزلي الفقير فى المسيسيبي". ربما كان عشقها للقراءة، هو ما دفعها إلى تقديم "نادي الكتاب" ضمن برنامجها "أوبرا وينفري شو" فى عام ١٩٩٦، وخلال ست سنوات قدمت ما يزيد على ٤٦ كتابا.

أما الكتب التي قامت أوبرا باختيارها فقد ارتفعت مبيعاتها لتصل إلى قائمة "أعلى الكتب رواجا" وبيع أكثر من مليون نسخة من كل كتاب. ومنحها اتحاد الكتاب الأميركي ميدالية ذهبية فى عام ١٩٩٩، وجائزة الشرف من اتحاد الناشرين الأميركيين عام ٢٠٠٣ تقديرا لتأثيرها فى صناعة الكتاب فى الولايات المتحدة من خلال هذا البرنامج.

أوبرا لا تشجع على القراءة فقط بل تدعو إلى الكتابة وتوضح: "من خلال الكتابة تستطيع أن توضح كل أفكارك الداخلية ومشاعرك، تستطيع أن تفهم من أنت، من تريد أن تكون فى الحياة".. وقد كتب عن أوبرا ١٧ كتاباً، وقامت هي بتاليف ٤ كتب، وأحدث كتاب هو " عش حياتك كما ينبغي ".

وتقدر ثروة أوبرا اليوم بـ ٢,٩ مليار دولار وقد بدأت أوبرا أولى خطوات "البيزنس" الخاص بها بشرائها لبرنامجها، والذي أصبح تحت تصرفها من خلال شركة إنتجاها " هاربر برودكشن ".

وفي عام ١٩٩٧ أسست برنامجها الشهير" شبكة أوبرا الملائكية "، والذي يدعو لجمع المساعدات المالية لمساعدة المحتاجين، والذي حقق نتائج ملموسة حيث تم بناء ٢٠٠ منزل لإيواء المشردين، كما استخدمت ٣٠ مليون دولار من المساعدات لإنشاء منحة تعليمية جامعية للطلاب المحتاجين، بالإضافة إلى دعمها المعنوي والمالي لضحايا "تسونامي" من خلال شبكتها التي تهدف إلى تشجيع العمل التطوعي.

ولا يستطيع أحد أن ينسى أعظم أعمال "أوبرا" إنسانيا، عندما قامت بزيارة لقارة أفريقيا، حيث قامت بتبني خمسين ألف طفل أفريقي، محاولة منها للمساهمة فى حل مشكلة الفقر المزمن، الذي يعاني منه الكثير من أطفال أفريقيا. وقررت أن لا تنجب أطفالا.

وقد تحول برنامج أوبرا إلى مؤسسة خيرية تقدم الهبات والهدايا المختلفة لمساعدة المحتاجين، ومن مفاجآت البرنامج العديدة كانت المفاجاة الاكبر عام ٢٠٠٤ عندما قدمت لـ ٢٧٦ شخصا وهم جمهور حلقة معينة "سيارة لكل شخص". لم يصدق الجمهور ما يجرى له. وردت المذيعة على دهشته بالقول: "يجب أن تشكروا أقرباءكم واصدقاءكم هم الذين رشحوكم لحضور حلقة اليوم لأنكم فى أمس الحاجة لسيارة ولا تسمح لكم أوضاعكم المالية بشرائها".

وبمناسبة عيد الميلاد الأخير، أطلت علينا أوبرا يوم ٢٦ يناير بعرض حافل بالمفاجآت، فقد اختارت شبكتها الملائكية، السيدة برناديت وأطفالها التسعة لمساعدتها بعد أن تلقت معلومات من فريق البحث الخاص بالشبكة، حول معاناة برناديت المالية والاجتماعية، وقدمت أوبرا هدايا عيد الميلاد لها ولأطفالها التسعة التي اختاروها بأنفسهم، بالإضافة إلى فيلا مؤثثة تاثيثاً كاملاً فى حي راق، وعرضت أوبرا أيضا الشركات التي ساهمت بتأثيث الفيلا.

كان المشهد مؤثراً فدموع برناديت وأطفالها لم تتوقف معبرين عن فرحتهم، كل ما تقدم من مساعدة ليس بالأهمية كما ذكرت أوبرا عندما وجهت حديثها للأطفال

التسعة.. " إن امتلاك بيت جميل شيء جميل فى الحياة، ولكن الاهم الان هو تحمل مسؤولية أنفسكم، فأنا أطلب من كل واحد منكم أن يعمل باجتهاد لينهي سنوات المدرسة بنجاح.. وأعدكم بأنني شخصيا سأتولى نفقات دراستكم الجامعية لأن التعليم حرية..لأن التعليم حرية..هو التعليم.. هو التعليم " .

وكانت لأوبرا المبادرة فى سن قانون لحماية الأطفال عام ١٩٩١، حيث ألقت بشهادتها أمام اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ مطالبة بإنشاء شبكة معلوماتية للمتهمين بالاعتداء على الأطفال فى الولايات المتحدة، وفي عام ١٩٩٣ وقّع الرئيس الأميركي بيل كلينتون على ما أسماه "مذكرة أوبرا" !

وقد بلغت ثروتها عام ٢٠٠٣ مليار و٩٠٠ مليون دولار مما وضعها قائمة مليارديرات العالم . وحسب تصنيف مجلة فوربس لعام ٢٠٠٧،احتلت أوبرا المرتبة الخامسة فى أول ٢٠ شخصية من النساء الأكثر نفوذا على صعيد وسائل الاعلام والسلطة الاقتصادية. كما احتلت المركز الثاني حسب تصنيف مجلة فوربس لعام ٢٠٠٨ فى قائمة أكثر الشخصيات تأثيرا فى العالم الذي ضم ١٠٠ شخصية .

آخر الأحداث التي ارتبطت ببرنامج أوبرا هو ظهور نجمة هوليوود الجميلة درو باريمور، عن تبرعها بمليون دولار أمريكي خلال إحدى حلقات برنامج "أوبرا وينفري شو" وذلك لمساعدة برنامج الأغذية العالمي فى تقديم مساعدات غذائية لأطفال المدارس فى كينيا.

وقالت درو باريمور: أشكر أوبرا على السماح لي بالظهور والتبرع فقد رأيت بعينيّ الفرق الذي يحدثه كوب صغير من الطعام فى حياة طفل ما" .

وختاماً، يمكن تلخيص حياة أوبرا وينفري فى عبارة أوردها الأديب العالمي باولو كويلو فى روايته " ساحر الصحراء " تقول : إن السعي إلى تحقيق الحلم يساوي فهم الذات وتحقيق الذات، فعندما يسعى إليه الإنسان يتآمر العالم كله لكي يحقق له رغبته ما دام قد أوتي الشجاعة " .

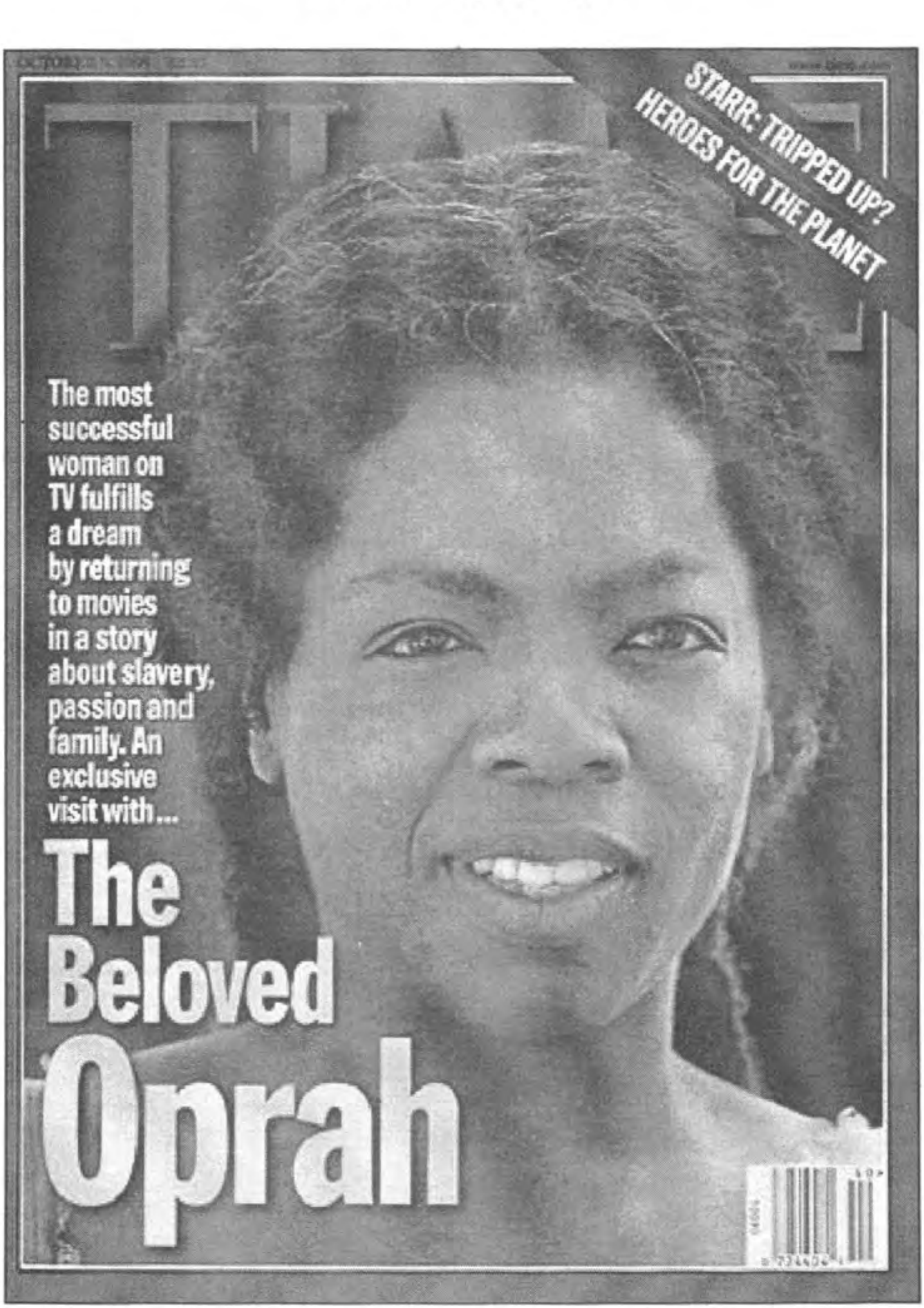
بقي أن نقول إن أوبرا وينفري قد تصدرت المركز الأول على لائحة أقوى ١٠٠ شخصية فى العالم لعام ٢٠٠٨ .

واحتل لاعب الغولف تايغر وودز المركز الثاني وحصلت إنجلينا جولي على المركز الثالث وبيونسيه نولز على المركز الرابع.

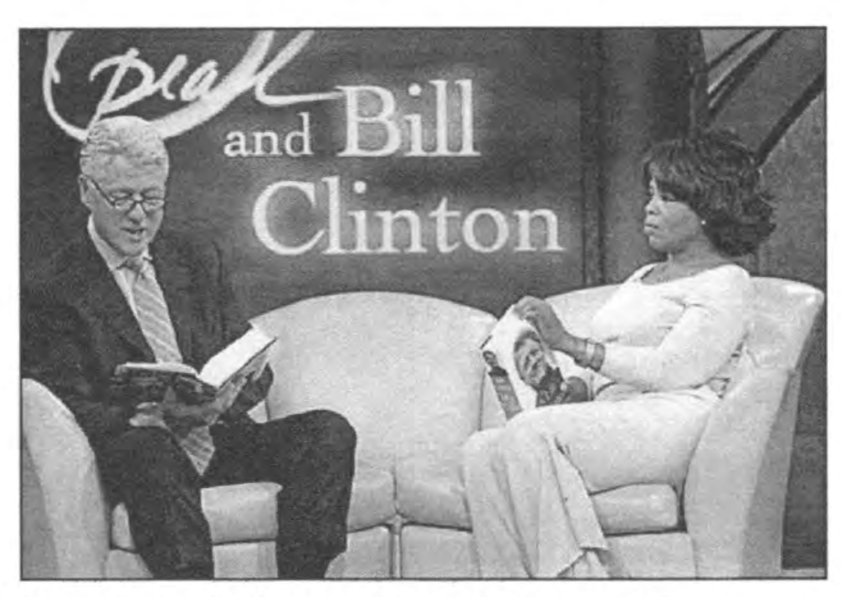
وكان المركز الخامس من نصيب لاعب الكرة البريطاني ديفيد بيكهام وجاء يليه جوني ديب فى المركز السادس وحصل جي زي فى المركز السابع اما براد بيت فحصل على المركز العاشر، حسب صحيفة " الوطن " الكويتية .

تجدر الإشارة إلى أن تحديد. المراكز يتم على أساس الأرباح التي يحققها المشاهير على مدى العام الماضي كما يعتمد على مدى انتشار وتواجد هؤلاء المشاهير إعلامياً.

وقد حققت اوبرا فى أحد الأعوام القريبة الماضية دخلا يصل إلى حوالي ٢٧٥ مليون دولار بينما حقق وودز حوالي ١١٥ مليونا و٨٠ مليونا لبيونسيه. وبالرغم من أن أرباح جولي تبلغ ١٤ مليونا و٢٠ مليونا لبراد بيت إلا أنهما استطاعا تحقيق مركز بارز على القائمة الشهيرة على مدى عامين بسبب الأضواء الإعلامية المسلطة عليهما باستمرار.



أوبرا .. من قمة الفقر والتعاسة والشقاء إلى حيث الشهرة والمجد كما تظهر على غلاف مجلة " تايم " فى بداية ظهورها وتألقها كـ " شخصية العام " !



مع الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون فى برنامجها يقرأ لها أجزاء من مذكراته التي تحمل عنوان " حياتي " .



ومع الرئيس الذى تنتهى رئاسته عام ٢٠٠٨م جورج بوش .



السندريلا السمراء دائمًا حديث الصحافة !!

مصادر ومراجع

١- مذكرات شارلي شابلن - تعريب صلاح حافظ -دار الهلال - ١٩٦٥.

٢ - الأبعاد الفنية للشخصية السياسية عند شارلي شابلن - خليل الشيخة - الحوار المتمدن – ١٨ مايو ٢٠٠٦.

٣- مايكل فارادي الفيزياء والإيمان- كولن إيه روسل – ترجمة وتحقيق محمد خالد شاهين- العبيكان - ٢٠٠٤.

٤- فينسنت فان كوخ - أديسون هيدو - محيط - ٧ يوليو ٢٠٠٨ .

فان جوخ .. عندما يخرج الإبداع من أحضان المأساة.

٥- هيلين كيلر - إيمان عبدالرحمن الكرود- الدمام .

٦- كتاب " قصة حياتي " – هيلين كيلر .

٧- قصة لويس برايل - ترجمة قحطان فؤاد الخطيب - جريدة " الحدباء " العراقية " الموصل " – ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢.

٨- أوناسيس فيلسوف المال والتجارة والحب - تركية البوسعيدي - صحيفة " الوطن " العمانية.

٩- أوناسيس.. من عامل بدالة إلى إمبراطور سفن - صحيفة " الرأي ".

١٠- حفيدة أوناسيس تطالب بالعرش - علاء حلمي- أخبار اليوم - ١٧ سبتمبر ٢٠٠٥ .

١١- نفوس حائرة تتوق للخلاص فى رائعة دستوفسكي "الجريمة والعقاب"- قراءة وعرض: سميرة سليمان - محيط - ٧ يوليو ٢٠٠٨.

١٢- دستوفسكي.. سيرة ذاتية لسيد الرواية - عباس لطيف – صحيفة "الصباح ".

١٣- كلاشينكوف.. قصة الرجل والسلاح - ماجد حبته – اسلام أون لاين-٢٠/٠٩/٢٠٠٣.

١٤- كلاشينكوف.. القتل اللذيذ - ياسر تعيلب – موقع " عشرينات "– ١٩مارس ٢٠٠٧.

١٥- هل ترسل الموناليزا آخر شفراتها - محمد عبد الخالق- موقع مصراوي – ٢١ مارس ٢٠٠٥ .

١٦- أبو الطب العربي.. احتفوا به وكفرناه - سمير حلبي – إسلام أون لاين.

١٧- بيتهوفن ثائر عبقري بائس - سودانيز أون لاين – ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣.

١٨- لودفيج فان بيتهوفن – ويكيبيديا .. الموسوعة الحرة.

١٩- بيتهوفن عشق الموسيقى بإحساس الصمت – محيط - ٧ يوليو ٢٠٠٨.

٢٠- بيتهوفن ... من ريف ألمانيا إلى أصداء العالمية - محمد العبيدلي- الحوار المتمدن – ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٥.

٢١- كتاب أشهر المعوقين فى العالم - زهير جمجوم .

٢٢- صم عظماء – دراسة - د. سامر سقاأميني.

٢٣- ذكرى رحيل عميد الأدب العربي محيط - مي كمال الدين-٢٨ أكتوبر ٢٠٠٧.

٢٤- طه حسين- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

٢٥- كتاب " معك " - سوزان طه حسين - ترجمة بدر الدين عرودكي- دار المعارف ١٩٨٢.

٢٦- مئوية طه حسين- مجلة أدب ونقد - يناير ١٩٨٩.
٢٧- توماس إديسون - ويكيبيديا.
٢٨- حياة توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي – موقع " مركز بوابة العرب التعليمي " على الإنترنت.
٢٩ - كتاب " أشهر المحاكمات فى التاريخ " - قدري قلعجي.
٣٠- سقراط الفيلسوف الشهيد - محمود مسعود – موقع سيريا سبيس على الإنترنت – ١٩ نوفمبر ٢٠٠٤.
٣١- محاكمة سقراط بين الفلسفة والسياسة - محمد كريم –موقع وجدة سيتي . نت –٤ سبتمبر ٢٠٠٦.
٣٢- تشارلز ديكنز ورسائله الغرامية – محيط –١٩ أبريل ٢٠٠٧ .
٣٣- روائع تشارلز ديكنز .. ضوء فى عتمة الفقراء- سميرة سليمان - محيط - ٧ يوليو ٢٠٠٨ .

الفهرست

تقديم 5

١-شارلي شابلن ..

أسطورة صنعتها المأساة !! 9

٢- مايكل فاراداي ..

بائع الكتب أعظم المخترعين !! 27

٣- فان جوخ ..

فى الحياة مأساة وفى الموت مأساة !! 39

٤-هيلين كيلر ..

من رحم المأساة يولد الأمل !! 51

٥- أرسطو أوناسيس ..

من عامل بدالة لقنصل لإمبراطور !! 69

٦- دستوفسكى ..

الجريمة والعقاب !! 91

٧-ميخائيل كلاشينكوف

من رحم المأساة تولد العبقرية !! 115

٨- ليوناردو دافنشي ..

اللقيط الذي صنع المعجزة !! 133

٩- أبو بكر الرازي ..

أبو الطب رغم أوجاعه !! 153

١٠- الأخوان رايت ..

بجناحَيهما حَلَّقَ العالم !! 171

١١- بيتهوفن ..

الأيادي المرتعشة لا تصنع مجدًا !! 183

الفهرست

١٢-طه حسين ..
خذله بصره فخلدته بصيرته !! 201
١٣-توماس أديسون ..
الفاشل الذي أضاء لنا الدنيا !! 223
١٤-سقراط ..
الثمن الفادح !! 241
١٥-تشارلز ديكنز :
لولا رحمة الله لأصبحت لصًا !! 261
١٦- لويس برايل ..
جعل الأصابع بديلة للعين !! 279
١٧- أوبرا وينفري ..
انتصرت على مأساتها المركبة !! 293
مصادر ومراجع. 305
الفهرست. 309

يتحدث هذا الكتاب عن عباقرة التاريخ الذين رفضوا أن يرفعوا راية الاستسلام للحياة عندما أشاحت عنهم، ولم يقروا بالهزيمة أمام واقعهم المؤلم، وبدلا من أن ينتهي به الحال إلى حياة التشرد والضياع، وربما الجريمة والسجن، رفضوا السقوط، قبلوا التحدي، انتزعوا النور من عتمة الظلمة، واستولدوا الأمل من رحم المأساة، وحولوا بداياتهم الكارثية إلى نهايات بطولية ملحمية نافعة، وقدموا للبشرية خدمات عظيمة، لم يكن بمقدورهم تقديمها لو كانوا قد استسلموا لظروفهم اللعينة، التي ينوء عن حملها الملايين من البشر. وفي هذا الكتاب نحاول تسليط الضوء على مآسي أهم وأبرز هؤلاء العباقرة في شتى المجالات ممن انهالت عليهم الحجارة من كل حدب وصوب فاستجمعوا قوتهم، وخرجوا من تحتها كالجبال شامخين، بعد أن جمعوها وشيدوا منها مجداً وتاريخاً. ومن هؤلاء سنطالع مأساة شارلي شابلن أشهر ممثل ومخرج سينمائي في التاريخ، وعالم كبير في حجم مايكل فارادي مخترع الدينامو، وتوماس أديسون مخترع الكهرباء، وميخائيل كلاشينكوف مخترع البندقية الشهيرة التي تحمل اسمه، ومعه العبقري المكفوف برايل الذي اخترع طريقته الشهيرة التي جعلت المكفوفين يبصرون النور، والأخوان "رايت" اللذين قدما للعالم أول طائرة في تاريخه. ومع كل هؤلاء يروي الكتاب قصة عالم مسلم يعرفه الغرب قبل الشرق هو أبو بكر الرازي، أبو الطب، ومأساة عبقري الموسيقى عبر العصور بيتهوفن، والأديب العالمي الخالد الذكر ديستوفسكي، وزميليه في سجل الخالدين شارلز ديكنز، وطه حسين، ومعهم فنانان خالدان خلود الأبدية بلوحتيهما الساحرتين هما ليوناردو دافنشي، وفان جوخ، ومعهم فيلسوف كل العصور العظيم سقراط، والعظيمة هيلين كيلر، التي فقدت حواسها الثلاث، فلم تستسلم لليأس، و"أوبرا وينفري بمأساتها المركبة " الفقر واليتم والاغتصاب" التي حولتها إلى أشهر قصة نجاح يتابعها العالم الآن .

كما يتضمن الكتاب قصة عبقري آخر هو أرسطو أوناسيس الذي لم يكن يملك سوى أصابع يده وبذكائه وعرقه وجهده استطاع أن يصبح أكبر أباطرة المال والأعمال، ويتزوج أرملة الرئيس الأمريكي الراحل جون كنيدي. هذا الكتاب محاولة لتقديم نماذج بشرية رفضت الاستسلام لواقعها المؤلم، و قررت تحويل الهزيمة إلى نصر فصارت نماذج يشار إليها بأصابع الإعجاب .

W.Salama 010 15 17 873


I.S.B.N. 977-376-423-0
9789773764234

